بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية والأربعون وهى التنيسية

حدَّث الحارث بن همَّام قال : أَطَعْتُ دَوَاعِي التَّصَابِي ، فى غُلَوَاءِ شَبَابِي ؛ فَلَمْ أَزَلْ زِيراً لِلْقِيد ، وَأُذُناً لِلْأَغَارِيدِ ؛ إِلَى أَنْ وَافَى النَّذِير ، وَوَلَّى العَيْشُ النَّضِير ؛ فقرِمْتُ إِلَى رُشْدِ الانْتِبَاه ، وَنَدِمْتُ عَلَى ما فرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ . ثمَّ أَخَذْتُ فِي كَسْحِ الهَنَاتِ بِالْحَسَنَاتِ ، وَتَلَافِي الْهَفَوَاتِ قَبْلَ الْفَوَاتِ ؛ فِلْتُ عَنْ مُعَادَاةِ الْغَادَاتِ ، إِلَى مُلَاقَاةِ التُّقَاةِ ، وَعَنْ مُقَانَاةِ الْقَيْنَاتِ ، إِلَى مُدَانَاةِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ ، وَآلَيْتُ أَلَّا أَصْحَبَ إِلَّا مَنْ نَزَعَ عَنْ الْغَيّ ، وَفَاءَ مَنْشَرُهُ إِلى الطَّيّ . وَإِنْ أَلْفَيْتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ ، مَدِيدُ الوسَنِ ، أنأيتُ دَارِى عَنْ دَارِهِ ، وفررْتُ عَنْ عَرِّهِ وَعَارِهِ .

* * *

أطلعْتُ دواعَى التَّصابِي ، يقال : أطعت كذا ، وطعت له ، أى انقدت . والمطيع : المنقاد ، والتَّصابى : التّظاهر بالصِّبا والتشاغل به . ودواعيه : ما يدعوه إليه ، وغُلَوَاء الشباب : أوله وسرعته ، أراد : مِلْت إلى اللهو واللعب فى أوّل

شبابى ، فلمّا أتى الشيبُ أحببت الرجوعَ إلى الخير . زيراً : كثير الزيارة . والغِيد : جمع غَيْداء ، وهى اللّينة العُنُق والمفاصل من النِّعمة . أذناً للأغاريد ، أى كثير الاستماع للغِناء ، وفلان أذُن ، إذا كان يستمع من كلّ قائل ، ويقبل منه . وافى : أتى ، والنَّذير : الشيب ، لأنه منذر الإنسان بتمام العمر ، أى يُعلمه . وَلّى : رجع وزال . النَّضِير : الناعم ، يريد زَمَن الشَّباب .

ونؤخِّر ذكر الشيب ، فإنه يؤدّى إلى تغيير شرح المقامة ، ونتكلم هنا على ذهاب الشّباب .

[البكاء والأسف على ذهاب الشباب]

قال أبو عمرو بن العلاء : ما بكَتِ العربُ شيئاً ما بَكَتِ الشباب ، وما بلغتْ به ما يستحقّه .

الأصمعىّ : من أحسن ألفاظ الشعر المراثى والبكاء على الشباب ، قال ابنُ عباس رضى الله عنهما : الدنيا العافية ، والشباب الصحة .

ومن ألفاظ أهل العصر : الشَّباب باكُورة الحياة ، وروائح الجنة فى الشباب . أطيب العيش أوائله ؛ كما أنّ أطيب الثمار بواكرها .

قال الصولىّ : قد أكثر فى ذكر الشّباب القدماء وأهل الإسلام . وأجمع الحُذّاق بالشعر وتمييز الكلام وألفاظه ؛ أنه لم يُقَلْ فيه أحسنُ من قول منصور النَّمَرِىّ ، ووقع الإجماع عليه ، فما ضرّ تأخّره ، وهو :

مَا تَنقُضِى عبرةٌ منّى ولا جَزَعُ ... إذا ذكرت شباباً ليس يَرْتَجِعُ[1]

(١) الأغانى ١٣ : ١٤٥ ، أمالى المرتضى ٢ : ٦٠٦ ، حماسة ابن الشجرى ٢٣٩

بانَ الشبابُ وفاتَتْنِي مسرَّتُهُ ... صروفُ دهرٍ وأيامٌ لها خُدَعُ
ما كنتُ أوفِي شبابي كُنْهَ غُرَّتِهِ ... حتَّى انقضَى فإذا الدّنيا له تبَعُ
إن كنتِ لم تَطْعَمِي ثُكْلَ الشَّباب ولمْ ... تَشْجَىْ بغصَّتِه فالعذر لا يقعُ
أبْكِي شَبَاباً سُلبناه وكان ولاَ ... توفِي بقيمَتِه الدّنيا ولا تَسَعُ
ماواجَهَ الشَّيْبُ من عينٍ وإن رَمَقَتْ ... إلّا لها نبوةٌ عنه ومُرْتَدعُ

وقال أبو نواس :

كانَ الشَّبَابُ مِطَيَّةَ الجَهْلِ ... ومحسِّنَ الضَّحِكَاتِ وَالهَزْلِ[1]
كان الجمالَ إذا ارْتَدَيْتُ به[2] ... وخرجتُ أُخْطِرُ صيِّتَ النعل
كان البليغَ إذا نَطَقْتُ به ... وأصاخت الآذان للمُمْلِي
كان المشفَّعَ فى مآربه ... عند الحِسَان ومُدْرِكَ التَّبْل[3]
والْبَاعثى والنّاس قد رَقَدُوا[4] ... حتى أكُون خليفةَ البَعْلِ[5]

وقال جحظة :

واهاً لأيّام الشبَا ... بِ وما لَبِسْنَ منَ الزخارفْ
وزَوالهنّ بمَا عرفـ ... ـت من المَنَاكِرِ والمعارف
أيام ذكرك فى دوا ... وين الصِّبا صَدْرَ الصحائف

(١) ديوانه ٣١١ ، أمالى المرتضى ٢ : ٦٠٧
(٢) المرتضى : « كان الجميل » .
(٣) التبل : الثأر ، وفى ط : « النبل » تحريف .
(٤) الديوان وأمالى المرتضى : « هجموا » .
(٥) بعده فى الديوان والمرتضى :

والآمِرِى حَتَّى إذا عَزَمَتْ ... نفسى أعَان علىَّ بالْفِعْلِ
فالآن صِرْتُ إلى مقارَبَةٍ ... وحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الصِّبا رَحْلِى

obeikandl.com

وقال ابن أبى حارثة :

ولّى الشَّبابُ تخلِّى العينَ تَنْهَمِلُ ... فقدُ الشَّبابِ بفقْد الرُّوحِ مُتَّصِلُ[1]

لا تكذبنَّ فما الدّنيا بأجمعها ... من الشَّبابِ بيومٍ واحدٍ بدلُ

وقال آخر :

شيئان لو بكت الدِّمَاءَ عليهما ... عينـــاى حتى تؤذِنَا بذَهَاب

لم أبلغ المعشارَ من حَقَّيْهِمَا : ... فقدُ الشَّبـاب وفُرْقة الأحباب

أعرابى :

يا طيبَ أيّامِ الشَّبَابِ وعَصْرِهِ ... لو يُسْتَعَارُ جَدِيدُه فيعـــارُ[2]

ما كان أقصرَ ليـــلَه ونهارَه ... وكذاكَ أيامُ السُّرورِ قِصارُ

وقال ابن عبد ربه :

قالوا شَبَابُكَ قد مَضَتْ أيَّامُهُ ... بالعيشِ قلْتُ وَقَدْ مَضَتْ أيامِى[3]

لله أية نعمـــة كان الصِّبا ... لو أنهـــا وُصِلَتْ بطُول دَوامِ

حَسَرَ الشَّبابُ قناعَه عن رأسه ... وصحا العواذلُ بعـد طُولِ مَلَامِ

فكأنّ ذاكَ العَيْشَ ظِلُّ غَمامةٍ ... وكأنَّ ذاكَ اللَّهْوَ طولُ مَنَـامِ[4]

وقال أيضاً :

صِبائى كَيْفَ صِرْتَ إلى نَفَادِ ... وبُدِّلْتَ البياضَ من السَّوادِ[5]

---

(١) اللآلى لأبى عبيد البكرى ٣٣٧ ، حماسة ابن الشجرى ٢٣٩ ، معانى العسكرى ٢ : ١٥٢ ، ونسبة الأبيات فيها الى محمد بن حازم ، وانظر أيضا العقد ٣ : ٤٦

(٢) العقد ٣ : ٤٧ ، بنسبته الى أعرابى أيضا .

(٣) العقد ٣ : ٤٧

(٤) العقد : « طيف منام » .

(٥) العقد ٣ : ٤٨ ، وفيه : « شبابى كيف صرت » .

obeikandl.com

فما أبْقَى الحوادثُ منك إلا ... كما أبقت من القَمَرِ الدّآدى[1]

فراقُك عرّف الأحْزَانَ قلبى ... وفرّق بين عينى والرُّقاد

زمانٌ كان فيه الرُّشدُ غيًّا ... وكان الغىّ فيه من الرّشاد

يقبِّلنى بدَلٍّ مِنْ قَتُولٍ[2] ... ويُسعِدُنى بوصلٍ من سُعَادِ

وأجنُبُه فيعطينِى قِيادًا ... وَيَجْنُبنى فأعطِيه قيادِى

قال الفرزدق :

إنَّ الملامةَ مثل ما بَكَرتْ بها ... من تحت ليلتِها عليك نَوَارُ[3]

قالت : وكيف يميل مثلُك للصِّبا[4] ... وعليك من سِمَةِ الحليم عِذَارُ

والشَّيْبُ ينهضُ فى الشَّباب كأنَّه ... ليلٌ يصيح بجانبيْه نَهَارُ

إنّ الشباب لرابح مبتاعُه[5] ... والشَّيْب ليس لبائعيه تِجَارُ

قال إسحاق الموصلىّ : قال لى المعتصم : لقد فَضَحك الشيب فى عارضيْك ، فقلت : نعم يا سيّدى ، وبكيت ثم قلت :

تولّى شبابُك إلا قليلاَ ... وحلَّ المشيب فصْبراً جَمِيلاَ[6]

كَفَى حَزَناً بفراق الصِّبا ... وإن أصبَح الشَّيْب منه بديلا

فلمَّا رأى الغانيات المشيبَ أغضين دونىَ طَرْفاً كَحِيلاَ[7]

سأندُب عَهْدَ انقضاء الصِّبا ... وأبكى الشَّبَاب بكاءً طويلا

---

(١) الدآدى : ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالى المحاق .

(٢) العقد : « قبول » .

(٣) ديوانه ٤٦٧

(٤) الديوان : « وتقول كيف » .

(٥) الديوان : « لرابح من باعه » .

(٦) الخبر والشعر فى الأغانى ٥ : ٦٩ (ساسى) .

(٧) الأغانى : « أغضين دونك » .

وغنَّيتُها . فبكى المعتصم ، وقال : لو قدرتُ على ردِّ شبابك لفعلتُ ولو بشَطْرِ مُلْكى ؛ فلم يكن لكلامه عندى جواب إلاّ أنْ قبَّلتُ البساط بين يديه .

وأبْكَى بيتٍ وَرَد فى فقد الشباب قول أبى الغُصْنِ الأسدىّ :

أتأمُلُ رَجْعَةَ الدُّنيا سفاهاً ... وقد صار الشَّباب إلى ذهابِ

فليْتَ الباكياتِ بكلِّ أرضٍ ... جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشَّباب

وقال سَلَامة بن جندل ، وهو جاهلىّ :

أوْدَى الشَّباب حميداً ذُو التَّعاجيبِ ... أوْدَى وذلِكَ شأوٌ غَيْرُ مطلوبِ[1]

ولَّى حثيثاً وهـذا الشَّيْبُ يطلبه ... لو كان يدركه رَكْضُ اليَعَاقِيبِ[2]

أوْدى الشَّباب الّذى مجدٌ عواقبُه ... فيـه نَلَذّ ولا لذّاتِ للشيبِ

وقال سَلَامة أيضاً :

يا خَدَّ أمْسَى سوادُ الرأس خالَطَه ... شَيْبُ القَذال اختلاطَ الصَّفْوبالكَدَرِ[3]

يا خَدّ أمست لُبانات الصبا ذهبتْ ... فلستَ منهـا على عَيْنٍ ولا أثرِ

كان الشباب لحاجاتٍ وكنّ له ... فقـد فرغتُ إلى حاجاتَى الأُخَرِ

وأنشد أبو العيناء :

ما فى يدىّ من الصِّبا ... إلاّ الصَّبابةُ والأسَفْ

جاء الشبـاب فما أقا ... م ولا ألمّ ولا وَقَفْ

كان الشَّبَابُ كزائرٍ ... ملّ الزيارة وانصرفْ

والباب لا يُحْصَى كثرة .

---

(١) مطلع المفضلية ٢٢ ص ١١٩ . وأودى : هلك : ذو التعاجيب : كثير العجب .

(٢) اليعاقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر الحجل ، خصه لسرعته .

(٣) الأبيات لابن مقبل ؛ ديوانه ٧٣ ، ٧٤ ، وفيه : « يا حر » .

قوله : قرِمت لكذا ، أى اشتدّت شهوتى إليه ، وأصله شدّةُ الشهوة إلى اللحم . والرُّشْد والرَّشَد واحد . فرّطت : ضيّعت ، وفرّط فى الشىء : قدّم فيه التقصير والعجز ، وهو من قولهم : فَرَطَ الفارطُ فى طلب الماء ، أى تقدّم القومَ إليه . وقرئ : ﴿ يا حَسْرَتَنَا على مَافَرَطْنَا فيها ﴾[1] ، بتخفيف الراء ، ومثله : ﴿ ياحسرتا على ما فَرَطت فى جَنْبِ الله ﴾[2] ومعنى القراءتين التقصير فى جَنْب الله ، أى فى حقه ، وقيل : فى أمر الله ، وقيل فى طاعته .

ابن الأعرابىّ : فى قرب الله . الفراء : الجَنْب : القرب ، والجَنْب معظم الشىء وأكثره ، ومنه : هذا قليل فى جَنْب مودّتك . الزجّاج : أى على ما فرّطت فى الطريق الذى هو طريق الله الّذى دعانى إليه .

وكَسْع الهَنَات ، أى طرْد القبائح والقاذورات ، والهَنَات ، كناية عن الفواحش والأفعال القبيحة ، مأخوذ من الْهَنِ ، وهو الفرْج ، وكَسْعُها : دَفْعها وإزالتها ، والكَسْع أن تضرب بيدك على دُبُر الشىء ، وكَسَعْتُهم بالسيف ، إذا اتّبَعْتَ أدبارهم ، فكأنه أزال القبائح عن نفسه ثم أتبعها بالدّفع والضَّرْب ؛ حتى نفاها بحسناته ، والكَسْع أيضاً : أن تضرِب الشىءَ بصَدْر قدمك وقد كَسَعْتُه . الأصمعىّ : الكسع : سرعة المرّ ، وكسعته بكذا : جعلتُه تابعاً له .

تلافِى : تَدَارُك . الْهَفَوات : السّقطات والزّلّات ، وقد هفا الرَّجُلُ ، إذا فعل المنكر وما يُكْرَه . الفوات : الموت . مغاداة : مباكرة ، وقد غاداه : أتاه بالغدوّ ، والغَادات : النَّواعم من النساء ، الواحدة غادة ، والتقاة : الخائفون ،

(١) سورة الأنعام ٢١
(٢) سورة الزمر ٥٦

الواحد تقىّ ، وقوله تعالى : ﴿ إلّا أنْ تتّقُوا منهم تُقَاةً ﴾[1] ، يجوز أن يكون الأتقياء ، ويجوز أن يكون مصدراً ، وهو أجود القولين : تقيتُه، واتّقيتُه تُقًى وتَقِيّةً وتُقًا وتِقاء ، أى حذرته ، والاسم التقوى . مقاناة : مخالطة وملازمة ، وهى مفاعلة من القَيْنة ، وهى الجارية المغنّية، والجمع قَيْنات . مداناة : مقاربة . ديانات ، هى من الدِّين ، أراد بها الطاعة . آلَيْت: حلفت. نزع : زال وكفّ . الغىّ : الضلال . فاء : رجع . مَنشْره : انتشاره فى الصِّبا واللهو . ألفيت : وجدت . خليع الرّسَن : مسيّب فى المعاصى ، لا يكفُّه عن إتيانها عقل ولادين ، وخَلَعْتُ رَسَنَ الدّابة : تركْتُها ترعى حيث شاءت سائبة ، ومثله خَالِع العِذَار ، وخلع عِذاره ، أصلُه فى الدّابّة إذا خُلِع عِذارُها فسُيِّبت ، فإن انفَلَت رسنُها الذى تمسكها به ففرّت ، قيل : جرّت رسنَها ، وفلان يجرّ رسنه ، وبابه فى الاستعارة أنه مسيَّب فى الشهوات مجاهر بها . مديد الوَسن : طويل النَّوم ، أى فارغ البال من ذكْرٍ أو صلاة بالليل أو قراءة . أنأيت : أبعدت . عرّه : جربه ودائه ، يريد أنه حَلَف ألاّ يصاحب إلاّ مَنْ كَفّ عن الصِّبا واللهو والنساء ، ومتى وجد أهل اللهو والغزل فرّ عنهم وتركهم ، وقال الأليبرىّ فأحسن :

مَنْ حاد عن نهج الهدى فأضـــلَّ قصْدَ سبيلِهِ
فتوقّ خَلّتـــه فدِيـــنُ المرء دِينُ خليـــلِهِ

وله أيضاً

ألاَ خَـــبَرٌ بمنتزَح النّواحِى أطير إليه مقصوصَ الجناحِ[2]

---

(١) سورة آل عمران ٢٨

(٢) من قصيدة له فى ديوانه ٨٤

وأسأله وألطفه عَسَاه سَيَأسُو ما بدِينِيَ من جرَاحِ
ويجلُو ما دَجَى من ليل جَهْلى بنور هُدًى كمنبلج الصَّبَاحِ
فأبصق فى محيَّا أم دَفرٍ وأهجرُها وأدفعها بِرَاحِى
وأصحُو من حُمَيَّاها وأسلُو عفافًا عن جآذرها الْمِلاَحِ
وأصرفُ هِمَّتى بالكفِّ عنها إلى دار السَّعادة والنَّجاح

* * *

فَلَمَّا أَلْقَتْنِي الْغُرْبَةُ بِتِنِّيس ، وَأَحَلَّتْنِي مَسْجِدَهَا الْأَنيس ، رَأَيْتُ ذَا حَلْقَةٍ مُلْتَحِمَة ، وَنَظَّارَةٍ مُزْدَحِمَةٍ ؛ وَهُوَ يَقُولُ بِجأشٍ مَكِينٍ ، وَلِسَانٍ مُبِينٍ : مِسْكِينٌ ابنُ آدَمَ وَأَىُّ مِسْكِينٍ ! رَكَنَ من الدّنيا إِلَى غَيْرِ رَكِينٍ ، وَاسْتَعْصَمَ مِنْهَا بِغَيْرِ مَكِينٍ ، وَذُبِحَ مِنْ حُبِّهَا بِغَيْرِ سِكِّينٍ ، يَكْلَفُ بِهَا لِغَبَاوَتِهِ ، وَيَكْلَبُ عَلَيْهَا لِشَقَاوَتِهِ ، وَيَعْتَدُّ فِيهَا لِمُفَاخَرَتِهِ ، وَلَا يتزوّد مِنْهَا لآخِرَتِهِ .

أُقْسِمُ بِمَنْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، وَنَوَّرَ الْقَمَرَيْنِ ، وَرَفَعَ قَدْرَ الْحَجَرَيْنِ : لَوْ عَقَلَ ابنُ آدَمَ ، لَمَا نَادَمَ ، وَلَوْ فَكَّرَ فِيمَا قَدَّمَ ، لَبَكَى الدَّم ، وَلَوْ ذَكَرَ الْمُكَافَآت ، لاسْتَدْرَكَ مَا فَاتَ . وَلَوْ نَظَرَ فِى الْمَآل ، لَحَسَّنَ قبح الْأَعْمَال .

يَا عَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ ، لِمَنْ يَقْتَحِمُ ذَاتَ اللَّهَب ، فى اكْتِنَازِ الذَّهَبِ ،

وَخَزْنِ النَّشَب ، لِذَوِى النَّسَب . ثمّ من الْبِدْعِ الْعَجيب ، أَنْ يَعِظَكَ وَخْطُ الْمَشِيب ، وَتَؤْذِنَ شَمْسُكَ بِالْمَغِيبِ ، وَلَسْتَ تَرَى أَنْ تُنيب ، وَتهذِّبَ الْمَعِيب .

* * *

[ذكر تنّيس]

تِنّيس بلدة كبيرة ، وهى جزيرة أحدقت بها بحيرة يتّصل بها النيل ، فتعذب عند زيادته ستة أشهر ، وتملح ستّة أشهر ، ويتّصل بها خليج دمياط ، وخليجها ينقسم على شرقيها غربيّها ، ويلتقيان فى البحيرة ، فيسيرون بسفنهم من دمياط إلى تِنّيس ؛ دخولهم لها وخروجهم بريح واحدة محكَمة. وأهل تِنّيس ذوو يسار ، وأكثرهم حاكة . وثياب الشروب التى تُصْنَع بها وبدمياط لا يُصْنَع مثلها فى الدنيا ، وليس فى الدّنيا طراز كَتَّان يبلغ الثوب منها دون أن يعين بذهب مائة دينار ، غير طراز تِنّيس ودمياط ، ويكتفى ثوبها بقصّارة يوم واحد فى البحيرة فيبيضّ . قال الْيَعْقوبى : مدينةِ تِنّيس يحيط بها البحر الأعظم الملح ولها بحيرة يأتى ماؤها من النِّيل ، وهى مدينة قديمة بها تُعمل الثياب الرفيعة الصِّفاق والعَصْب والبُرود والوشّى ، وبها مَرْسَى المراكب الواردة من الشام والمغرب .

قوله : ملتحمة ، أى منضمة ملتصقة . ذا حلقة : يريد واعظا قد حلّقه النـاس والنَّظّارة : النّاظرون إليه . جَاشَ : تنفّس . مكين : شديد . مبين : مفصح . أىّ مسكين : ترحّم عليه لكثرة مسكنته وتعجّب منه . رَكَن :

سكن ولجأ . ركين شديد : قوىّ يُركن إليه ، ورجل ركين ، أى وَقورٌ بيِّن الركانة ، والرَّكين الثابت . مكين : عزيزله مكانة ، أى منزلة رفيعة . ذُبح من حبِّها بغير سكين ، إشارة لعذابه فيها ومحنته ، لأنّ السِّكين تذبح المذبوح من ساعته ، ومَنْ يُذبح بحجَر أو عُود أو غير ذلك ، فهو فى تعذيب .

أبو موسى : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحبَّ آخرته أضر بدنياه ، فآثر مايَبْقى على مَايفْنى » .

وقال سفيان بن عيينة : ويلَكُمْ ياعلماء السوء ، لاتكونوا كالمنخُل يخرُج منه الدقيق الطيب فيمرّ ويمسك النُّخالة ، فكذلك أنتم تُخرِجون الحكمة من أفواهكم ، ويبقَى الغِلّ فى صدوركم ، ويحكم ! إنّ الذى يخوض النَّهر لابدّ أن يصيب ثوبَه الماء وإن جَهَد ألاّ يصيبه ، كذلك مَنْ يحبّ الدنيا لاينجو من الخطايا .

يَكْلَف ، أى يولع بها ويشتدّ حبُّه فيها . غباوته : جهله . يكلَب : يشتدّ حرصه ، وكَلِب على الشىء : ألحّ فى طلبه ، وأصله من الكَلَب وهو السُّعر فى الكلاب . يعتدّ : يستعدّ . مَرَج : خلَط ، وقيل : أرسلهما وخلاّهما كما تسرح الدابّة فى مرعاها . والقمرين : الشمس والقمر ، غلَّب لفظ القمر لخفّته بالتذكير وإن كانت الشمس أنْوَر ، وهى أصْلُ لنُور القمر ، ولهذا قال المتنبى :

وَمَاالتَّأْنيثُ لاسم الشمس عيْبٌ ولا التَّذْكير فخرٌ للهلال[1]

أراد أنّ الشمس أنور وأضوأ ، فما يضرّ هاتأنيث اسمها ، وماينفع الهلال تذكيرُ اسمه ، وهو ناقص عنها ، فلخفّة لفظ القمر غُلِّب ، كما قالوا : العمران

(١) ديوانه ٣ : ١٨

لأبى بكر وعمر ، وأبو بكر أفضل من عُمر باتّفاقٍ من أهل السنّة ، فغلّب لفظ عمر لخفّته بإفراده وقلة حروفه .

[مما قيل فى القمر]

ومما يحُسن موقعه مع قوله : ونَوّر القمرين ؛ أنّ أعرابيًّا أضلّ الطريق فمات جَزَعًا ، وأيقن بالهلاك ، فلما طلع القمر اهتدَى ، ووجد الطريق ، فرفع إليه رأسَه ليشكره ، فقال له : والله ما أدرى ما أقول لك ، ولا ما أقول فيك ! أقول : رفعك الله ، فالله قدْ رفعَك ، أم أقولُ : نَوَّرك الله ، فالله قد نَوَّرك ، أم أقول : حسّنك الله ، فالله قد حسّنك ، ولكن مايقَ إلاّ الدعاء أنْ يُنْسِىء الله فى أجلك ، وأن يجعلنى من السوء فداءك .

وضَلّتْ ناقة لأعرابىٍّ فى ليلة مظلمة ، فأكثر فى طلبها ، فلم يجدها ، فلما طلع القمر وانبسط نوره وجدَها إلى جانبه ببعض الأوْدية ، وقد كان اجتاز بموضعها مِراراً فلم يرها لشدّة الظلام ، فرفع رأسه إلى القمرِ ، وقال :

ماذا أقوال وقولى فيك ذو خطرٍ وقد كفيتَنِىَ التّفْصيل والجُمَلا
إن قلت لازلت مرفوعاً فأنت كذا أو قلت زَانك ربّى ، فهو قد فَعَلاَ

ومما قيل فى ذمّه : عربد بعض المجّان على القمر ، فقال : والله إنك لتفتّت الكَتّان ، وتُغيِّر الألوان ، وتصفِّر الأسنان ، وتخثّر الأبدان ، وتسدّد الآذان ، وتفضح السّكران ، وتظهر الكتمان وتقلق الصبيان ، وتبّيض الأرْجُوان ، وتلحس الزعفران ، وتهزل الحِيتان ، وتمحق الأدمغة بالنقصان .

وقال ابن المعتز يذمه :

يا سارق الأنوارِ من شَمْسِ الضُّحَى يامُشْكِلِى طيبَ السكرى ومنغصِى[1]

(١) ديوانه ٢ : ١٣٢

أمّا ضياء الشمس فيك فناقصٌ[١] وأرى حرارة نارها لم تنقصِ[٢]
لم يظفرِ التَّشبيه فيك بطائلٍ متسلِّخ لوناً كلون الأبرص

قوله : الحجرين ، أى الذهب والفضة . وقيل الحجَر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام . نادم : صاحب ، والنَّدِيم الصاحب على الخمر . المكافآت : المجازاة . المآل : المرجع . ذات اللهب : صاحبة النار ، يعنى جهنّم . يقتحم : يترامى فيها ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّى لآخذ بِحُجَزِكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها ، كما تقتحم الفراش والجنادب » .

الخَزْن : الجمع . البِدْع : الحدث لم يكن ثم كان ، وقد ابتدعت الشيء : أحدثته ، وسقت الناس إلى فعله . وَخَط : اختلط ، وقدَ وَخَط الشيب الشَّعر ، إذا خالطه وفَشَا فيه . وتؤذن : تعلم . شمسك بالمغيب : نفسك بالذهاب . تنيب : ترجع وتتوب . تهذب : تخلّصه من العيب . والمعيب : الكثير العيب . يرشد : يهدى ويدلّ الطريق .

[مما قيل فى الدنيا]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل فى الدّنيا موافقةً للحريرىّ ، ثم نعود إلى ذكر الشيب :

ومن خُطبة قَطَرِىّ بن الفُجاءة فى ذم الدنيا :

ألستم فى مساكن مَنْ كان أطولَ منكم أعماراً ، وأعدّ عَدِيداً ، وأوضح آثاراً ، وأكثر جنوداً ، وأعدّ عتاداً ، وأطولَ عماداً ؛ تعبَّدُوا للدّنيا أىّ تعبُّد ،

---

(١) الديوان : « ضياء الشمس منك » .
(٢) الديوان : « حرارتها بها » .

وآثروها أىّ إيثار ، وظعنوا عنها بالكُرْه والصَّغَار ، فهل بلَغكم أنّ الدنيا أسمحتْ لهم نفساً ، وأغنت عنهم بحيلة ، بل أرهقتهم بالحوادث ، وضَعْضَعتهم بالنوائب ، ودهمتْهم بالمصائب ، أرأيْتُم مكرها بمن دان لها وآثرها ، وأخلد إليها ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَها ﴾[1] إلى قوله : ﴿ وبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه : « ألاَ أريك الدنيا جمعاء بما فيها ؟ قال : قلت : بلى ، فأخذ بيدى ، وأتى وادياً من أودية المدينة ، فإذا مَزْبَلَة فيها رءوس الناس وعَذِرات وخِرَق ، فقال : يا أبا هريرة ، هذه الرءوس كانت تحرِص حرصكم ، وتأمُل أملَكم ، ثم هى اليوم عظام ، ثمَّ غداً رماد ، وهذه العَذِرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها فقذفوها فى بطونهم ، فأصبحت والنَّاس يتحامُونها ، والريح تصفقها ، وهذه عظام دوابّهم التى كانوا بها ينتجعُون أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك » . فما بَرِحْنَا ، حتى اشتدّ بكاؤنا .

مرّ أبو عثمان الدّباغ ، برجلٍ على كنيف ، فقال له : إلى هذا انتهت دنيا القوم .. وقال الشاعر :

ولقد سألتُ الدارَ عن أخبارهِمْ فتبسَّمتْ عَجَباً ولم تُبْدِى
حتى مررتُ على الكَنِيف فقال لى أموالُهم ونوالُهُمْ عِنْدى

ويُروى أنّ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام مرّ بجمجمة فضربها برجله ، وقال : تكلَّمِى بإذن الله ، فقالت : يا رُوحَ الله ، أنا مَلِكٌ زمن كذا ، فبينما أنا جالس فى مُلْكِى ، علىّ تاجى ، وحولى حَشَمِى وجنودى على سريرى ،

(١) سورة هود ١٥ ، ١٦

إذ بَدَا لى مَلك الموت وظهر ، فزال عنىّ كلّ عضوٍ من موضعه ، ثم خرجَتْ إليه نفسى .

ولبعض الزّهاد :

دُنْيَا تُخَادِعُنِي كأنّى لَسْتُ أعرِفُ حالَهَا
مَدّت إلىّ يمينَهَا فقطعتُهَا ، وشِمالَهَا
منع الإلَهُ حرامَها وأنا اجْتَنَبْتُ حَلاَلَهَا
ورأيتهَا مُحْتَاجَةً فوهبتُ جُمْلَتَهَا لَهَا

ولبعضهم :

هَبِ الدُّنيا تساقُ إليكَ عفواً أليْس مصيرُ ذاك إلى انتقالِ
وما دُنْيَاك إلاَّ مثلُ فىءٍ أظَلَّكَ ثم آذَنَ بالزَّوالِ

أبو العتاهية :

يا مَنْ ترفَّع بالدُّنيا وزينتِهَا ليس التّرفُّع رَفْعَ الطِّينِ بالطِّينِ
إذا أرَدْتَ شريفَ القوم كُلِّهِمِ فانْظُرْ إلى مَلِكٍ فى زِىِّ مِسْكِينِ
أرى أناساً بأدنى الدِّين قد قَنَعُوا ولا أراهم رضُوا فى العيش بالدُّون
فاسْتَغْنِ بالله عن دنيا الملوك كما اسْتَغْنَى الملوكُ بدنياهمْ عن الدِّين

وقال التّهامىّ :

حُكْمُ المنيَّةِ فى البريّة جارِى ما هَذه الدُّنيا بدارِ قَرارِ[1]
بَيْنَا يُرَى الإنسانُ فيها مخبِراً حتى يُرَى خبراً من الأخبار
طُبِعتْ على كدرٍ وأنت تريدها صَفْواً من الأقذار والأكْدَارِ
ومكلّف الأيّام ضِدَّ طباعِها متطلِّبٌ فى الماء جَذْوَة نَارِ

(١) ديوانه ٤٧

وقال أبو حاتم: إنّما بيني وبين الملوك واحدة ؛ أمّا أمسِ فلا يجدون لذته ، وأنا وإيّاهم فى غد على وجَل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ! أخذه أبو العتاهية فقال :

حَتّى متى نحن فى الأيّام نحسَبُها ... وإنما نحنُ فيها بين يَوْمَيْنِ[1]
يومٌ تولّى ويومٌ نحنُ نأمُلُه ... لعلّه أجلبُ الأيام للحَيْنِ

ولحاتم :

هل الدّهر إلا اليومُ أو أمسِ أو غدُ ... كذا الدّهـــر فيما بيننَا يتردّدُ
يردّ علينا ليلةً بعْـــدَ يومها ... فلا عمرُنَا يَبْـقَى ولا الدّهر يَنْفَدُ

وللفقيه الباجي:

إذا كُنْتُ أعلم علماً يقيناً ... بأنّ جميع حياتى كساعَهْ
فلِمْ لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلُها فى صلاحٍ وطاعَهْ !

وله أيضاً :

تبلَّغْ من الدُّنيا بأيْسَرِ زادِ ... فإنك عنها راحـــلٌ لمَعادِ
وغُضّ عن الدّنيا وزخرف أهلها ... جفونَكَ واكحُلْهَا بطيب سهادِ
وجَاهدْ عن اللّذات نفسَك جاهداً ... فإنّ جهاد النَّفْس خيرُ جِهَادِ
وما هى إلا دارُ لهـــوٍ وفتنةٍ ... وإنّ قصارى أهلها لِنفَادِ

وقال آخر :

وما أهلُ الحياة لنا بأهْلٍ ... ولا دارُ الفَنَـــاء لَنَا بدارِ
وما أموالُنا إلاّ عَـــوارٍ ... سيأخـــذها المعيرُ من المُعَارِ

---

(١) ديوانه ٢٧٢

ولأبى العتاهية :

قطعْتُ منــكِ حبائل الآمالِ ... وحططتُ عن ظهر المطىّ رِحَالِي
ووجدتُ بَرْد اليأس بين جَوَانِحى ... فأرحتُ من حَطِّى ومِنْ ترْحَالِي
فالآن يا دُنْيا عرَفتُكِ فاذهبى ... يا دارَ كلّ تنقُّــــل وزوالِ
والآن صار لىَ الزمَان مؤدّباً ... فغــــدا وراحَ علىَّ بالأمثالِ
يأيُّها البَطَلُ الّذى هو من غدٍ ... فى قــــبره متفرّق الأوْصالِ
حِيَلُ ابن آدمَ فى الأمورِ كثيرةٌ ... والموت يقطــــع حِيلةَ المحتالِ

وللقاضى أبى حفص بن عمران :

أيها المغــــترُّ بالزّمَنِ ... فى هواه خالع الرَّسَنِ
حبّك الدنيا وزينتها ... فتنة عَمّتْــــك بالفِتَنِ
ظَلْتَ والحالاتُ شاهدةٌ ... عاكفاً منها على وَثَنِ
فاهجرنْها إنّ زينتَها ... زينةٌ شانت ولم تزنِ
خدعتْك إنهـا قبُحتْ ... باطناً فى ظاهرٍ حَسَنِ
واسْلُ عن حرصٍ وعن طَمعٍ ... أملا يردى وعنِ وعَنِ
ولتقــــدّم ما تُسرّ به ... قبل طول البَثّ والحزَنِ
فكأنّ أُخْرَاك ما برِحَتْ ... وكأنّ دنياك لم تكُنِ

* * *

ثمّ اندفع يُنشِدُ ، إنشادَ مَنْ يُرْشِد :

يَا وَيْحَ مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُهُ ... وَهُوَ عَلَى غَيِّ الصِّبَا مُنْكَمِشْ
يَعْشُو إِلَى نَارِ الْهَوى بَعْدَمَا ... أَصْبَحَ مِنْ ضُعْفِ الْقُوَى يَرْتَعِشْ
وَيَمْتَطِي اللَّهْوَ وَيَعْتَــــدُّهُ ... أَوْ طأما يَفْــــتَرِشُ الْمُفْتَرِشْ

لَمْ يَهَبِ الشَّيْبَ الذى ما رَأَى نجـــومَهُ ذُو اللُّبِّ إِلَّا دُهِشْ
وَلَا انْتَهَى عَمَّا مَا نَهَاهُ النُّهَى عَنْهُ وَلَا بَالَى بِعِرْضٍ خُـدِشْ
فَذَاكَ إِنْ مَاتَ فَسُحْقًا له وَإِنْ يَعِشْ عُـدَّ كَأَنْ لم يَعِشْ
لَا خَيْرَ فى محيا امرئٍ نَشْرُهُ كَنَشْرِ مَيْتٍ بَعْدَ عَشْرٍ نُبِشْ

* * *

قوله : يا ويح من أنذره شيبه ، ويح كلمة ترحم ؛ أنذره : أبلغه وحذّره . غَىّ : ضلال . منكمش : مسرع إليه ملازم له ، وقد كَمَشَ الرّجُل وانكمش فى أمره : استمرّ ومَضَى فيه مسرعاً .

ومن قولهم فى الشيب

فى هذا المعنى ما قال أكثم بن صيفىّ : الشيب عنوان الموت

وقال العتابىّ : الشَّيْبُ نذيرُ الموت .

وقال النُّميرىُّ : هو عِنْوان الكِبَر .

قيس بن عاصم : هُو خِطام المنيّةُ .

محمود الوراق : الشّيْب إحْدى الميتتين .

المعتز بن سليمان : الشيب موت الشَّعْر ، وموت الشَّعر عِلَّةُ موت البشَر .

أعرابىّ : كنت أنكر السوداء ، فياخير مبدول ويا شرَّ بدَلٍ ! أخذه حبيب فقال :

شابَ رأسى وما رأيتُ مشيب الرّأسِ إلاَّ مِنْ فَضْل شَيْبِ الفُؤادِ[1]

(١) ديوانه ٧٥

وكذاك الرءوس من كلّ بؤسٍ[1] ونعيمٍ طلائـــعُ الأجْسَادِ
طال إنكارىَ البياضَ وإنْ عُمِّـــرتُ شيئاً أنكرتُ لون السَّوَادِ[2]
زارنى شخصُه بطلعـــة ضَيْمٍ عَمَّرَتْ مجلسِى من العُـــوَّادِ

قيـل للنبى صلى الله عليه وسلم : عجّل عليك الشيب يا رسول الله ، فقال : « شيَّبتنى هود وأخواتها » .

وقيل لعبد الملك: عجّل عليك الشيب يا أميرَ المؤمنين ، فقال شيَّبنى ارتقاء المنا ر وتوقُّع اللحن .

وقيل لشاعر : عجّل عليك الشيب، فقال : كيف لا ،وأنا أعصِرُ قلبى فى عملٍ لا يُرْجَى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .

وقال محمود الوراق رحمه الله :

بَكَيْتُ لقُرْبِ الْأَجَـلْ وَبَعْـد فواتِ الْأَمَـــلْ[3]
ووافـــدِ شَيْبٍ طَرَا بَعْقِبِ شبابٍ رَحَـــلْ
شبابٌ كأَنْ لم يكُنْ وشيبٌ كأَنْ لم يَزَلْ

وقال حبيب :

غَـدَا الشَّيبُ مُخْتَطًّا بفودىَّ خُطَّةً
طريقُ الرَّدَى منها إلى النَّفْس مَهْيَع[4]

---

(١) الديوان : « وكذاك القلوب » .
(٢) بعده فى الديوان :
نالَ رأسِى من ثُغْرةِ الهَمِّ داءٌ لم ينَلْه من ثُغْرةِ الميلادِ
(٣) العقد ٣ : ٤٢
(٤) ديوانه ١٩٠

هو الزَّوْرُ يُجْفَى والمُعاشِرُ يُجْتَوَى ... وذُو الإلف يُقْلَى والجديد يرقَّعُ
له مَنْظَرٌ فى العين أبيضُ ناصعٌ ... ولكنَّه فى القلبِ أسودُ أسفَعُ
وَنَحْنُ نُرَجِّيه على السخط والرضا[1] ... وَأَنْفُ الفتى من وجْهِه وهو أجْدَعُ

وقال ابن عبد ربه :

شَبَابُ المرء تُنْفِدُه اللَّيالِى ... وإنْ كانت تَصِيرُ إلى نَفَادِ[2]
فأسْوَدُه يعود إلى بياضٍ ... وأبيضُه يعودُ إلى سَوَادِ

أخذ هذا من قول المستوغِر بن ربيعة حين دخل على معاوية ، وهو ابن ثلثمائة سنة ، فقال : كيف تجدك يامستوغر ؟ قال: أجدنى قد لاَن منِّى ما كنت أحبّ أن يشتدّ ، وابيضّ منِّى ما كنت أحبُّ أن يسودّ .

وقال ابن عبد ربه :

أطلالُ لهْوِك قد أقوتْ مغانيها ... لم يبقَ من رَسْمِها إلا أثافيها[3]
هذِى المفارق قد قامت شواهدُها ... على فنائك والدُّنيا تُزَكِّيها
للموت سفتَجَةٌ فيها معنونة ... لم يبق للموت إلا أنْ يسحِّيها[4]

* * *

قوله : يعشو ، أى ينظر ببصر ضعيف . يمتطى : يركب . يعتدّه : يحسبه . المفترش : المضطجع على الفراش ، يريد أنه يركب اللّهو فيلتذّه ويجده وطيئاً . يَهَب : يَخَفْ . اللّب : العقل : دُهِش : تحيّر . النُّهى : جمع نُهْية ، وهى العقل ينهَى عن القبيح ، وينتهى به إلى حسن الرأى فى الأمور ، ويقال : نهاه عن ذلك نُهاه ، أى عقله .

---

(١) الديوان : « على الكره والرضا » .
(٢) العقد ٣ : ٤٤
(٣) العقد ٣ : ٤٤
(٤) يقال : سحى القرطاس ، اذا اخذ منه سحاءة ، والسحاءة : ما يقشر عنه .

وأنشد أبو طاهر السِّلَفِيّ ، قال : أنشدنى القاضى أبو محمد بن الحسن بن نصر بن مرهف النَّهاوندىّ ، قال : أنشدنى الأديب المدنىّ لنفسه فى نفسه :

لِي عَلَى النَّاسِ فضلُ نظمٍ ونثرٍ مَنْ أَبَاهُ هجوتُه وَأَبَاهُ
وإذا ما أتى صفعتُ قفاهُ وقَفَا مَنْ أعانه وَقَفَاهُ
رحم الله من أراد مُحَالاً فنهاهُ عن المحال نُهَاهُ

قوله : خُدِش ، أى ذمّ وسُبَّ ، وأصل الخدْش الأثر فى الجِلْد ، ثم اتُّسع فيه ، فَجُعِل للعِرْض . سحقا : بعدا ، والنَّشْرُ : الرِّيح ؛ طيّبة كانت أو خبيثة . نُبِش : أُخْرِج ، وكل مدفون أُخرجتَه فقد نبشتَه . وأخذ هذا البيت من قول ابن المعتز :

تبحَّثْتُ عن آثاره فكأَنَّمَا نبشت عليه بعد ثالثةِ الدَّفْنِ

وله :

أُثنِي عليك بمثل ريحك ميِّتاً فى عقبِ يوم تزفُّك الأعوادُ

وأخذ هذا وهذا من قول عمر بن عبدالعزيز : لو رأَيتَنى بعد ثالثة ! وتقدّم فى الحادية عشرة .

* * *

وَحَبَّذَا مَنْ عِرْضُه طَيِّبٌ يَرُوقُ حُسْنًا مِثْلَ بُرْدٍ رُقِشْ
فَقُلْ لِمَنْ قَدْ شَاكَهُ ذَنْبُه : هَلَكْتَ يَامِسْكِينُ أَوْ تَنْتَقِشْ
فَأَخْلِصِ التَّوبةَ تَطْمِسْ بِهَا مِنَ الْخَطَايَا السُّودِ مَا قَدْ نُقِشْ
وَعَاشِرِ النَّاسَ بِخُلْقٍ رِضًا وَدَارِ مَنْ طَاشَ وَمَنْ لم يَطِشْ
وَرِشْ جناحَ الْحُرِّ إن حَصَّهُ زَمَانُهُ ، لَا كَانَ مَنْ لم يَرِشْ

وَأَنْجِدِ الْمَـــوْتُورَ ظُلْماً فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ إِنْجَادِهِ فَاسْتَجِشْ
وَانْعَشْ إِذَا نَادَاكَ ذُو كَبْوَةٍ عَسَاكَ فِي الْحَشْرِ بِهِ تَنْتَعِشْ
وَهَاكَ كَأْسَ النُّصْحِ فَاشْرَبْ وَجُدْ بِفَضْلَةِ الْكَأْسِ عَلَى مَنْ عَطِشْ

* * *

يروق : يُعْجِب : بُرْد : ثوب . رُقِش : رقِم وَزُيِّن ، تقول : رقشتُ يدَ المرأة بالحِنَّاء والحائطَ بالأصباغ والقرطاسَ بالمِداد ، وشبه هذا شاكَه ذنبُه ، يقال : شاكه يشُوكه ، إذا دخل فيه شَوْكة ، قال الشاعر :

لا تنقُشَنّ برجلِ غيرك شَوْكةً فتَقِي برجلِكَ رِجْلَ من قَدْ شَاكَهَا

فشاكها ، أَدْخَل فيها الشوك ، وشَاكَتْه الشوكة : دخلت فيه ، وشُكْتُه أنا ، إذا أدخلتَ الشوكة فى جسمه ، فإنْ أصابك الشَّوك قلت : شاكنى الشَّوْك يشوكُنِي شَوْكاً . وانتقشت حقِّى من فلان ، إذا استخرجتَه ولم تترك منه شيئاً .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « وإن شيك فلا انتقش » ، فشِيك أصابه الشوك ومعناه إذا وقع فى شرٍّ فلا يخلص منه .

تَنْتَقِش : تخرج الشَّوْكة وتبحث عليها ، وأوْ بمعنى إلاَّ . والمناقشة : البحث والاستقصاء ، ومنه مناقشة الحساب ، وبذلك سمى المِنْقاش ، وقال ابنُ الرومىّ :

إذا رُمْتُ بالمنقاشِ نَتْفَ أشاهِبى أتيح لهـا من بينهنَّ الأباهمُ
يُرَاوِغ منقاشِى نجومَ مسايحى وهنَّ بعينى طالعاتٌ نَوَاجمُ

تطْمِس : تمحو . ونقش : كتب ، والنَّقش يستعمل فى مثـل الخشب والحائط والصَّخْر ، والنَّقْش : الفتح والتأثير فى نفس المنقوش . وقال الأليبرىّ فى معنى هذا البيت :

مَنْ لَيْسَ يسعى فى الخلاص لنفسِه كانت سعايتـه عليها ، لا لَهَـا[1]

(١) ديوانه ٩١

إنّ الذنوب بتوبةٍ تُمْحَى كَمَا يمحُو سجودُ السَّهْوِ غفلةَ مَنْ سها

قوله : عاشر ، أى صاحبْ . دارِ : عامِلْه بما يحبّ ، وَامْشِ على غَرضِه . طاش : خَفّ عقلُهُ ، ورجل طَيَّاشٌ غير مقتصد فى قوله ، وهو مِنْ طاش السهم، إذا لم يصب ووقع على غير قَصْد ، ومثله قول أعرابىٍّ لبنيه : عاشرُوا النَّاسَ مُعَاشرةً إذا غبتم حنُّوا إليكم ، وإن متُّمْ بكَوْا عليكم ؛ وهذا من قول الشاعر :

وأكرمْ كريماً إن أتاك لحاجةٍ لفاقَتِه إن العصاة تَرُوحُ

وقال الأضبط بن قريع :

لا تهين الفقيرَ عَلَّك أنْ تَرْكَعَ يوماً والدّهر قد رَفَعَهْ[1]

رش الجناح : اكسه الريش ، والمعنى أصلِح حال الحرّ إذا افتقر . حَصّه : نتفه . أنجِد : قوّ وأعِنْ ،والموتور : المظلوم الَّذى قتِل له أخ أو ولد أو نسيب . اسْتَحِشْ : اجمع جيشاً ، والمعنى : إذا لم تقدر على إعانة مظلوم ، فتوسَّط لمن يُعينه . انعش : ارفع . كبوة : سَقْطة وعثرة . تنتعش : ترتفع وتقوم من عَثْرتِكَ . هاك : خذ ، والمعنى خذ كأس النصيحة فاشربْهَا فإذا رويتَ فاسْقِ غيرك . ولا يقال كأس إلاّ إذا كان فيها شراب .

* * *

قال : فَلَمَّا فَرَغَ من مُبْكِيَاتِهِ ، وَقَضَى إنشادَ أبياتِهِ ، نَهَضَ صَبِيٌّ قَدْ شَدَنَ ، وَأَعْرَى الْبَدَنَ ، وَقَالَ : يَا ذَوِى الْحَصَاة ، وَالْإِنْصَاتِ إِلَى الْوَصَاةِ ، قَدْ وَعَيْتُم الْإِنْشَاد ، وَفَقِهْتُم الإرشاد ، فَمَنْ نَوَى مِنْكُمْ أَنْ يَقْبَلَ ، وَيُصْلِحَ الْمُسْتَقْبَلَ ، فَلْيَبْنِ بِبِرّى عن نِيَّتِهِ ، وَلَا يَعْدِلْ

(١) الشعر والشعراء ٣٨٣ ، وهو من أبيات الشواهد ، على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل : « لا تهينن » .

عَنِّى بعطيَّته ؛ فوالذى يَعلم الأسرار ، ويغفِرُ الْإِصْرَار ؛ إِنَّ سِرِّى لَكَمَا تَرَوْنَ ، وإِنَّ وَجْهِى لَيَسْتَوْجِبُ الصَّوْن ؛ فأَعينُونِى رُزِقْتُم الْعَوْنَ .

قال : فأَخَذَ الشَّيْخُ فيما يَعْطِفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبَ ؛ ويُسَنِّى لَهُ الْمَطلُوب ؛ حَتَّى أَنْبَطَ حَفْرُهُ ، وَاعْشَوْشَبَ قَفْرُهُ . فَلَمَّا أَنْ تَرَعَ الْكِيسُ ؛ انْصَلَتَ يَمِيسُ ، وَيَحْمَدُ تِنِّيس ، ولم يَحْلُ لِلشَّيْخِ المُقَام ، بَعْدَمَا انْصَاع الغلام . فَاسْتَرْفَعَ الْأَيْدِى بالدُّعاءِ ، ثُمَّ نَحَا نَحْوَ الانْكِفَاء .

* * *

قوله : قضى ، أى أتمّ . نهض : قام وتقدّم . شَدَن : اشتدّ وقوِىَ ، وأصله فى الظَّبْى والصبىّ ، تقول : شَدَن الظبىُّ ، إذا اشتدّ وترعرع ، وكذلك الصبىّ قال عمر بن أبى ربيعة :

إِذْ تَسْتَبِيك بمصقولٍ عوارضُه ومقلتىْ جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أنْ شَدَنَا[1]

أراد أنّه ترعرع للمشى وَالرَّعْى . أعْرَى البدن : تركه عُرْيانًا . ذوى الحَصَاة : أهل العقول : والإنصات : السكوت وحسن الاستماع . والوَصَاة ، بمعنى الوصيّة كالتقاة بمعنى التقيّة ، وأصلها « وقيّة » قُلِبت الواو تاء والياء ألفًا ، والواو إذا انضمّت فى أول الكلمة كنتَ بالخيار ، إن شئت تركتَها ، وإن شئتَ قلبْتَها ، ولهذا تُرِكت فى الوَصاة . وقيل الوَصَاة بفتح الواو فى الوصيَّة ، وبضمّها جمع واصٍ كراعٍ ورُعاة ، وعيتم : حفظتم . فقهتم : فهمتم : الإرشاد : الهداية : أى قد فهمتم ما دُللتم عليه من الخيْرِ فافعلوا . نوى : قَصَد وأضمر ، وهو من النيّة ، وأراد بالمستقبل ، ما يستقبلُه من أفعاله . فَلْيبن : فليفصح ويبيّن . ببرِّى : يا كرامى . عن نيّته : عن قصده وصِدْق باطنه . يعْدِلْ : يَمِلْ .

---

(١) ديوانه ٣٠٧

الإصرار : الإقامة على الذنب ، سرّى لكما تروْن ، أى هو ظاهر لكم غير مستتر : الصَّوْن : الحوْطه فيما يعطف عليه القلوب ، يريد أنه أخذ فى كلام تحنّ به للصبىّ قلوب الناس . يسنِّى : يسّهل ويُيَسّر . أنبط : أخرج الماء . القَفْر : مالا نبات فيه . اعشوشب تغطّى بالعشب ، يريد أنه استغنى بعد الفقر ، وضرب بأنْبَط وَاعشوشب المثل . ترَع : امتلأ ، والكِيس : وعاء الدراهم . انْصَلت : تسلّل وخرج بسهولة . يميس : يتمايل ويتبختر . انصاع : ذهب مسرعاً وانفتل راجعاً . استرفع : طلب رفعها . نحانحو الانكفاء ، أى قصد قَصْد الانصراف .

* * *

قال الرَّاوِى : فارْتَحْتُ إِلَى أَنْ أُعْجِمَهُ ، وَأَحُلَّ مُتَرْجَمَهُ ، فتبعتُه وهو يَشْتدُّ فى سَمْتِهِ ، ولا يَفتُقُ رَتْقَ صَمْتِهِ ؛ فلمَّا أَمِنَ المُفَاجِى ، وَأَمْكَنَ التناجِى ، لَفَتَ جيدَه إِلَىَّ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمَ البَشاشَةِ عَلَىّ ، ثم قال : أراقَكَ ذَكاءُ ذَاكَ الشَّوَيْدِن ؟ فقلْتُ : إِى والمؤمِنِ المُهَيْمِن ؛ قَالَ : إِنَّهُ فتَى السَّرُوجِىّ ، وَمُخْرِجِ الدُّرِّ مِنَ اللُّجِّىّ . فقلت : إِنَّكَ لشَجَرَةُ ثَمَرتِهِ ، وشُوَاظُ شَرَرِتِهِ . فصدَّق كِهَانتى ، وَاسْتَحْسَنَ إِبانَتِى . ثمَّ قال : هَلْ لَكَ فى ابْتدَارِ الْبَيْتِ ؛ لنَتنازَعَ كَأْسَ الكُمَيْت ؟ فقلت له : وَيْحَكَ ! ﴿ أَتأْمُرُونَ النَّاسَ بالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ . فافتَرَّ افترارَ مُتَضَاحِك ، وَمَرَّ غير مماحِك . ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ تراجَعَ إِلَىَّ ، وقال : احْفَظْهَا عَنِّى وَعَلَىّ :

اصْرِفْ بِصِرْفِ الرَّاحِ عَنْكَ الأَسَى ... وروِّحِ القلْبَ ولا تَكْتَئِبْ

وَقُلْ لِمَنْ لامَك فيما بِهِ ... تَدْفَعُ عَنْك الهمَّ : قَدْكَ اتَّئِبْ

قوله : ارتحت ، أى اشتهيت وطربت . أعجُمه : أخبُره . مترجَمه : ملتبسه يشتد : يجرى . سمته : طريقه . يفتق رتق : يشقّ غلق . صمته : مبهم أمره والفتْق : الخرْق ، والرَّتْق : الإغلاق ، وهو ضـــدّه ، وذلك أن يضمّ المتخرّق بعضَه إلى بعض : التّناجِى : التّحادث . لفت جيده : عطف عنقه . البشاشة : الخِفّة وإبداء السرور . أراقك؟ : أأعجبك؟ ذكاء : حِذْق ، والذّكاء : توقّد الذهن . الشُّوَيدِن : تصغير شادن ، وأراد ابنَه . والمؤمن المهيمن ، هو الله تعالى ، والإيمان : التصديق . وقال أبو بكر بن العربى : البارئ تعالى مؤمن بتصديقه لنفسه بقوله ، وذلك حقيقتُه ، قال الله تعالى : ﴿شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلاّ هُوَ﴾ ، أو بتصديقه لرسله بإظهارِ المعجزة ، أولأوليائه بإظهار الكرامة ، وهما مجازان . والمهيمن : الرقيب الحافظ .

الكسائىّ : المهيمن : الشهيد . أبو عبيدة : الرقيب ، وقد هَيْمَنَ هيمنة . ابن الأنبارى : القائم على خلقه ، قال الشاعر :

ألا إنّ خير الناس بعـد نبيّهمْ مُهيمنُه التّالِيهِ فى العُرْف والنُّكْرِ

أى القائم على الناس بعده ، وأصله « مؤيمن » فأبدلوا من الهمزة هاء كما قالوا : أرَقْت وهَرَقْت . وفى مثل مدح هذا الغلام بالذكاء قال الفضل بن جعفر :

فإن خَلَّفَتْهُ السنّ فالعقل بالغٌ به رتبـةَ الكهْلِ المرشّحِ للمجْدِ
فقد كان يحيى أوتىَ الحكم قبلَه صبيًّا وعيسى كلم النّاس فى المهدِ

وقال البحترىّ :

لا تنظرنَّ إلى العبّاس من صِغَرٍ
فى السنّ وانظر إلى المجد الّذى شادَا[1]
إنّ النّجوم نجومُ الجوِّ أحقرُها فى العين أكثرُها فى الجوِّ إصعادَا

(١) ديوانه ٦١٠ . وفيه : « لا تنظرن الى الفيـــاض » ، والاصح ما فى الديوان ، والقصيدة فى مدح على بن محمد بن الفياض .

[ذكر نوادر الولدان]

ولمَّا ذكر لهذا الصبيّ من فصاحة اللسان وبراعة البيان ما ذكر ، وجب علينا أن نذكر من نوادر الولدان فصلاً كافياً يؤنس بما ذكر ، لئلا نخلّ بما شرطناه ، فقد تروى للولدان نوادر ، ربما عجزت عنها الكهول ذوو البصائر .

حكى الخطّابيّ أنه قدِم على عمر بن عبد العزيز وفدٌ فيهم شاب ، فتحوّس للكلام ، فقال عمر : كبِّروا أكبِّروا ، أى ليتكلّم الكبراء منكم ، فقال : الغلام يا أميرَ المؤمنين ، لو كان [الأمر] بالسنِّ لكان فى المسلمين من هو أسنُّ منك .

قال عمر : صدقت ! تكلّم .

فتحوّس : فتهيَّأ للكلام .

وفى رواية : قدم وفد الحجاز على عمر فقدَّموا غلاماً منهم للكلام ، فقال عمر : مهلاً ، ليتكلّم مَنْ هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنّما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الحِلية . قال : تكلّم ، قال : نحن وفود الشكر ، لا وفود المرزِئة[1] ، لم نُقْدِمْنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنّا أمِنّا فى زمانك ماخفنا ، وأدركنا ما طلبنا .

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قُبِضت ضياعهم وهو غلام صغير ، فقال : السَّلام عليك يا أميرَ المؤمنين ، محمد بن عبد الملك ، سليلُ نعمتك وابن دولتك ، وغصنٌ من أغصان دوحتك ؛ أفتأذن لى فى الكلام ؟ قال : نعم . فحمِد الله تعالى وصلّى على نبيه ، ثم قال : أمتعنا الله بحياطة دينا ودنيانا ،

(١) رزاه : أصاب منه خيرا .

ورعاية أقصانا وأدنانا ، ببقائك يا أميرَ المؤمنين ، ونسأله أن يزيد فى عمرك من أعمارنا ، وفى أثرك من آثارنا ، ويقيَك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام العائذ بظلِّك، الهارب إلى كنَفك وفضلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك . ثم سأل حوائجه فقضاها .

وقَحطَتِ البادية أيام هشام بن عبد الملك ؛ فوفد علَيه رءوس القبائل فجلس لهم ، وفيهم صبيٌّ ، ابن أربع عشرة سنة ، يسمَّى درواس بن حبيب ، فى رأسه ذؤابة ، وعليه بُرْدة يمانية . فاستصغره هشام وقال لحاجبه : مايشاء أحدٌ أن يصل إلينا إلا وصل ، حتى الصبيان ! فقال درواس : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ دخولى لم يُخلَّ بك ولا انتقصك ، ولـكنَّه شرَّفنى ، وإن هؤلاء قدِمُوا لأمرٍ فهابوك دونه ، وإن الـكلام نشر ، والسكوت طىّ لا يُعرَف إلا بنشره ؛ فأعجبه كلامه ، وقال : انشرْ لا أمّ لك ! فقال : إنا أصابتْنا سنون ثلاثة ، فسنة أكلت اللحم ، وسنة أذابت الشحم ، وسنة أنْقَتْ[1] العظم ، وفى أيديكم فضول أموالٍ ، فإن كانت لله عز وجل ففرِّقوها على عباده ، وإن كانتْ لهم فلا تحتبسوها عنهم ، وإن كانتْ لـكم فتصدّقوا بها عليهم ؛ فإن الله يجزى المتصدّقين ، ولا يضيع أجر المحسنين ؛ وإنّ الوالىَ من الرعيّة كالروح من الجسد ، لا حياة له إلا به .

فقال هشام : ما ترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذراً ، وأمر بمائة ألف دينار ففُرِّقَتْ فى أهل البادية ، وأمر له بمائة ألف درهم : فقال : ارْدُدْها فى جائزة العرب ، فما لى حاجة فى خاصّة نفسى دون عامّة المسلمين .

أحمد بن يحيى : حدّثنى السدرىّ أن نُميراً غزت حَنِيفة فغنمتْ ، وتبعتْهم حنيفة فهزموهم ، وردُّوا غنائمَهم ، فلقيتُ غلاماً منهم ، فقلت : كيف صنع قومك؟ فقال: تبعوهم والله، وقد أحقبوا كل جُمالِيّة خَيْفَانة ، فما زالوا يخصفون

(١) أنقت العظم : أخرجت النقى منه . والنقى : مخ العظم .

أخفاف المطىّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم بعد ثالثة . فجعلوا المرّان أرشيةَ الموت ، فاستقَوْا بها أرواحَهم.

وهـذا كلام فصيح كثير الاستعارة . أحقبوا : أُردِفوا بموضع الحقيبة ، والجُمَالية المرأة الجميلة : وخصف : خرز ، وتشبيه المرّان — وهى الأرماح — بالأرشية وهى الحبال حَسَن.

وجلس خالد القسرىّ يوماً للشعراء على الفرات ، فأنشدوه وأخـذوا الجوائز وانصرفوا ، ولم يبق إلاَّ غلام ، فقـال خالد : يا غلام ، أشاعر أنت ؟ قال : لا ولـكنى مُتَعلِّم ، وقد قلتُ شيئاً ، قال : هات ، فأنشأ يقول :

ألا هَلْ تَرى مَوْجَ الفُرَاتِ كأَنَّه ... جِبـال سُرورٍ قد أتينَكَ عوّما
وما ذاك من عاداته غـيْرَ أنه ... رأى شيمةً من جارِه فتعلَّمـا

وكان بقَى على البساطَ فَضْلة مال ، فقال له خالد : اطوِ البساط بما عليـه ، فأخذه الغلام بما عليه .

ورأى بعضُ الملوك غلاماً يسوق حماراً ، وهو يعنُف عليه ، فقال : ارفُق يا غلام ، فقال : أيها الملك ، فى الرفق مضرّة عليه ، قال : وما مضرّتُه ؟ قال : يطول طريقه ، ويشتدّ جوعه ، وفى العنف عليه إحسانٌ إليـــه ، يخفّ حمـله ، ويطول أكله . فأعجِب به ، وقال : قد أمرت لك بألف درهم ، قال : رزقٌ مقدور ، وواهب مأجور . قال : وقد أمرت بإثبات اسمك فى حَشَمِى ، قال : كُفِيتُ مئونة ، ورزقت بهامعونة ، قال : لولا صغرك لاستوزرتُك ، قال : لم يعدم الفضل من رزِق العقل ، قال : أفتصلح لذلك ؟ قال : إنما يكون الحمد أو الذمّ بعد التجربة ، ولا يعرف الإنسان نفسَه حتى يبلُوَها ، فاستوزره فوجده ذا رأى صائبٍ .

دخل الفرزدق — وهو غلام يافع — على سعيد بن العاص ، وقد أنشد أشعاراً والحطيئة حاضر فأنشده :

ترى الغرّ الجحاجِح من قُرَيشٍ إذا ما الأمرُ فى الحَدَثان عالاَ[1]
قياماً ينظرون إلى سعيدٍ كأنهمُ يَرَوْن به الهِلالا

فقال الحطيئة : هذا والله الشعر ، لا ما تعلّل به نفسك هذا اليوم ، يا غلام أدركتَ مَنْ قبلَك ، وسبقت مَنْ بعدَك ، وإن طال عمرك لتبرِّزنّ ، ثم قال له : هل أنجدَتْ أُمُّكَ يا غلام ، قال : لا بل أنجد أبى ، فوجده لقِناً حاضر الجواب فأعجبَه .

وكان للفرزدق نديم يسمى زياداً الأقطع ، فأتى بابه ، فخرجتْ له بُنيَّة له صغيرة اسمها مكية ، فقال لها : ابنة مَنْ أنتِ ؟ قالت : ابنة الفرزدق ، قال : فما بالك حبشيَّةً ؟ قالت : فما بال يدك مقطوعة؟ قال : قُطِعت فى حرب الحَرورية ، قالت : بل قطِعت فى اللصوصية ، فقال : عليك وعلى أبيك لعنة الله ، ثم أخبر الفرزدق بالخبر ، فقال : أشهد أنها ابنتى حقاً ، ثم قال :

سامٍ إذا ما كنت مَحْمِيَّهْ[2] بدارِميٍّ أُمُّـه ضَبِّيَّهْ[3]
* صَمَحْمَحٍ مثل أبى مكّيَّهْ[4] *

وقرعَ بابَ عدىّ بن الرقاع جماعة من الشعراء ، فخرجتْ إليهم بُنيَّة له صغيرة فقالت : ما تريدون من أبى ؟ فقالوا : جئنا لنُهاجيَه ، فقالت :

تَجمّعتُمْ من كلِّ أوْبٍ ووجهةٍ على واحدٍ لازلْتُمُ قِرْنَ واحدِ[5]

(١) ديوانه ٦١٨ . عال : ائقل ، وفى الديوان : « آلا »
(٢) ديوانه ٨٨٥ ، وفيه : « شاهد » ، بدل : « سام » .
(٣) « صفية » وما أثبته من الديوان .
(٤) الصمحمح : الشديد الخلق والألواح .
(٥) الخبر والشعر فى الأغانى ٩ : ٣١٠

فأخبتهم ، ورجعوا بأخزى حالة .

وقال معاوية لعمرو بن سعيد وهو صغير : إلى مَنْ أوصى بك أبوك ؟ فقال : إنّ أبى أوصى إلىّ ولم يوصِ بى . أخذه بعضهم فقال :

وكنتُ النجيب لدى ناجِلِي فأوصى إلىّ ولم يوصِ بِى

قال يحيى بن يزيد : استنشدتُ غلاماً ، فأنشدنى أرجوزة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقال : لى . فزجرته فأنشأ يقول :

إنى وإنْ كنتُ صغير السِّنِّ وكان فى العين نُبُوٌّ عنِّى

فإنّ شيطانِي أميرُ الجنِّ يذهب بى فى القول كلّ فنّ

الأصمعىّ رحمه الله : قال وقف علىّ غلام بحمَى ضريّة ، ما ظننتُه يجمع بين كلمتين ، فقلت له : ما اسمك ؟ قال : حُرَيقيص ، فقلت له : ما كفى أهلَك أن سَمَّوْك حرقوصاً حتى صغروا اسمك ! فقال : إن السِّقْط ليحرِق الحرَجة ، فعجبت من جوابه ، فقلت : أتنشد شيئاً من أشعار قومك ؟ قال : نعم أنشد لمرَّارنا :

سكَنُوا شُبَيْثاً والأحَصَّ فأصبحتْ نزلتْ منازلَهم بنو ذُبْيَانِ

وإذا يقال أُتيتُم لم يَبْرَحُوا حتى تقيم الخيل سوق طِعَانِ

وإذا فلان مات عن أكرومةٍ رفعوا معاوزَ فقرِه لفلانِ

قال : فكادت الأرض تسوخ لحسن إنشاده وجودة الشعر ، فحدّثت الرشيد الحديث فقال : وددتُ يا أصمعىّ لو رأيتُ هذا الغلام ، فكنت أُبلِغُه أعلى المراتب[1] . فهذا الغلام سُمِّىَ بحقير مصغّر ، وهو فى معناه جليل معظّم .

ويُنظر إلى هذا من باب الضدّ ما حدّث أبو العباس عن الرياشىّ عن الأصمعىّ ، قال : مرّ بنا أعرابىّ ، وهو ينشد ابناً له ، فقلت له : صِفْه ، فقال : ديمرى ، فقلنا : لم نره ، فلم نلبث أن جاء بجُعَلٍ على عنقه ، فقلنا له : لو سألتَ عن هذا لأرشدناك ، ما زال هذا اليوم بين أيدينا .

---

(١) الخبر فى أمالى القالى ١ : ٦٦.

الأصمعىّ : قيل لأبى المِخَشّ : أما كان لك ابن ؟ فقال : المِخشّ ، قيل : وما كان المِخَشّ ؟ قال : أشدقَ خُرْطانيًا ، إذا تكلّم سال لعابُه، كأنما ينظر من فلسين ، وكأنّ ترقوته بُوان أو خالفة[1] ، وكأن مشاش منكبيه كِركرة جمل ؛ فقأ الله عينىّ هاتين إن كنت رأيتُ أحسنَ منه قبله أو بعده ، وأنشد :

نعم ضجيع الفتى إذا بَرَدَ اللـــيل سُحيراً وقَرْقَفَ الصّرِدُ
زيّنها الله فى الفــؤاد كما زُيِّن فى عين والدٍ ولدُ

وقال أبو المِخَشّ : كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتُبرِز كفًّا كأنها طَلْعة ، فى ذراع كأنّها جمارة ، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلّا خصَّتنى بها ، فزوّجتُها ، وصار يجلس معى على المائدة ابن لى ، فيبرز كفًّا كأنّها الكرنافة ، فى ذراع كأنها سُباطة ، فلا تقـــع عينى على أكلة نفيسة إلا سبقتْ يدُه إليها قبلى .

ـ المخشّ : الذى ينخشّ فى القوم ، يدخل معهم وهم يأكلون ، وأراد بمثل الفَلْسَيْن عَوَر عينيه . وقيل حُفْرتهما . خُرْطانيًا :طويل الأنف ،وسيلان اللعاب يدلّ على قوة النفس . البُوَان: عمود فى مقدّم البيت ، والكرنافة: طرف الكَرَب العريض المتّصل بالنخلة كأنها كتف ـ

اليزيدىّ: أوّلُ ما ظَهَر من نجابة المأمون وسَداده أنى كنت أؤدّبه فوجّهت إليه يوماً ليخرج ، فأبطأ ، فقلت لسعيد الجوهرىّ وهو فى حُجْرة: إن هذا الفتى قد اشتغل بالبَطالة ، فقال سعيد : قوِّمه بالأدب ، فلما خرج ضربتُه ثلاث دِرَرٍ ، فإنه لَيبكِى إذا بجعفر بن يحيى قد استأذَنَ عليه ، فوثب إلى فراشه مسرعاً ، وهو يمسح عينيه ، فجلس ثم قال : ليدخلْ ، فدخل ، فقمت من المجلس وخشيتُ أن يشكونى إلى جعفر ، فألقى منه ما أكره ، فأقبل عليه بوجهٍ طَلْق وحادثَهُ وضاحَكه ، فلما همّ بالحركة قال : ياغلام ، دابّته ، ورجعت. فقال : ما حَملَك أن

(١) الخالفة : عمود من اعمدة البيت .

قمت عنا ! فقلت : خفت أن تشكوَنى إليه فيوبّخنى ، فقال : إنا لله يا أبا محمد ! ما كنت أطلع الرشيد على هذا، فكيف أطلع جعفراً على أنى أحتاج إلى أدب ! يغفر الله لك . فكنت أهابه بعد ذلك .

وشُكِى إلى معلم عبد الرحمن بن حسان بصبيان ، فضربهم حتى انتهى إلى عبد الرحمن ، فهدّده فقال :

اللهُ يعـــلم أنّى كنتُ معتزلاً فى دار حسّان أصطاد اليعاسيبا

فتركه . وبلغ حسان ، فضمّه إليـــــه وقال : أنت والله ابنى حقًّا فِداك أبى وأمى !

ودخل عليه يوماً يبكى من لسْعة زنبور ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : لسعنى طائر كأنه ملتفٌّ فى بُرْدَىْ حَبَرة ، فقال : قلتَ والله يا بُنَىّ الشعر .

وجاءت سكينة بنت الحسين أُمَّها الرباب وهى تبكى ، فقالت : ما لك ؟ فقالت: مَرَبَتْ بى طُويرة فلسعتْنى بأبيرة.

ويروى : مرّت بى دُبَيرة ، تصغير دَبْرَة وهى النحلة .

* * *

قوله : اللجىّ : البحر .شُواظ : لهب النار . والكِهانة : بالكسر: حرفة الكاهن ، وبالفَتْح فعل الكاهن ، وهو المصدر ، والكاهن : المخبِر بالغيب .

وافترّ : تبسّم . متضاحك : مستعمل الضحك . مُمَاحك : لجوج ، أى مشى غير غاضب .

احفظها عنى ، أى حَصّلها وعِيَها . وعلىّ ، أى اكتمها واسترها ، وقامت الواو مقام تكرير الفعل . اصرف : أزل ونَحِّ . صِرْف الراح : خالص الخمر . الأسى : الحزن . تكتئب : تهتم وتحزن . قَدْك: حسبك .اتّئب : ارتجع وكفّ .

وقيل: معناه اسْتَحْيِ، يقال منه: وأبَ واتّأب، أى خزِىَ واستحيا والأبة والمؤبة: الخزْى والحياء والانقباض، وأوْأبه واستآبه: ردّه بخزى وعار، والتاء فيها مبدلة من واو، فأصل اتّأب اوْتأب فأبدلت الواو تاء وأدغمت فى التاء بعدها، وهى من وَأب الحافر يَئِب وَأْباً إذا انضم. وحافرٌ وَأْب، أى خفيف، والتؤبة مأخوذة من أتأب: وقال حبيب:

قَدْكَ اتّئِبْ أريت فى الغُلَوا ... كم تعـذلون وأنتمُ شجوى

فهذا يبيّن لك موقعها فى المقامة.

وعلى قوله تعالى: ﴿أتأمُرُونَ النّاس بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ﴾[1]، قال: أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مررت برجالٍ ليلة أُسْرِىَ بى، تُقْرَض شفاههم وألسنتُهم بمقاريضَ من نار، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمّتك الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسوْن أنفسهم».

أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسَوْن أنفسهم يُجرُون قصَبَهُم فى نار جهنم، فيقال لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن الّذين كنا نأمر بالبر وننسى أنفسنا».

قال أبو العتاهية فى منصور بن عمار وكأنّه يخاطب واعظ المقامة:

ياواعظَ النّاس قد أصبحتَ متّهماً ... إذ عبْت منهم أموراً كُنْتَ تأتِيها

كالملبِس الثوبَ من عُرْيٍ وعورتُه ... للنّـــاس باديةٌ ما إن يُوارِيها

وأعظمُ الأمر بعد الشّرك تعلمُه ... فى كلّ نفسٍ عماها عن مساويها

عِرْفانُها بعيوبِ الناس تبصرُها ... منهم ولا تبصر العَيْبَ الّذِى فِيها

---

(1) سورة البقرة ٤٤.

ومن لزوميات المعرى :

رُوَيْدَك قد خُدِعْتَ وأنت كهلٌ ... بصاحب حيلةٍ يعظ النِّساء[1]

يحرّم فيكمُ الصهباء صُبْحًا ... ويشربها على عمدٍ مساء[2]

يقول لكم : غدوتُ بلا كِسَاء ... وفى لذّاتها رَهَنَ الكِسَاءَ

إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى ... فمن جهتين لا جهةٍ أساء

[من الخمريات]

ونذكر هنا من الأبيات الخمريات ما يأتى على معنى البيتين اللذين أنشد ، قال الحسن :

ما مثل هذا اليوم فى حسنِهِ ... عطّل من لهوٍ ولاَ ضَيّعَا[3]

هل لك أن تغدُو على قهوةٍ ... تُسرِع فى المرء إذا أسرَعَا

ما وجَدَ النّاس ولا جرّبوا ... للهمّ شيئاً مثلها مُدْفِعَا

وله أيضاً :

حَلَبْتُ لأصحابى بها دِرَّةَ الصِّبا ... بصفراء من ماء الكروم شَمُولِ[4]

إذ ما أتَتْ دونَ اللّهاة من الفَتَى ... دعا هَمُّه من صدره برحيلِ

وله :

دع ذا فديتُك واشربْهَا معتّقةً ... صفراء تعبق بين الماء والزَّبَدِ[5]

---

(١) اللزوميات ٥١

(٢) بعده فى اللزوميات :

تَحَسَّاهَا فِنْ مَزْجٍ وصِرْفٍ ... يَعُلُّ كأنّمَا وَرَدَ الحِسَاء

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وفيه : « لم ار مثل اليوم فى حسنه » .

(٤) ديوانه ٣١٠ وفيه : « بصهباء » .

(٥) ديوانه ٢٢٧ ، وفيه :

* صفراء تفرق بين الروح والجسد *

من كفٍّ مختصر الزِّنّار معتدلِ كغصنِ بانٍ تثنّى غيرَ ذى أوَدِ[1]
لو كان لومُك نصحاً كنت أقبَلُه لكنّ لومَك محمولٌ على الحسَدِ

وقال الصابى :

كَوْكَبُ الإصباح لاحَا طالعاً والدِّيك صَاحَا[2]
فاسْقِنيها قهـــوةً تأ سُو مِنَ الهمّ جِراحَا
ذاتَ نشرٍ كنسيم الرَّوْض غِبَّ القَطْر فاحَا
يا غـلامى ما أرى فيـــك ولا فيهـا جُنَاحَا

وله من أبيات يصف فيها مجلس شراب :

كأنّ الكُئوس بأيدى السُّقاةِ سيوفٌ لها بالدِّماء احمرارُ[3]
كأن تَسْكَابَها فى الزُّجاج حريق لها من حُبَابٍ شرارُ
فلمّا برزن إلى الهمّ فيـــه ولِى بالسُّرور عليه اقتدارُ
جرى الضربُ مختلفاً بيننَا فمـــات وعِشْتُ وقد نِيَل ثارُ

وقال أبو بكر البلوى :

ومـدامٍ كست الكأ س من النّور وِشَاحَا
ظَهَرَتْ فى جُنْحِ ليلٍ فكأنّ الفجر لاحَا
لم يكن وقتَ صباحٍ فحسِبْنَاهُ صَبَاحَا

وقال أبو بكر الخالدىّ :

ما عُذْرُنا فى تركِنَا الأعنَابا سقط النَّدى وصفَا الهواءُ وَطَابَا[4]
فأدِمْ لذاذة عيشِنَا بمُدَامَةٍ زادتْ عَلَى هَرَمِ الزَّمَانِ شَبَابَا

(١) فى الديوان
من كفّ مضطمر الزِّنَادِ معتدلٍ كأن غصن بانٍ غير ذى أودِ
(٢) اليتيمة ٢ : ٢٣٦
(٣) اليتيمة ٢ : ٢٣٧
(٤) ديوانه ١٦

سَفَرتْ وغاب حَبابُها من لَحْظِها فعَــلاَ محاسِنَها فصارَ نِقَابَا

ولابن المعتزّ :

ونارٍ قدحْناها سِراعاً بسُحْرَةٍ متى ما يُرَقْ ماءٌ عليهــا توقَّدْ
يجولُ حَبابُ المـاء فى جَنَباتِهـا كما جال دمعٌ فوق خدٍّ مُوَرَّدْ

* * *

ثم قال : أما أنا فسأنطلق ، إلى حيث أصطبح وأغْتَبِقُ ؛ وإذا كنتَ لا تَصْحَب ، وَلاَ تُلاَئِمُ مَنْ يَطْرَب ؛ فَلَسْتَ لِي برفيق ، وَلاَ طَرِيقكَ لِي بِطَرِيق ؛ نَخَـلِّ سَبيلِي وَنَـكِّب ، ولا تنقِّرْ عَنِّى ولا تنقِّب ؛ ثم وَلَّى مُدْبِراً ولَمْ يُعَقِّبْ .

قال الحارث همام: فالْتَهَبْتُ وَجْداً عند انطلاقِهِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ أُلاَقِهِ .

* * *

قوله : أصطبح ، أشرب صَبُوحاً وهو شُرْب الغُـدُوّ . وأغتبق : أشرب غَبوقاً ، وهو شُرْب العَشِيِّ . تلائم : توافِق . نـكِّب : تنحَّ عن طريقى واجعله لجهة منكِبك . تنقّر وتنقّب : تبحث وتفتش ، وقد نقَّرتُ عن الأمر إذا طلبتَ علم باطنه ونقَّبت عنه ، إذا بحثت عليـه بظنّك حتى تستخرج سرَّه ، وفلان نقّاب ، أى فطِن ذَكِيٌّ يحدِّث بالغائب ، والتَّنقيب فى البلاد : تطلُّع أحوالِ أهلها وتجريب أمورهم . وَلّى : أدبر ، وترك طريقه الذى كان يستقبله . يُعَقِّب : ينظر . والوجْد : الحزن . والتهبتْ . اشتعلت . ودِدْتُ : تمنّيت .

ومما قيل فى ترك الوداع :

صدَّنى عن حـلاوة التَّشييعِ اجتنـابى مَرارَةَ التَّوديعِ
لا يفى أُنسُ ذَا بوحشة هذا فرأيت الصَّوابَ تركَ الجميعِ

المقامة الثانية والأربعون وهى النجرانية

حكى الحارث بن همام قال : تَرَامَتْ بى مَرَامِى النَّوَى ، وَمَسَارِى الْهَوَى ؛ إلى أَنْ صِرْتُ ابْنَ كلِّ تُرْبة ، وأخا كلِّ غُرْبة ؛ إلا أنِّى لم أكن أقطع وادياً ، ولا أَشْهَدُ نادِياً ؛ إلاَّ لاقتباسِ الأدب المُسْلِى عن الأشجان ، المُغلِى قيمةَ الإنسان ؛ حتى عُرِفَتْ لى هـــذه الشِّنشِنة ، وتناقلتْهَا عَنِّى الألسِنة ، وصارَتْ أَعْلَقَ بِى مِنَ الْهَوَى ببنِي عُذْرَة ، والشجاعَةِ بآل صُفْرَة .

* * *

ترامت بى : رمتْنِي هذه إلى هذه وهذه إلى هذه . والمرامى : المواضع التى ترميه . والمسارى : مواضع السُّرَى ، وهو سير اللَّيْل ، وهو جمع مَرْمَى ومَسْرَى ، ويكون المَرْمَى والمسْرَى مصدرين . والنَّوى : الغربة والبُعْد عن الأهل ، أراد أنّ البــلاد والجهات ترميه بلدة إلى بلدة ، وجهة إلى جهة ، فهو أبداً فى الجوَلان . وابن كلّ تربة ، أى ينسَب لكل بلدة لكثرة ما يظهر فيهــا . نادياً : مجلساً . الاقتباس : الاكتساب . المُسْلِى : المذهب للهَمّ ، وتسلّيت عن الهمّ : نسيته . والأشجان : الأحزان ، وقد تقدم شرح هذه المعانى وتكرّر . الشِّنْشِنَة : الطبيعية . أعلق : ألصق .

[ذكر بنى عذرة ونوادرهم وأشعارهم]

وبنو عُذْرة : قبيلة معروفة من قبائل العرب ، وهم أولاد عُذْرة بن سعد بن هُذَيْم بن زيد بن ليث بن سُويد بن أسلم بن الحافِ بن قضاعة .

الفنجديهىّ : عُذْرة قبيلة من العرب ، يستلذّون مرارةَ العشْق مثل الضربِ ،

جُبِلت المحبّة فى طينتهم ، وجُنِيَتِ المودّة من لينتهم، وصار الهوى وصفَهم الذى لا ينفك ، ورهائن قلوبهم من حرارات الشوق لا تُفَـكّ ، استأرهم العشق أسراً، واستأصلهم الحب قهراً وقسراً؛ فمنهم من يموت مِنْ أُوام غرامه، ومنهم مَنْ يموت بهُيَام سَقامه .

ومن مشاهيرهم جَميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُـذْرىّ صاحب بثينة بنت عبد الله العُذْرِيّة ، وعروة بن حزام صاحب عفراء بنت مالك العذريّين .

وقال : سعيد بن عتبة الهَمْدانىّ : قلت لأعرابىٍّ : ممن أنت؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا ، قلت : عُذْرِىّ ؟ قال : عُـذْرىّ وربّ الكعبة ، قلت: وممّ ذاك ؟ قال : لأنَّ فى نسائنا صَباحة ، وفى فِتْيَاننا عفّة .

وسئل أعرابىّ منهم فقيل له : ما حدّ الحب عندكم؟ فقال : أعينٌ تتلاحظ وألسن تتلافظ ، وعِـدَات تتقضّى ، وإشارات تدل على السخط والرّضا . قيل له : فالمباضعة ؟ قال : ذلك طلب الولد ، الحبّ إذا نُـكِح فسد .

سفيان بن زياد : قلت لامرأة من عُذْرة ـ ورأيت بها هوًى غالباً حتى خفت عليها الموت : ما بال العِشْق يقتلكم معاشرَ عَذرة من بين أحياء العرب؟ قالت : فينا جمال وتعفُّف ، فالجمال يحملنا على العفاف به ، والعفاف يورثنا رقّة القلب ، والعشق يفنى آجالنا ، وإنا نرى محاجِرَ لا تروْنَها .

أبو عمر بن العلاء: حدّثنى رجل من تميم، قال : خرجت فى طلب ضالّة لى ، فبينما أنا أدور فى أرض بنى عُذْرة أنشدُها، إذَا ببيت منعزل عن البيوت، وفى كِسْرِه شابٌّ مغمًى عليه، وعند رأسه عجوز بها بقيّة جمال، ساهمة تنظر إليه، فسلّمت عليها ، فردّت السلام ، فسألتُها عن ضالّتى فلم تعلم بها ، فقلت: مَنْ هذا الفتى ؟ فقالت : ابنى، فهل لك فى أجرٍ لا مؤنة فيه ؟ فقلت: والله إنى أحِبُّ الأجر وإن رُزِئت ، فقالت : إن ابنى هذَا يَهْوَى ابنة عمٍّ له، علقها وهما صغيران، فلما

كَبِرت خطَبها غيرُه ، فأخذه شبيه الجنون ، فخطبها إلى أبيها ، فمنعه وزوَّجها غيرَه ، فنحل جسمُه واصفرَّ لونه ، وذهب عقله ، فلما كان منذ خمس زُفَّتْ إلى زوجها ، فهو كما ترى مغمًى عليه ، لا يأكل ولا يشرب ، فلو نزلتَ إليه فوعظْته ! قال : فنزلت إليه فلم أدَعْ موعظة إلا وعظتُه بها ، حتى قلت له : إنهنَّ الغوانى صاحبات يوسف ، الناقضات العهد ، وقد قال فيهن كثيّر :

هل وصْلُ عَزَّةَ إلا وصلُ غانيةٍ ... فى وصل غانية مِنْ وَصْلِها خَلَفُ[1]

قال : فرفع رأسه محمرَّة عيناه كالمغضَب ، وهو يقول : لست ككثيِّر ، إن كثيِّراً رجل مائق ، وأنا وامق ، ولكنى كأخى تميم حيث يقول :

ألا لا يضرّ الحبّ مَنْ كان صابراً ... ولكنّ ما اجتاب الفؤادَ يَضِيرُ

ألا قاتلَ الله الهوَى كيف قادنى ... كما قِيد مغلولُ اليدين أسيرُ

فقلت له : فإنه قد جاء عن نبينا صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بى » ، فأنشأ يقول :

ألاما لِلْمَليحةِ لم تَعُدْنِى ... أبَخْلٌ بالمليحة أم صدودُ !

مرضتُ فعادَنِى أهلى جميعاً ... فمالك لم تُرَىْ فيمن يعود !

فقدتُك بينَهم فبكيت شوقاً ... وفقد الإلف يا أملِى شديدُ

وما استبطأت غَيرك فاعلميه ... وحولى من ذوِى رحمى عَدِيدُ

ولو كنتِ المريض لكنتُ أسعَى ... إليكِ وما يهدِّدُنى الوعيدُ

ثم شَهق شهقة ، وخفت خفته ، فداخلنى أمرٌ ماداخلنى مثله قطّ ، والعجوز تبكى ، فلما رأتْ ما حلّ بى قالت : يافتى ، لاترُعْ ؛ مات والله ولدى بأجلِه ، واستراح من تَباريحه وغُصَصِه ، فهل لك فى استكمال الصَّنيعة ؟ قلت : قولى

(١) ملحق ديوانه ٥٠٥ .

ماأحببتِ ،قالت: تأتى البيوت فتنعاه إليهم، ليعاونونى على رَمْسِه،فإنى وحيدة ، فركبتُ فرسِى ، وأتيت البيوت ، رافعاً صوتى بنعيه ، فلم ألبث أن خَرجتْ لى جارية ، أجملُ مَارأيت من النساء ، ناشرةٌ شعرها ، حديثة عهد بعُرس ، تقول : بفِيك الحجر المصمَت! مَنْ تَنْعَى؟ قلت: أنعَى فلاناً ، قالت: أو قد مات !قلت: إى والله قد مات . قالت : فهـل سمعتَ له قولا ؟ قلت : اللهمَّ شعراً ، قالت : وما هو ؟ فأنشدتها أبياته ، فاستعبرت وأنشأت تقول :

عَدَابى أن أزورَك يا مُرادى ... معاشرُ كلُّهُمْ واشٍ حسودُ
أشاعوا ماعلمتَ من الدَّواهى ... وعابونا وما فيهمْ رشـيدُ
فأمَّا إذ ثويتَ اليومْ لَحداً ... وكلُّ الناس دورهمُ لحودُ
فلا طابت لىَ الدنيا فُوَاقاً[1] ... ولا لهمُ ولا أثْرَى العَدِيدُ

ثم شهقت شهقة ، فوقعت مغشيًّا عليهـا ، وخرجت النساء من البيوت فاضطربتْ ساعة ، وماتت .

فوالله ما برحتُ حتى دفنتُهما جميعاً[2] .

هشام بن عروة : أذن معاوية للنَّاس يوماً فكان فيمن دخل عليه فتًى من بنى عُذْرة ، فقام بين السِّماطين وأنشأ يقول :

أتيتكَ لمَّا ضاق فى الأرض مسلكى ... وأنكرتُ مِمَّا قد أُصِبتُ به عَقْلِى
ففرِّج كلاك الله عـنِّى فإننّى ... لقيت الذى لم يلقَهُ أحـدٌ قَبْلِى
وخذ لى هداك الله حَقِّى من الذى ... رمانى بسهمٍ كان أهونُهُ قتلِى
وكنت أرجّى عـدْلَهُ إذ أتيتُـه
فأكثر تَرْدادى مع الحبْس والكَبْلِ
فطلَّقتُها من جُهْدِ ما قد أصابنى ... فهل ذا أميرَ المؤمنين من العدْلِ!

(١) الفواق : الوقت بين الحلبتين .
(٢) الخبر والشعر فى كتاب ذم الهوى لابن الجوزى ٥٠٤ ـ ٥٠٦

فقال له معاوية : ادْنُ بارك الله عليك ، ما خطبك ؟ قال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إنى رجل من بنى عُذْرة ، تزوَّجتُ ابنة عمّ لى . وكانت لى صِرْمَةٌ[1] من الإبل وشُوَيهات ، فأنفقت ذلك عليها ، فلما أصابتْنى نائبات الزمان وحادثات الدهر رغب عنّى أبوها ـ وكانت جاريةً منها الحياء والكرَم ، فكرهتْ مخالفة أبيها ـ فأتيت عاملك عبد الرحمن بن أم الحكم فذكرتُ ذلك له . وبلَغه جمالُها ، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوَّجها ، وأخذنى فحبسنى ، وضيَّق علىّ ، فلمَّا أصابنى مسُّ الحديد وألم العذاب طلَّقتُها ، وقد أتيتك يا أميرَ المؤمنين ، وأنت غياث المحروب ، ومعيد المسلوب ، فهل من فَرَج ؟ ثم بكى وهو يقول :

فى القلب منِّىَ نارُ ... والنَّار فيها شرارُ
وفى فؤادىَ جمرٌ ... والجمر فيه احمرارُ
والجسم منِّى نحيلٌ ... واللَّون فيه اصفرارُ
والعين تبكى بشَجْوٍ ... فدمعها مِدْرَارُ
والحُبّ داء عسيرٌ ... فيه الطبيب يَحَارُ
حملتُ منه عظيماً ... فما عليه اصطبارُ
فليس ليلَى ليلاً ... ولا نهارِى نَهَارُ

فرقّ معاوية له ؛ وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً وفى آخره :

ركبتَ أمراً عظيماً لست أعرفُه ... أستغفرُ الله من جَوْرِ امرئٍ زانِى
قد كنتَ تُشْبِه صوفيًّا له كتب ... من الفرائض أو آيات فرقانِ
حتى أتانى الفتى العذرىّ منتحِباً ... يشكو إلىّ بحقٍّ غيرِ بُهْتَانِ
أُعطِى الإله عهوداً لا أخيس بها ... أولا فبرّئت من دينى وأيمانى

(١) الصرمة : الجماعة من الابل ما بين العشرين والثلاثين .

إن أنت راجعتَنى فيما كتبتُ به لأجعلنَّك لمعاً بين عِقْبَانِ
طلِّق سعاد وفارقْهـــا بمجتمَعٍ
وأشهِدْ على ذاك نَصْراً وابنَ ظَبْيَانِ
فما سمعتُ كما حُـدِّثتُ من عَجَبٍ ولا فعالُك حقًّا فعـل إنسانِ

فلما ورد الكتاب على ابن أم الحكم ، تنفّس الصُّعَداء ، وقال : وددت لو أن أمير المؤمنين خلّى بينى وبينها سنة ، ثم عرض علىّ السيف ، وجعل يؤامر نفسه فى طلاقها فلم يقدِرْ ، فلما أزعجه الوفد طلّقها ثم قال : يا سعاد اخْرُجى ، فخرجت شَكِلَةً غَنِجَةً ذات هيئة وجمال ، فلمّا رآها الوفد قالوا : ما تصلُح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابىٍّ ، وكتب الجواب :

لا تحنثنّ أميرَ المؤمنين فقد أوفِى بعهدك فى رفق وإحسانِ
فما ركبتُ حراماً حين أعجبنى فكيف سُمِّيتُ باسم الخائن الزانِى!
فسوف تأتيكَ شمسٌ لا خفاء بها أبهى البرية من أنسٍ ومِنْ جَانِ
حوْراء يقصر عنها الوصف إذ وُصِفَتْ
أقول ذلك فى سرٍّ وإعـــلانِ

فلما وردتْ على معاوية ، قال : إن كانت أعطِيتْ حسن النغمة مع هذه الصفة ، فهى أكملُ البريةّ ، فاستنطقها ، فإذا هى أحسنُ الناس كلاماً ، وأكملهم شكلاً ودلاً ، فقال : يا أعرابىّ ، هل من سُلُوٍّ عنها بأفضل الرغبة ؟ قال : نعم ، إذا فرّقْت بين رأسِى وجَسدِى ، ثم أنشأ يقول :

لا تجعَلَنّى والأمثـال تُضْرَب بِى كالمستجير من الرَّمْضَاء بالنـار
اردد سعادَ على حَـيْرانَ مكتئبٍ يُمْسِى ويصبح فى همٍّ وتَذْكَارِ
قد شَفّه قلقٌ ما مثـــله قلقٌ وأسعرَ القلبُ منه أىَّ إسعارِ
والله والله لا أنسى محبَّتَهـــا حتى أغيَّب فى رَمْسٍ وأحجار

كيف السلوُّ وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صَبّارِ

فغضب معاوية غضباً شديداً ، ثم قال لها : اختارى مَنْ شئت ، أنا أو ابن أم الحكم أو الأعرابىّ ؛ فأنشأت تقول :

هـــذا وإن أصبَح فى أطْمَارِ أو كان فى بعضٍ من اليَسَار
أكبرُ عندى من أبى وجارِى وصاحبِ الدِّرهم والدينـــار
* أخشى إذا غَدَرْتُ حَرَّ النارِ *

فقال له معاوية : خذها لا بارك الله لك فيها ، فأخذها وأنشأ يقول :

خَلُّوا عن الطّريق للأعرابى ألم ترقّوا وَيْحَكُمُ لما بى !

فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأدخلت لبعض قصوره حتى انقضتْ عِدَّتُها من ابن أمّ الحكم ، ثم دفعها للأعرابىّ[1] .

وقال بعضهم : كنت سائراً فى بلاد عُـذْرة فولجتُ بعضَ أوديتهم وإذا شابٌّ حسنُ الوجه ، بيده زمام ناقة ، عليها هودجٌ مسجَّف[2] ، به جارية ، ومن وراء الناقة خمس قلائص[3] ، وقد رفع عقيرته ينشد ويقول :

ته كيف شئتَ وسِرْ على مهـلٍ كلُّ الجَمـــال عليك يا جَمَلُ
علىَّ أنَّك لا ترى كَلَلاً ما دام فوقك هـــذه الكِلَلُ

فسلّمتُ عليه ، فردَّ ، وسألته وسألنى وتناشدنا ، واتصل الأنس بيننا ، وسرنا غير قليل ، فرأى قانصاً فى أحبولته ظبيٌ ، فلما رآه يضطرب فى الأحبولة أجْهش بالبكاء ، وأنشأ يقول :

وذكّرنى مَنْ لا أبوحُ بحبِّـــه محاجرَ ظَبْيٍ فى حُبـــالةِ قانِصِ

---

(١) الخبر والشعر فى كتاب نهاية الأرب ٢ : ١٥٦ — ١٥٩

(٢) الهودج : مركب للنساء . ومسجف ، عليه سجاف وهو الستر ■

(٣) القلوص من الابل : الشابة

فقلتُ وجَفْنُ العين يجرى بِعَبْرَةٍ ولحظى إلى عينيه لحظةُ شاخِصِ
ألا أيُّهذا القَانص الظبيَ خَـــلِّه وخذ عِوَضاً منه جيادَ قلائِصِى
خفِ الله لا تحبسْه إنّ شبيهـه حياتى قد أرعِدَتْ منه فرائِصِى

فقال القانص : الله إن فعلت ؟قال : الله ، فأرسل الظبى ، واستاق القلائص.

وحدّث رجلٌ من بنى عذرة قال : كان فينا فتًى ظريف غزِل ، كثيراً ما يتحدّث إلى النساء ، فهوِىَ جاريةً من الحىِّ ، فراسلها فأظهرتْ له جفوة ، فوقع مضنًى مُدنفاً وظهر أمره ، وتبيَّنَ دَنفُه ، ولم يزل النساء من أهلها وأهله يكلِّمْنَها فيه،حتى أجابت ، فسارت إليه عائدةً ومسلِّمة، فلما نظر إليها تحدّرت عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :

أريتُكِ إن مرَّت عليك جنازتى تروح بها أيدٍ طوالٌ وتسرعُ
أما تَتْبَعينَ النَّعش حتى تسلِّمى على رمس مَيْتٍ بالحفيرةُ يودعُ!

فبكت رحمة ، وقالت : والله ما ظننت أنّ الأمر بلغ بك هـذا ، فوالله لأساعدنَّكَ ولأداومنّ على وصالك ، فهملتْ عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :

دَنَتْ وظِلالُ الموت بينى وبينَهـا وَمنَّتْ بوصلٍ حيث لا ينفع الْوَصْلُ

ثم شهق شهقة فخرجت نفسه ، قال : فوقعت عليه تلثُمه ، ثم رجعت عنه مغشيًّا عليها ، فما مكثت بعده إلاّ أياماً حتى ماتت[1].

قال حماد الراوية : انصرفت من جنازة لبعض السّكاسك ، فإذا بصبيٍّ من عُذْرة ظريف ، حَسَن الوجة ، صَغِير السِّنِّ ، موصوف بقول الشعر ، فوقفنا فسلَّمنا ، فقام إعظاماً لنا ، فقلت : أنشدنا شيئاً ، فكأنه استحيا ، فقلت له : لابدَّ ، فأنشدَنا :

هـل من الحبِّ مجيرٌ من ملاحٍ يعتـدُونَا

(١) ذم الهوى ٥٠٩ ــ ٥١٠.

قد شكَونا بخضوعٍ عَذْلَ قوم يعذِلُونَا
فى جوًى نلقاه مِمنَّ لا يبـــالِى ما لَقينَا
وبكَيْنا بدموعٍ أغرقت منّا الجفونا

قال حماد : فكدت أرقص طرباً وقلت : فداؤك عمُّك ! وجلسنا إليه تعجُّباً من رقته وجماله وفصاحته ، فأنشدنا :

ولقد أرسلتُ دمعِى شاهداً ثم صيَّرت إليها المشتكَى
فتولَّت ، ثم قالت شغلى كلُّ مَنْ شاء تبكى ! فبكَى

قال حماد : قلت له : فديتك ، تحبُّ هذه الجارية ؟ قال : يا عمّ ، والحبُّ عيب! إن كان عيباً تركته . ثم قال : ياعمّ إذا قرأت أو بلغنى أحاديثُ قومى مثلُ عروة وجميل ، أفلا أشتهى أن أكون واحداً منهم ! فانصرفنا عنه متعجبين .

[ذكر آل أبى صفرة]

قوله : والشجاعة بآل أبى صفرة،أبو صفرة هو ظالم بن سراقة بن كندىّ ابن عمرو بن عدى ، ويتّصل بعمْرو مزيقيا ، ثم بأزددبا ، وأزددبا ما بين عُمان والبحرين ، وكانوا أسلموا ثم ارتدُّوا فى خلافة أبى بكر ، فبعث إليهم أبو بكر عِكْرمة بن أبى جهل ، فقاتلَهم وسبىَ ذراريَّهم وبعث بهم إلى أبى بكر ، وأبو صُفْرة غلام ، فحبسهم أبو بكر ، فلما تُوُفىَ أطلقهم عمر ، فنزل أبو صُفْرة البصرة ، فشرُف بها .

وروى بعضُهم أنَّ أبا صُفْرة طلب من عمر أن يولِّيَه عملاً ،فسأله عن اسمه فقال : ظالم بن سرّاق ، فقال : تظلم أنت ويسرق أبوك ! ولم يولّه عملاً تطيُّراً باسمه .

والمهلَّبيّة تزعم أنَّ أبا صُفْرة قدم على النبىِّ صلى الله عليه وسلم،وعليه حُلّةٌ

صفراء يسحبها خلفه ذراعين . وله طول ومنظر وفصاحة ، فأعجب النبيَّ صلى الله عليه وسلم مارأى من جماله وخُلُقه، فقال له : مَنْ أنت ؟ قال: أنا قاطع بن سارق ابن ظالم بن عمرو بن شهاب بن مرة بن الهلقام بن الجلندى بن المستكبر بن الجلندى، الذى كان يأخذ كل سفينة غَصْباً ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أنت أبو صُفْرة ، ودع عنك ظالماً وسارقاً » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله حقًّا ، إنّ لى لثمانية عشر ذكراً ، ورزقت بآخرهم بنتاً سميتُها صُفْرة .

وأما أولاد أبى صُفْرة ، فكانوا كُتَّاباً شجعاناً أبطالاً حماةً ، منهم أبو سعيد المهلَّب . وذكروا أنّ أبا صُفْرة وفَد على عمر رضى الله عنه ومعه عشرة من ولده ـ والمهلَّب أصغرهم ـ فتوسَّمهم عمر ، ثم قال: هذا سيِّد ولدك المهلَّب ، والمهلَّب هو صاحب حروب الأزارقة ، وولاَّه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة تسع وسبعين ، ومات سنة ثلاث وثمانين ، واستخلف يزيدَ ابنه عليها ، فأقرّه عبدُ الملك عليها سنتين أو ثلاثاً . وغزا يزيدُ جرجان فى خلافة سليمان بن عبدالملك سنة سبع وتسعين، فى ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم أشهراً ، ثم صالحهم على أن يُعطوا خمسمائة ألف درهم كلَّ عام ، يؤدونها إليه ، ثم غزا سنة ثمان وتسعين طَبَرِستان ، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائةِ وقْر زعفران وأربعمائة رجل مع كلِّ رجل بُرْنس وطيلسان وخاتم فضة ، وسَرَقة حرير وكسوة ، فقبل ذلك وانصرف عنهم . ثم غدر أهل جُرْجان بمن خلَّف عليهم من المسلمين فقتلوهم ؛ فلما فرغ من طَبَرِستان سار إليهم ، فقاتلهم شهراً ، ثم نزلوا على حكمه ، فقتَل مقاتِلتَهم ، وسبى ذراريَّهم وصلبهم فرسخين ، وقاد منهم اثنى عشر ألفاً إلى وادى جرجان ، فقتلهم وأجرى الماء فى الوادى على الدَّم ، وعليه أرحاء بدمائهم تطحن ، واختبز وأكل ، وكان قد حلف على ذلك .

الأصمعيّ : قبض[1] الحجاج على يزيد ، وأخذه بسوء العذاب ، فسأله أن يخفّف عنه العذاب على أن يعطيه كلّ يوم مائة ألف درهم ، فكان دأبه أنه إذا أدّاها تركه ، وإلاّ عذّبه إلى الليل ، فجمع يوماً مائة ألف درهم ، يشترى بها عذابه ، فدخل عليه الأخطل فأنشده :

أبا خالدٍ بادت خراسانُ بعدكمْ ... وقال ذَوُو الحاجات أين يزيد[2] ؟
فما سُقِيَ المَرْوان بعدك قَطْرةً ... ولا اخضرّ بالمرْوَين بعدك عُودُ
وما لسرير بعد ملكك بهجةٌ ... ولا لجواد بعد جودك جودُ

فأعطاه المائة الألف . فبلغ ذلك الحجاج ، فدعا به ، وقال : يا مروزيّ ، أكل هذا الكرَم وأنت بهذه الحالة؟ قد وهبتُ لك عذاب اليوم وما بعده[3] .

ابن عبد الحكم : أخبرنا الشافعيّ قال : طَعن يزيدُ بن المهلَّب رجلاً من الخوارج ، فصرعه فوثب الخارجيّ بالسيف ، وهو يقول :

وإنّا لقومٌ لا نعوِّد خيلَنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفِرَا
ونُنكرُ يوم الروع ألوانَ خيلنا ... من الدم حتى نَحسِبَ الوَرْد أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردَّها ... صحاحاً ولا مستنكَرٍ أن تُعقَّرا

قال يزيد : فكرهت أن أقتُلَ مثلَه ، فانصرفت عنه . وقتِل يزيد يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة ، وهو ابن سبع وأربعين سنة .

---

(١) القصة والأبيات فى ابن خلكان ٢ : ٢٦٥

(٢) قال ابن خلكان : قوله : « فلا مطر المروان ... ولا أخضرّ بالمروين » هما تثنية مرو ، وأحدهما مرو الشاهجان ، وهى العظمى ، والأخرى مرو الروذ ، وهى الصغرى ، وكلتاها مدينتان مشهورتان بخراسان .

(٣) قال ابن خلكان : قلت هكذا ذكر ابن عساكر ، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق ، ثم انى رأيت هذه الأبيات فى ديوان زياد الأعجم ، والله أعلم بالصواب .

وقيل للمهلَّب: بم نلتَ ما نلتَ ؟ قال : بطاعة الحزْم ، وعصيان الهوى .

وقيل لأبى إسحاق الهَمْدانىِّ : لم رويتَ عن المهلَّب ؟ قال : لأنى لم أر أميراً أبْيَنَ منه تقيَّة ولا أشجع منه ،ولا أبعد ممَّا يكره ، ولا أقرب مما يحبّ.

ومرَّ المهلّب بقوم فعظَّموه وسوَّدوه ،فقال رجل : أَلِهذا الأعور تسوّدون ! والله لو خرج إلى السوق ما زادت قيمته على ألفى درهم ، فسمعه المهلَّب ، فقال لبعض مَنْ معه : أتعرف الرجل ؟ قال : نعم ، فلما انتهى إلى مجلسه أرسل إليه بألفى درهم . فقال له : لو زدتَنا فى القيمة لزدناك فى العطيَّة ، فخجل الرجل ، وعرف منزلته .

وللمهلَّب وبنيه وإخوته فى حروب الأزارقة مشاهد ما شوهدت قطُّ فى جاهلية ولا إسلام .

وقتَل المهلَّب وأولاده وإخوته ومَنْ معه من الأزارقة فى ليلة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة، وانهزم بقيَّتهم مع قَطَرِىٍّ، فنفاهم إلى أقاصى البلاد حتى قُتِل قَطَرِىٌّ ومَنْ معه .

وسئل المهلب عن ابنيه : أيُّهما أشجع أيزيد أم حبيب ؟ فقال : إن الولد ربَّما سبق رأىُ أبيه فيه ، وقَطَرِىٌّ قد مارسهما ، فسلوه عنهما . فلمَّا كان من الغد واصطفُّوا للقتال صاح رجل : يا أبا نعامة[1]، فقال : أفرجوا له ، ثم قال : قد سمعتَ فقل ؛ فقال: إنَّا سألنا الأميرَ عن ابنيه يزيد وحبيب : أيُّهما أشجع ، فقال : سلُوا أبا نعامة ، فقال : على الخبير سقطتَ ، أمَّا صاحب الكرِّ والفرِّ والإقدام والإحجام ، وصحَّة التدبير ومبارزة الكمىِّ المدجَّج فالحَرون يزيد ، وأمَّا إذا التقت غياطيل الليل ، وخفتت الأصوات إلاّ الغماغم ، وقُرِع الحديد بالحديد فالخيار حبيب .

(١) أبو نعامة كنية قطرى .

ـ الغَيْطَلة التباس الظلام ، وخفتت: سكنت . والغمغمة : أصوات الأبطال في القتال ـ

وسأل الحجاج كعب بن مَعْدانَ الأشقرىّ[1] حين وفد عليه بالفتح ، فقال له : أخبرنى عن بنى المهلَّب ، فقال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً ، وجوادهم وسخيُّهم قبيصة ، وما يستحى الشُّجاع أن يفرَّ من مُدْرك ، وعبد الملك سمٌّ ناقع ، وحبيب موت ذُعاف ، ومحمد ليث غاب . وكفاك بالمفضَّل نَجْدة . فقال : كيف كانوا فى البأس ؟ قال حماة السَّرْح نهاراً ، فإذا أليَلُوا ففرسان البَيات . قال : فأيُّهم كان أنجد ، قال : كانوا كالحلْقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها .

وحين وفَد المهلَّب على الحجاج أجلسه إلى جانبه ، وأظهر إكرامه ، وقال : يا أهـلَ العراق ، أنتم عبيد المهلب ، ثم قال له : أنت والله كما قال لَقِيط الإيادىُّ :

وقلِّدوا أمركم لله دَرُّكمُ ... رَحْبَ الذِّراع بأمرِ الحرب مُضْطَلِعاَ[2]

لا مترَفاً إن رخاً فى الأمر ساعده[3] ... ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعَاَ

ما زال يحلُب هذا الدهرَ أشطُرَه ... يكون متَّبِعاً طَوراً ومتَّبَعَاَ

حتَّى استمرَّتْ على شَزْرٍ مريرتُه[4] ... مستحكم الرأى لا قحْماً ولا ضَرَعَاَ

فقام رجل وقال : أصلح الله الأمير ! والله لكأنَّى أسمع الساعة قَطَرِيًّا يقول للمهلَّب كما قال لقيط الإيادىُّ ... وأنشد الأبيات ، فامتلأ الحجاج سروراً .

وقال له الحجاج : اذكر لى الذين أبْلَوْا وصف لى بلاءهم ، فقدَّم بنيه ، وقال :

---

(١) ط : « الاشعرى » بالعين ، تحريف .

(٢) مختارات ابن الشجرى ٥ .

(٣) ابن الشجرى : « ان رخاء العيش ساعده » .

(٤) ابن الشجرى : « مريرته » .

والله لو تقدَّمهم أحـد فى البلاء لقدَّمْتُه عليهم ، ولولا أن أظلِمَهم لأخَّرْتُهم. فقال له الحجاج : نعم إنهم لسيوفٌ من سيوف الله تعالى فى الأرض .

وقال يوماً عبد الملك للشعراء : تشبَّهونني مرة بالأسـد الأبخر ، والجبل الأوعر ، والبحر الأجاج وبالصقر والباز ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرىّ فى المهلب وبَنِيه :

براك الله حين براك بحراً ... وفَجَّر منك أنهاراً غِزارَا
بنوكَ السَّابقون إلى المعالى ... إذا ما أعظم النَّاسُ الفَخارَا
كأنهُم نجومٌ حول بدرٍ ... دَجوجيٍّ تكمَّل واستَدَارَا
ملوكٌ ينزلون بكلِّ ثغرٍ ... إذا ما الهام يوم الرَّوْع طَارَا
رزانٌ فى الأمور ترى عليهمْ ... من الشيخ الشمائِل والنِّجارَا
نجوم يُهتـدى بهمُ إذا ما ... أخو الغمرات فى الظلماء حارَا

وفى ديوان الحماسة :

آلُ المهلَّب قومٌ خُصّوا شرفاً ... ما نَاله عربيٌّ لا ولا كادَا[1]
لو قيل للمجد حِدْ عنهم وخلِّهمُ ... بما احتكمتَ من الدُّنيا لما حَادَا
إنّ المكارم أرواح يكون لها ... آلُ المهلَّب دُونَ الناس أجْسَادَا

ولبعضهم :

إذا كان المهلَّب من ورائى ... هَدَا لَيلِي وقَرَّ له فؤادى
ولم أخش الدنيَّة من أناس ... ولو صالوا بقوّة قومِ عَادِ

وتُوُفِّىَ المهلب بفنجَديّة بصحراء راغول سنة ثلاث وثمانين ؛ فبعد أربعمائة وثلاثين من وفاته ، رأى بعضُ علماء فنجديّة فى المنام كأنَّ المهلَّب يقول : الله

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ص ٢٧٨٧

الله ، الحقنى قَبْلَ أن يأخذنى روذمرو - وهو نهر عظيم يُعْبَر عليه بالسفن - وانقلنى إلى بعض مقابر المسلمين ، وأنا مدفون على شاطىء هذا النهر الكبير فى الموضع الفلانى ، وقد حفر الماء تحت قبرى ، وقرب أن يأخذنى ، فلما أصبح الرجل أخذ جماعةً من أصحابه معهم المساحى والفئوس فمضوْا إلى ذلك الموضع ، وحفروا حتى وصلوا إلى قالبه فكشفوا التراب عنه ، فكانت عظامه ما بليتْ بَعْد ، فدفنوه بمقبرة مذونة .

قال الفنجديهى : وهى محلتنا ؛ وسمعتُ معنى هذه الحكاية من والدى رحمه الله .

* * *

فلما ألقيتُ الجِرَانَ بِنَجْرَان ، واصطفيتُ بها الخُلاَّنَ والجيرانَ ، تخذتُ أنديتَهَا مُعْتَمَرِى ، ومَوْسِمَ فُكَاهَتِى وَسَمَرِى ؛ فكنتُ أَتَعَهَّدُها صَبَاحَ مَسَاء ، وأَظْهَرُ فيها على ما سَرَّ وساء ؛ فبينما أنا فى نادٍ مَحْشُودٍ ، وَمَحْفِلٍ مَشْهُودٍ ؛ إِذْ جَثَم لَدَينا هِمّ ، عليه هِدْم ؛ فَحَيَّا تَحِيَّةَ مَلِق ، بِلِسَانٍ ذَلِق ؛ ثم قال: يا بُدورَ المحافل، وبُحُورَ النَّوَافِل ، قَدْ بَيَّنَ الصُّبْحُ لِذِى عَيْنَيْن ، وناب العيانُ مَنابَ عَدْلَيْنِ ، فماذا تَرَوْنَ ، فيما تَرَوْنَ ؟ أَتُحْسِنُونَ الْعَوْنَ ، أم تَنْأَوْنَ إِذْ تُدْعَوْنَ ! فقالوا : تالله لَقَدْ غِظْتَ ، ورُمْتَ أنْ تُنْبِطَ فنِضْتَ .

* * *

قوله : بنَجْران : بلد من كُوَر نجد مما يَلِى بلادَ اليمن ، سُمِّيتْ بنجران ابن زيد بن سبأ . اصطفيْت : اخترت . الخُلاَّن : الأصحاب . تخذت ، بمعنى اتَّخذت . أنديتها : مجالسها ومجتمع أهلها . مُعْتَمَرِى : موضع

زيارتى ، واعتمرت الموضع : قصدته وزرته . مَوْسم : عيد . فكاهتى : ممازحتى . سَمَرِى : حديثى بالليل . أتعهّدُها : أتفقدُها صباح مساء : اسمان مركّبان جُعِلا لخمسة عشر ، وأراد يزورُها فى الصباح والمساء . نادمحشود : مجلس مجموع الأهل ، ومثله المحفل المشهود . جَمّ : برك . هِمّ : شيخ هَرِم ، قد أذهبَ الكِبَرُ قُوَّتَه ولحمه ، وتقول : هَمَمْتُ الشَّحم : أذبته ، ومنه قولهم : هذا الأمر لا يَهِمُنى ، بفتح الياء وكسر الهاء ، أى لا يذيبنى ، ومن قال بضمّ الياء فمعناه لا يقلقنى . هِدْم : ثوب خَلَق كأنّهُ هدمه البِلَى . مَلِق : متلطّف فى كلامه . ذَلق : حديد . النَّوافل : العطايا . بيّنَ الصبح لذى عينين ، مثَل ، ويريد أنَّ الليل يتساوى فى ظلمته الأَعمى والصحيح ، فإذا ظهر ضوء الصبح أبصر الأشياء مَنْ له بصر ، وقيل معنى بَيّن الصبح ، أى تَبَيَّن ، والعِيان : المشاهدة ، وعاينته : شاهدته ، أى أنتم ممَّن لا يخفى عليكم حالى ، يريد أنَّ المعاينة تغنى عن الشهود العدول . فماذا ترون : فما رأيُكم ؟ وهى من رؤية القلب . فيما تَرَوْن ، أى فيما تنظرون وتبصرون ، وهو من رؤية البصر . وقال الفنجَديهى فى شرحه : فما ترون ؟ أى فما تظنُّون فيما تَرَوْن ؟ أى فيما تبصرون . تنأوْن : تبعدون . غظت ، من الغيظ ، أى لقد حَرَّكْتَ غيظاً . رُمْتَ أن تُنْبِط : أردت أن تخرج ماء . غِضْتَ . غيّبته وجَفَّفته ، والغَيْض نقيض الفَيْض ، وغاض الماء : ذهب فى الأرض .

* * *

فناشدَهُمُ اللهَ عَمَّا ذَا صَدَّهُمْ ؛ حَتَّى اسْتَوْجَبَ رَدَّهم ؛ فقالوا : كُنَّا نتناضَلُ بالألْغاز ؛ كَمَا يُتَنَاضَلُ يَوْمَ البِرَاز ؛ فما تمالَكَ أنْ شَمَّتَ مِنَ المَنْضُولِ ، وَأَلْحَقَ هَذَا الْفَضْلَ بِنَمَطِ الْفُضُولِ .

فَلَسْنَتْهُ لُسُنُ الْقَوْم ، ووخزوهُ بأَسِنَّةِ اللَّوْم ، وأخذ هو يَتَنَصَّلُ

من هَفْوَتِهِ ، ويتندَّمُ عَلَى فَوْهَتِهِ ، وهُمْ مُضِبُّونَ على مؤاخذتِهِ ؛ وَمُلَبُّونَ دَاعِيَ مُنابذتِهِ ، إلى أن قال لهم : ياقوم ؛ إن الاحتمالَ مِنْ كَرَم الطَّبْع ، فَعَدُّوا عَنِ اللَّذعِ والْقَذْعِ ، ثُمَّ هَلُمَّ إلى أن نُلْغِزَ ، ونُحكِّمَ المبرِّز .

* * *

ناشدهم : حَلَّفهم . صَدَّهم : صرفهم وأزالهم . نَتَنَاضل : نترامى . البراز : القتال : والألغاز : جمع لُغْز ، وهو الكلام المعمَّى ، وألغز ، إذا عمَّى كلامه فلم يُفهم ما يقصده ، وأصلُه من اللُّغز وهو الحجر الملوِيُّ : ما تمالك : ما أبطأ ولا مَلك نفسه .

شَعَّث : غَبَّر ، ويُروى « شَعَّب » . من المنضول ، أى نقصه وفرَّقه ، والمنضول : المرميّ ، أى قبَّح فعلَهم ومراماتهم . الفنجديهيّ : شعَّثَ الدهرُ ماله ، أى أخذه ، والمنضول : المغلوب فى النِّضال ، والمعنى فما صَبَر عن تشعيث همِّ المغلوب ونصرِه وتخليصه عمَّا أرْتج عليه من اللُّغز ، ويقال : شَعَّثَ منه ، أى عابه وتنقَّصه ، وكأنه عاب المنضول كيف أُرْتِجَ عليه شىء سهل ! وهذا تفسير حسن ، إلاَّ أنّ مساق كلام الحريرى أدلُّ على التفسير الأوَّل .

نَمَط : نوع . لَسَنَهُ : أخذه بلسانه . لُسْن القوم : فصحاؤهم . وخَزُوه : طعنوه . يتنصَّل : يتبرَّأ ويعتذر . هَفْوته : سقطته . فوْهته : كلمته الّتى فاه بها ، أى نطق . مُضِبُّون : مقيمون ملتزمون ، وأضبَّ على الشىء : لازمه . مُؤاخذته : إنشاب الشرِّ معه ، وتواخذ الرجلان : آخذ كلُّ واحد منهما صاحبَه بضرب أو شتم . مُلِبّون : مجيبون . منابذته : متاركته ومهاجرته ، وقد نبذتُ الشىء ؛ إذا رميتَه من يدك . الاحتمال : الصبر على الجفاء . عَدُّوا : انصرفوا وتنحَّوْا . اللذع : إحراق القلب باللوم والعتب . والقَذْع : السَّبّ . نُلْغِز : نعمِّى الكلام ونُلبِّسه على السامع . المبرِّز : الغالب .

* * *

فسكن عند ذلك توقدهم ، وانحلت عقدهم ، ورضوا بما بها شرط عليهم ولهم ، واقترحوا أن يكون أولهم ، فأمسك ريثما يعقد شسع ، أو يشد نسع ، ثم قال: اسمعوا وقيتم الطيش ، ومليتم العيش ، وأنشد مُلغزاً فى مِروحة الخيش :

وجارية فى سيرها مشمعلة ... ولكن على إثر المسير قفولها
لها سائق من جنسها يستحثها ... على أنه فى الاحتثاث رسيلها
ترى فى أوان القيظ تنطف بالندى ... ويبدو إذا ولى المصيف فحولها

* * *

ريث ، أى بطء . شِسْع :شراكة النعل. أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن ينقطع شِسْع أحدكم إلا من ذنب عليه ، فليستغفر الله وليرجع فإنها مصيبة عرضت عليه» . والنِّسع: شراكة مضفورة على هيئة النعال ، ويشدّ بها الرَّحْل وغيره .

وُقيتم : كفيتم . الطيش : خفة العقل . مُلِّيتم : طُوّل لكم . الخيش . ثياب خشنة من الكتان ، وهذه المروحة تستعمل ببلاد العراق تكون شِبْه الشراع للسفينة ، وتعلّق من سقف البيت ، يشدُّ فيها حبل ويُدار بها مشيها ، وتُبلُّ بالماء وترشُّ بماء الورد ، فإذا أراد الرجل فى القائلة أو الليل أن ينام جَذَبها بحبلها ، فتذهب بطول البيت وتجىء ؛ فيهبّ على الرجل منها نسيم طيِّب الريح بارد فيذهب عنه أذى الحرِّ ويستطيب به النوم وهى فوقه ذاهبة وجائية ، ، ولذلك سَمَّاها جارية . ومُشْمعِلّة : سريعة الذهاب. قفولها : رجوعها . والسائق : الشريط الذى يسوقها إذا جُذبت به . يستحثّها : يستعجلها ، ومن جِنْسها ، أى هو من كَتَّان مثلها أومن قِنَّب . والاحْتِثاث : التَّعجيل . رَسِيلُها ، أى مرسلها ، ويرسَل معها لزاوية البيت ويرجع معها ، والرَّسِيل : الفرسُ يرسَل مع آخر

فى السباق . أوَان القيظ : وقت الصيف . تَنْطُف : تقطر ، ونطُف الماء: سال وقطر ، والندى : الرشّ الضعيف . وقُحُولها : يبسها . ولّى : أدبر ، وإذا ولّى الحرُّ لم يُحْتَجْ إليها ، فلا تُرَشُّ ولا تستعمل فتيبس . وللسرىِّ الموصلىّ فيها :

ومبثوثة فى كلِّ غربٍ ومشرقٍ ... لهـــا أمَّهاتٌ بالعراق بواطنُ[1]
يحرِّك أنفاسَ الرِّياح حراكُها ... كأنّ نسيم الروض فيهنّ كامنُ

وله أيضاً :

وخيش كما انجرَّت ذيولُ غلائلٍ ... مصندلة يختال فيها الكواعبُ[2]
وقد أطامتْ فيها الشمال وانثنتْ ... مُقَيَّدَةً عن جانبيها الجوانبُ[3]

ومِمَّا يكْتب على مروحة الكفِّ :

أنا فى الكفِّ لطيفَهْ ... مسكنى قصرُ الخليفَهْ
أنا لا أصلح إلا ... لظريفٍ أو ظريفَهْ
أو وصيفٍ حسن القدِّ شبيهٍ بالوصيفـــهْ

وفيها أيضاً :

إننى أجلبُ الرِّيا ... ح وبى يدفع الخجلْ
وحجاب إذا الحبيـــبُ ثنى الرَّأس للقُبَلْ

* * *

ثُمَّ قال : وَهَاكُمْ يا أولِى الْفَضْلِ ، وَمَرَاكِزَ الْعَقْلِ ، وأَنْشَدَ مُلْغِزاً فى حابول النَّخْلِ :

---

(١) لم أجدهما فى ديوانه .
(٢) ديوانه ٦١
(٣) الديوان « الجنائب » .

وَمُنْتَسِبٍ إلى أُمٍّ تنشَّأَ أَصْلُهُ مِنْهَا
يُعَانِقُهَا وقد كانَتْ نفتْهُ بُرْهَةً عَنْهَا
بِهِ يَتَوَصَّلُ الجانِي ولا يُلْحَى ولا يُنْهَى

* * *

قوله : هاكم ، أى خذوا . مراكز العقل : مواضعه ومحالّه ، كأنَّ العقل رُكِّزَ فيهم . والحابول : حبل يُصْعَد به على النخل يُعْمَل من ليفها ، وهو حبل يُعْقَد حَلْقة ، ويدخل فيها الرجل ويدرِّجه على النَّخلة شيئاً شيئاً عند طلوعه حتى يصير بأعلاها ، وحبل النخل ليس فيه شىء من الملاسة ولا فى النخلة ذلك ، فله بها استمساك ، ولذلك جعله معانقاً لها ، لأنه استدار بها ، وقيل له : حابول لأنه لا يُستعمل إلا للصُّعود على النخيل ، فَرْقاً بينه وبين الحَبْل المستعمل لكلِّ شىء ، ولمَّا كان يُصْنع من ليف النخل ، جعل النَّخلة أمه . برهة : زماناً . والجانى : الذى يجنى الثَّمَر ، ألغز به وأوهم أنه الذى يجنى جناية . يُلْحَى : يلام ويسبّ .

* * *

ثم قال : ودُونكُمُ الخفيَّةَ العَلَم ، المعتكرةَ الظُّلَمِ ، وأنشد مُلْغِزًا فى القلم :

ومأمومٍ بِهِ عُرِفَ الإمامُ كما باهت بِصُحْبَتِهِ الكرامُ
لَهُ إذْ يَرْتَوِى طيشانُ صادٍ ويَسْكُنُ حينَ يعروه الْأُوَامُ
ويُذْرِى حِينَ يُسْتَسْعَى دُمُوعاً يَرُقْنَ كَمَا يروق الإبتسامُ

* * *

قوله : العَلَم ، أى الرَّقْم فى الثوب ، فأراد أنها خفيَّة فى اللغز ، فعلمها الذى تُعْرَف به خَفِىَ . والمعتكرة : الشّديدة السواد . ومأموم : برأسه آمة ،

أى شجّة ، يريد الشقّ برأسه ، والإمام : أمير المؤمنين ، وجعله معروفاً بالقلم ، لأنّ القلم يبدِى أسرار الملك وأخباره فى كتبه . وقيل : الإمام الكتاب ، من قوله تعالى: ﴿يومَ نَدْعُو كلَّ أناسٍ بإمامِهِمْ﴾(١)، أى بكتابهم ، وقيل بنبيّهم ، ولا يمتنع أن يريد بالمأموم المتَّبِع ، وإمامه . الدِّهن الذى يملى عليه ، أو يد الكاتب به ، وقيل : سمّاه مأموماً ، لأنه يؤم القرطاس ، أى يقصده ويتبعه والإمام كتاب الله سبحانه وتعالى لأنه يُتَّبَع ويؤتمّ به ، ويُقتدى بما فيه . باهَتْ : افتخرت. والكرام : الكتبة لقوله تعالى: ﴿بأيدى سَفَرَةٍ * كرامٍ بَرَرَةٍ﴾(٢) ولا مرتبة أشرف من مرتبتهم بعد الإمرة ، ولذلك قال الصابى :

وقد علم السُّلطان أنِّى لسانُهُ ... وكاتبه الكافِى السَّديد الموفَّقُ(٣)
أوازِرُه فيما عَرَا وأُمِدُّه ... برأىٍ يُرِيه الشَّمْسَ واللَّيلُ أغْسَقُ
فيمناى يمناه ولفظىَ لَفْظُه ... وعينى له عينٌ بها الدَّهرَ يَرْمُقُ

طَيْشَان صاد ، أى جوَلان عاطش ، وطاش : خفّ . يَعْرُوه : يقصده . والأوامُ : العطش، يريد أنّ القلم إذا ارتوى بالمداد أسرع فى الكتابة وإذا جفّ توقف وأمسك . يَرُقْنَ : يُعْجِبْن.

ونظر المأمون إلى جارية تكتب ، فقال :

وزادَتْ لدينا حُظْوَةً حين أطرقتْ ... وفى إصْبَعَيْها أسمرُ اللون أَهْيَفُ
أصمُّ سميعٌ ساكنٌ متحرِّكٌ ... يَنَالُ جسيماتِ العلا وهو أعجَفُ

وقال العَلَوىّ :

إذا ما التقينا وانتضينا صَوَارِماً ... يكاد يصمُّ السامعين صَرِيرُهَا
تَسَاقط فى القرطاس منها بدائعٌ ... كمثل اللآلى نظمُها ونثيرُها

(١) سورة الاسراء ٧١
(٢) سورة عبس ١٦ ، ١٧
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٧

ثُمَّ قَالَ : وَعَلَيْكُمْ بالْوَاضِحَةِ الدَّلِيل ، الفاضحة ما قيل ، وأنشد مِلغزًا فى المِيل :

وما ناكِحٌ أُخْتَيْنِ جَهْرًا وَخُفْيةً ... وَلَيْسَ عَلَيْهِ فى النِّكاحِ سَبيلُ
مَتَى يَغْشَ هَذِى يَغْشَ فى الحال هذه ... وإن مال بَعْلٌ لم تَجِدْه يميلُ
يَزِيدهما عِنْدَ المشيبِ تَعَهُّدًا ... وبِرًّا وهذا فى البعول قليلُ

* * *

قوله: الواضحة ، أى البيّنة . الفاضحة ، أى المبدية لعيب ماقيل قبلها من اللغز . والمِيل : المِرْود. والأختين : العينين . ليس عليه سبيل ، مع أنَّ الجمع بين الأختين لا يجوز . يَغْشَ : يدخل لها . مالَ : عدل وزال عنها . والبَعْل : الزوج . تعهُّداً : تفقّداً . برًّا : إكراماً . يريد أنَّ الأبصار عند الكبَر يضعف نظرها فتحتاج إلى الكحل . وقيل : عبَّر بالمشيب عن مَرَهِ العين وهو فَسَادُها من ترك الكحل .

* * *

ثُمَّ قال : وهذه يا أولى الألباب ، معيار الآداب ، وأنشد ملغزًا فى الدُّولاب :

وجافٍ وهو موصولٌ ... وَصولٌ لَيْسَ بالجافى
غريق بارز فاعْجَبْ ... له من راسبٍ طافى
يَسُحُّ دُمُوعَ مهضومٍ ... ويهضِم هَضْمَ مِتْلافِ
وتُخْشَى مِنْهُ حِدَّتُه ... ولكِنْ قلبُهُ صافى

* * *

أولى الألباب ، أى أهل العقول . معيار : مقياس يعبَّر به ، وتقول: عايرت المكاييلَ ، إذا قستَ بعضها ببعض ، وساويتَ بينها . والدُّولاب : الناعورة . والجافى: الثقيل، يريد أنَّ الدولاب جافٍ فى نفسه وخلقته، وليس بجافٍ لسرعة حركته ودَوَرانه . وموصول : ليس من عُودٍ واحد . وَصُول ، يعنى للرياض بمائه ولهذه المنفعة صُنِع . قوله : ليس بالجافى ، يعنى إذا فارق الماء عاد إليه لا يجفوه ، والجفاء يكون فى الخلقة والخُلق ، يقال : رجل جافى الخلْقة ، أى غليظ ، وجافى الخلُق إذا كان كزًّا غليظ العشرة ،وجفا الشىء يجفو جفاء: لم يلزم مكانه ، وجفا جنبُه عن الفراش: لم يطمئنّ ، ويَجْفوه ، ضدّ يصله ، جَفوة : مرة واحدة ، وجفاء مصدر عام ، ورجل وَصولٌ : كثير الوصْل .

وقال الرَّصافى فى هذا المعنى فأحسن :

وذى حنينٍ يكاد شوقاً يختلِسُ الأنفس اختِلاَسَا[1]
إذا غدا للرياض جاراً قال له المحْلُ : لا مِسَاسَا
يبتسِمُ الرَّوضُ حين يَبْكِى بأعينٍ ما رأيْنَ باسَا
من كلِّ جفنٍ يسلُّ سيفاً صارَ له غِمْده رئاسَا

ولأبى الفضل بن الأعلم فى قواديس الساقية :

ونُسُكٍ كعبتهم حفرة مَنْ فارق الحفرة يبكيهَا
حتى إذا ما أنفدُوا دَمْعَهُمْ خرُّوا على رءوسهم فيها

وقال أعرابى فى ساقية :

باتت تحنُّ وما بها وَجْدِى وأحنُّ مشتاقاً إلى نَجْدِ
فدموعها تحيا الرِّياضُ بها ودموع عينى أحرقت خدِّى

قوله : غريق بارز ، يريد أن بعضه يَغْرَق فى الماء وبعضه يبرز منه ، وهو

(١) ديوانه ١٠٢

معنى راسب طافى ، لأنك تقول : رسبَ الشيء فى المـاء ، إذا هبط فى قعره وسَفُل فيه ، وطفا ، إذا ارتفع على وجه الماء . يسحّ : يصبّ . مهضوم ويهضم : ينقص . متلاف : مبذِّر للمال ، يريد كثرة أخذه للماء وإراقته له . حدّته : سرعة جريه ، لأنه إن نشب بأحدٍ فى جريه أهلكه . وقلبه صافى ، لأنه ليس من الحيوان فيعتقد شرًّا إن أحرج . ولابن سعد الخير البلنسىّ ن دولاب :

للهِ دُولابٌ يفيـــض بسلسلٍ ... فى روضـةٍ قد أينَعَتْ أفنانَا[1]
قد طارحتْه بهـا الحمائم شجْوَها ... فيجيبها ويراجـــع الألحانَا
وكأنه دنِفٌ يدور بمعهـــدٍ ... يبكى ويسأل فيه عَمَّن بانَا
ضاقت مجارى دمعه عن جفنِه ... فتفتَّحت أضلاعُـــه أجْفانَا

ولبعض أصحابنا :

وقدَّة الحسن فى محاسنِها ... للعين قيْـدٌ وللحجا شَرَكُ
تَبْـكِى فتبدِى حنين ذِى نسُكٍ ... بعـد التَّصابى وما بها نُسُكُ
إذا بكت فى الرِّياض من طرب ... بَدَا بوجـهِ الأزاهر الضَّحِكُ
كأنَّ ما انهلَّ من مدامعها ... رجومُ شُهْبٍ يُقِلُّهـا فَلَكُ

* * *

قال: فلمَّا رَشَقَ، بالخَمْسِ الَّتِى نَسَقَ ، قال: ياقوم تَدَبَّرُوا هذه الخمس ، واعْقِدُوا عليها الخَمْسَ ، ثُمَّ رَأْيَكُمْ وَضَمَّ الذَّيل ، أو الازْدِيَادَ من هَذَا الكَيْل .

قال : فاسْتَفَزَّتِ الْقَوْمَ شَهْوَةُ الزِّيادة ، على ما أُشْرِبوا من البلادة ، فقالوا : إنَّ وقوفَنَا دُونَ حَدِّكَ ، ليُفْحِمُنَا عن اسْتيراء زَنْدِكَ ، واسْتِشْفَافِ فِرِندِكَ ، فإن أتممت عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِك ؛ فاهْتَزَّ اهْتِزَازَ مَنْ فَلَجَ سَهْمُه ، وانخزلَ خَصْمُهُ .

(١) نفح الطيب ٣ : ٦٠٢

قوله : رَشَق ، أى رمى ، مأخوذ من رَشْق السهام ، يقال : رَشَقتُ رشقاً ، أى رَمَيْتُ ، والرِّشْق بالكسر : اسم للسهام ، وهو اسمٌ للهَدَفِ الَّذِى يرمونه . نَسَق : تابع واحداً بعد واحد ، وكلُّ شىء تبع بعضه بعضاً على السواء فهو نَسَق . ضَمّ الذيل : التشمير . الفنجديهى : ضمّ الذيل كناية عن الاكتفاء بهذه الأحاجى الخمس ، والسكوت عن طلب الزيادة ، يريد بالازدياد من الكيل ، أن يزيدهم من حسن الأحاجى .

واستفزّتهم : استدعتهم واستخفّتهم ، الزّجّاج فى قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ منهم بصوتِكَ﴾[1] أى استدعه لتستخفّه به إلى إجابتك ، واستفزّه : ختله حتى ألقاه فى مهلكة . أُشْرِبوا : سُقُوا ودُوخلوا وخولطوا ، وكلُّ لون خالط لوناً آخر فقد أشرِبَه .

والْبَلادَة : التَّحيِّر فى الأمر ، والبليد المتحيِّر : الذى لا يدرِى أين يتوجّه ، الأصمعىّ : البليد : الذى يضرب بإحدى بلدتيه على الأخرى من الغمّ عند المصيبة . والبَلْدَة هى الرَّاحة ، يقال : تبلَّد الرجل ، إذا تحيَّر وضرب بإحدى يديه على الأخرى ، يريد أنَّ البلادَةَ مَشَتْ فيهم وأُشرِبتهم .

* * *

ثُمَّ افتتح النُّطْقَ بالْبَسْمَلَةِ ، وأنشد مُلْغِزًا فى المزمّلة :

ومسرورةٍ مغمومةٍ طولَ دهرِها ... وما تَدْرِى ما السرور ولا الغَمُّ

تُقَرَّبُ أحياناً لأجـــل جَنينِها ... وَكَمْ ولدٍ لولاه طُلِّقَتِ الأمُّ

وتُبْعَدُ أحيـانًا وما حالَ عَهْـدُهَا ... وإبْعَادُ مَنْ لم يَسْتَحِلْ عَهْدُهُ ظُلْمُ

---

(١) سورة الاسراء ٦٤

إذا قَصُرَ اللَّيْـــلُ اسْتُلِذّ وصالها
وإن طالَ فالإعراضُ عن وَصْلِهَا نُعْمُ
لهَا مَلْبَسٌ بادٍ أَنيـــقٌ مُبَطَّنٌ
بِمَا يُزْدَرَى لَكِنْ لَمَا يُزْدرَى الْحُكْم

* * *

قوله : المزمَّلة ، أى الملفَّفة ، وقد زُمِّلت ، إذا لُفِّفتْ ، وهى آنية يُبرَّد فيها الماء ، شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتُغَشَّى بجلد أو ثوب مزيَّن ، حسنِ لنظر العين ، ومن تحته تلك الأغشية الخشنة الَّتِي لها السرّ والحكم فى تبريد الماء . ومَسْرورة ، أى محمولة على سرير ، وهم يجعلون تحتها مِرْفعاً من عود أو حديد ، تَرْتَفِع به عن الأرض فهو سريرها ، وكذلك رأيتُ خوابىَ الماء بسجِلْماسة ، كلها على أسرّة عود . وقيل مسرورة : مغمومة مغطاة ، وسرير الكمأة : ما غطاها من التراب . والغم : ضِدّ السرور . جنينها : ولدها ، أراد به الماء . وحال : تغيَّر . عهدها : التقاؤها وقربها . غُنْم : غنيمة . أنيق : مُعْجِب . يزدرى : يحتقر ، وأراد بالحكم معنى تبريد الماء ، وأراد أن ما بدا منها للناظر فهو غشاء حين يعجب مَنْ رآه ، وهو قد بطِّن بلفائفَ غِلاظٍ مستحقرة ، ولها معنى تبريد الماء ، وقال السرىّ الموصلىّ فى المزمّلة :

وحافظة ماء الحيـــاة لفتيةٍ حياتهُم أن تُسْتَلَذّ المشارب[1]
تسربُلُها أجْفَى اللبـاس وإنّما يليق بهـا أفوافُه والسباسب[2]
على جسدٍ مثـل الزَّبَرْجَد لم يزل يشاكلـه فى لونه ويناسب
إذا استودعت حُرَّ اللجين سبائكاً تصوَّب فى أحشائها وهو ذائب[3]

(١) ديوانه ٦١
(٢) الديوان : « السبائب » .
(٣) الديوان : « يصوب من اجسامها » .

فهذه القطعة وقطعة المقامة تدلّ على تفسيرنا ، وبه كان يفسر شيخنا ابن جهور رحمه الله ، حدّثنا بذلك شيخنا أبو بكر بن أزهر عنه . وأما الفنجديهى ففسر المزمّلة بتفسير غير مرضىّ ، وذلك أنه قال: المزمّلة موضع يغطّى ؛ ويحشى تبناً ، ويوضع فى وسط التّبن وعاء فى القيظ يُبقى الماء بارداً ، ويترك ثقبه فى وسط الموضع لدخول الجرة فيها ، ولهذا قال : «مسرورة» أى مقطوعة السرّة ، وهو من سُرّ الصبى ، إذا قطعت القابلة سُرّته .

* * *

ثُمَّ كَشَرَ عن أنيابه الصُّفر ، وأنْشَد مُلْغِزًا فى الظُّفْر :

وَمَرْهُوبِ الشَّبَا نامٍ وما يرعى ولا يَشْرَبْ
يُرَى فى العَشْرِ دون النَّحْـــرِ فاسْمَعْ وصْفَه واعْجَبَ

* * *

كَشَر : كشف . أنيابه : أضراسه . الصُّفر ، يريد أنه لا يتعهدها بالسِّواك ، فلذلك اصفرّت وتلك الصفرة تسمى القَلَح ، وقد قال فى السادسة والعشرين : «بحسن مُلَحِه وقبح قَلَحِه» . مرهوب: مخوف . الشَّبَا: الحدّ . نامٍ : زائد ، والظفر إذا تُرِك بغير تقليم طال . وما يرعى ، يريد أن نمو الخلْق وزيادته إنما هو بما يتغذى به من الأكل والشرب ، وهذا يكبر ويزيد من غير غذاء . والعَشْر فى الظاهر : عَشْر ذى الحجة . والنّحر : يوم النحر أى يوم العيد ، فأراد أن هذا المرهوب الشَّبا إنما يظهر فى العَشْر خَاصَّة ، فإذا جاء يوم العيد وطول السنة بعده لم يظهر ، وإنما يعنى بالعَشْر الأصابع . والنَّحر : العُنُق ، أى أنّ الأظفار خُلِقت فى الأصابع لا فى العنق ، أو يريد أن الظفر يرى فى الأصابع العشر فى عشر النَّحر من ذى الحجة .

* * *

ثُمَّ تخازر تخازُرَ العِفْرِيت ، وأنْشَدَ مُلْغِزًا فى طاقةِ الْكِبْرِيت :

وَمَا مَحْقُورَةٌ تُدْنَى وتُقْصَى وما مِنْهَا إذا فـكَّرتَ بُدُّ

لَهَا رأسانِ مُشْتَبِهَانِ جِدًّا وَكُلٌّ مِنْهُمَا لأخِيـــه ضِدُّ
تُعَذَّب إنْ هُمَا خُضِبَا وتُلْغَى إذا عَدِما الخِضَابُ وَلاَ تُعَدُّ

* * *

قوله : تَخَازر ، أى نظر بمؤخر عينيه مستقلا لذلك ، وهو نظر المحتقر لمن ينظر المنكر عليه . والعفريت : الشيطان المؤذى ، وهو الرئيس من الجن ، والكبريت ، معروف فارسىّ معرّبٌ . وطاقاته : قضبانه التى تجعل شيئاً على شىء وهو الوقود الذى يشعَل به المصباح . تُقْصى : تبعد . جدًّا ، أى كثيراً ، ويريد بالرأسَيْن طرفى قضيب الوقيد اللذين ينغمسان فى الكبريت ، وجعلهما ضدَّين لأن هذا فى طرف وهذا فى طرف ، فقد تباعدا وضدّ الشىء بعيد عنه ، وجعلهما متشبهين ؛ لأن شكل الطرفين وهما الرأسان شكل واحد . وخُضِبا : غمسا فى الكبريت . وتُلْغَى : تهجَر وتترك ، وقال ابن رشيق :

إنْ كنتَ تنكر ما منك ابتليتُ به فإنَّ بُرْءَ سقامى عزَّ مطلبُهُ[1]
أشِرْ بعودٍ من الكبريت نحو فمى وانظر إلى زفراتى كيف تُلْهِبُـه

* * *

ثُمَّ تَخَمَّطَ تَخَمُّطَ الْقَرْمِ ، وأنْشَدَ مُلْغِزًا فى حَلَب الكَرْم :

وما شىءٌ إذَا فَسَدَا تحوَّل غَيُّهُ رَشَـــدَا
وإن هو راق أوصافاً أَثَارَ الشَّرَّ حَيْثُ بدا
زَكِىُّ الْعِرْقِ وَالِدُهُ ولَـكِنْ بِئْسَ ما ولَدَا

* * *

قوله : تَخَمَّط ، أى تكبّر وتهيّأ للقول ، وأصل التَّخَمُّط للقرم ، وهو فحل الإبل ، وتخمَّط : تهيّأ للهدير وأخذ فى الصِّياح والهجوم على الإبل . وحَلَب الكَرْم ، أراد الخمر ، لأنها تُحْلَب من العنب . والحَلَب : اللبن المحلوب ، يقول :

(١) نقله ابن رشيق فى النتف ٧ ، ٨

الخمر إذا فسدت صارت خلا ، فخلّ استعمالها، فقد صارغيُّها وهو فسادها رشداً ، أى صلاحاً ، وقال أبو بكر بن القَبطُرْنة فى خمرٍ له فسدت فصارت خلاً :

أبا حسنٍ إنى فجِعتُ بصاحبٍ أنيس يسلّى الهمّ عنـــد احتلالِهِ
غدتْ بنت بِسطام بن قيس بدَنّهـــا وأمست كجسم الشَّنْفَرَى بَعْدَ خالِهِ

قوله : «غدت بنت بِسطام بن قيس »،أى صهباء ،لأن بسطام بن قيس يكنى أبا الصهباء . وقوله : « وأمست كجسم الشنفرى » ، أى خَلاً ، لأنه يريد قول الشَّنْفَرى[1] :

* إنّ جسمى من بعد خالِىَ خَلُّ *

أى مختلّ .

وقال آخر فى ذلك :

حَسِبْتُها بنتَ بسطامٍ لها أرجٌ ثم افتضضت ختاماً من أبى سَلَمَهْ

عرّض بأبى سلمة الخَلاّل .

ومن التعريض المركّب على هذا المعنى قول الشاعر :

شربتُ مـداماً تسرّ التريفاَ فأصبحت تجرّع خـــلا ثقيفاً[2]
وصرت حجازاً جديب المحَـلّ وقد كنت للطالب الخِصْب رِيفاَ

وقال آخر :

يا عُقاراً صار خـــلاً ومـــلاذاً للبعوضِ
سِرْ فما لى فيك حظٌّ كان ذا قبل الحموضِ
ما أبالى بعد أ كل الزّبد من طَرْح المخيضِ

قوله : راق أوصافاً ، أى حسنت أوصافه وحسنُها أن توصف بالرّقة والصفاء والحمرة والقِدَم وقوة الفعل ،يقول : فإذا كانت أوصافه معجبة أوْقَد الشر حيثما

(١) اللسان ــ خلل ، وصدره :

* فاسْقِنيَها يا سواد بن عمرو *

(٢) ط : « بت » .

حضر فإذا فسدت أوصافه صلح . زكىّ العِرْق : كريم الأصل ، والزكاء: النماء والزيادة، أى كثير الفضل والخير، وأراد أنها شجرة مباركة يكون منها العنب والزبيب والربّ ، ولكنها تلد ولد سوء ، وهو الخمر ، وأخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

فإن فخرتَ بآبائهمْ شرفٌ قلنا صَدَقْتَ ،ولكن بئس ما ولدُوا

أو يريد لذّة العنب .

* * *

ثُمَّ اعْتَضَدَ عَصَا التَّسْيَار ، وأَنْشَدَ مُلْغِزًا فى الطَّيَّار :

وذِى طَيْشَةٍ شِقُّهُ مائلُ وما عابَهُ بِهِمَا عاقِلُ
يُرَى أبدًا فوق عِلِّيَّةٍ كما يَعْتَلِى المِلِكُ العادِلُ
تساوَى لَدَيْهِ الحصا والنُّضارُ وَمَا يَسْتوِى الحقُّ والباطِلُ
وأعْجَبُ أوصافه إنْ نَظَرْتَ كما يَنْظُرُ الكيِّسُ الفاضِلُ
تَرَاضَى الخصومُ به حاكمًا وَقَدْ عَرَفوا أنَّهُ مائلُ

* * *

قوله : اعْتَضَد ، جعلها تَحْتَ عَضُدِه . التَّسْيار : السَّير . والطَّيَّار : ميزان معروف عندهم ، يرجِّحه أيسر شىء ؛ فلِخفَّته سُمِّىَ الطيَّار. وقيل : الطَّيّار . ميزان الدراهم المعروف عندهم بالقارسطون . الفنجديهى : الطيَّار : لسان الميزان .

طَيْشَةٍ خفة . شِقُّه : نصفه وجانبه ، فيريد بالظاهر : وذى حمق وخفة أصابه خَدَر وفالج ، فيبس جنبه فمال على الجانب الصحيح ، ومع ذلك لا يُرَى أبداً إلا فى مكان مرتفع عالياً كما يَفْعَل الملك ، والحجارة والذهب عنده سواء . والنُّضَار : الذهب ، ثم قال : وإذا نظرت إليه نظر كَيِّسٍ حاذق رأيت فى وصفه عجباً حين كان الناس يتراضوْن بحكمه مع معرفتهم بأنه ناقص الخِلْقة، لا يعدل فى

حكمه إنما هو ميّال مع أحد الخصمين . والعلّية : اليد التى يمسك عليها الميزان .

[بعض الألغاز]

وقال أبو نواس يلغز :

واسم عليه جُنَنٌ للصبا وضمّه للوصف دوّارُ
فضحتُ عنه سرَّ كتمانِه وكان من شأنىَ إظهارُ
يُحذَف أول مبتدأ لاسمه ثم يكون الوصف إضمار
فذاك عل فى لعلّ وفى قولك فى حارث : يا حار
فهو بحذف ذا وترخيم ذا أح لمن تلذعه النار

الاسم راحة ، يحذف أوّل حرف وآخر حرف ، ويبقى أح ، وهو من لذعته النار .

وقال آخر :

ويلى من الحبِّ وويلاَهُ مُلكِّ قلبى وتناساه
مَنْ ثالث العنبر بعضُ اسمه ورابع العنبر أولاَهُ
وقوله عند سؤالى له : ما فى اسمه والحافظ الله ؟

الاسم رعبلان . وأنشد ابن إسحاق النحوىّ :

حلف الحبيب علىَّ لاسميتُه فكنّيته وأطعتُ خوف تغاضبِهِ
ظبى إذا ما زارنى حلَّ اسمُه قلبى وذاك من عجيب عجائبِهِ
ويكون إن رخّمته وجزمته وقلبته ما تشتهى من صاحبه
ويكون بعد الجزم إن فكرت فى التّصْحيف مقلوباً أشدُّ معايبِهِ

الاسم فرجة . وأشـــدّ معايبه فرج ، وهو ما يشتهى من صاحبه ، إذا حذفت الهاء .

وقال ابن شرف :

ما آكلٌ يعطَى على أكلةٍ إعطاءَ إقلالٍ وإكثار[1]
لُقْمَتُه قيمتها وحدَها من غير خلفٍ ألفُ دينار

هو فرج المرأة .

وله فى المرآة :

ما يقول الشيخ فى شىء تراه ويراكا[2]
ثم لا تلقـاه إلا حين لا يلقى سواكا

وله أيضاً فى الإبرة :

ضئيلة الجسم لها فعل متين السَّبَب[3]
حافِرُها فى رأسها وعينها فى الذَّنَبِ

ولغيره فى الميزان :

وقاضٍ قد قضى فى الأرض عدلٌ له كفٌّ وليس له بَنَانُ
رأيتُ الناسَ قد قَبِلوا قَضَاهُ ولا نطقٌ لديه ولا بَيَانُ

وقال العلوىّ الأصبهانى يلغز فى النَّسر الواقع :

وركب ثلاث كالأثافى تعاوَرُوا دُجَا الليل حتى أو مضتْ سِنَةُ الفجر
إذا اجتمعوا سمَّيتَهُم باسم واحدٍ وإن فرِّقوا لم يُعرَفوا آخرَ الدَّهرِ

(١) يقله فى النتف ١٠١
(٢) النتف ١٠٦
(٣) النتف ٩٢

وأنشد الحاتمى فى الخفاش وهو طائر الليل :

أَرَى عُلَماء النَّاسِ لا يعرفوننى ... وقد ذهبوا لِلْعِلْمِ فى كلِّ مَذْهَبِ
بجلدةِ إنسان وصورة طائرٍ ... وأظفار يَرْبوعٍ وأنياب ثعلبِ

وأنشد فى الطائر وظله :

عجبت لطائرٍ فى الحوم طارَا ... وكانَا واحداً فاثنين صارا
فهذا طائر فى الجوِّ يهوِى ... وذا مستأنس لَزِمَ القَرَارا

وأنشدوا فى مصراع الباب :

عجبتُ لحرُوَمْينِ من كلِّ لَذَّةٍ ... يبيتان طولَ اللَّيْلِ يعْتَنِقَانِ
إذا أمسيا كانا على الناس مرصداً ... وعند طلوع الشمس يفترقانِ

وأنشدوا :

فما مَيْتٌ أحْيَاه الله مَيْتاً ... ليخبر قوماً أُنذِرُوا ببيانِ
وعجفاء قد قامتْ لتُنْذِرَ قومها ... وأهل قُراها رهبة الحدَثان

الميت الأوّل بقرة بنى إسرائيل ، والميت الثانى الذى ضرب ببعضها . والعجفاء نملة سليمان عليه السلام .

والألغاز أكثر من أن يأتىَ عليها الحصر .

* * *

قال : فظلّتِ الأفكارُ تهيمُ فى أوْدِيةِ الأوهام ، وتجول جَوَلاَنَ المستهام ، إلى أن طال الأمَد ، وحَصْحَصَ الكَمَد . فلمَّا رَآهُمْ يَزْنِدُون وَلاَسناَ ، ويَقْضُون النَّهَارَ بالمُنَى ، قال : ياقوم ؛ إلام تَنْظُرون ، وحَتَّامَ تُنْظَرُونَ ! ألَمْ يأنِ لكم اسْتِخْرَاجُ الْخَبِىّ ، أو اسْتِسْلاَمُ الْغبِىّ ! فقالوا : تاللهِ لَقَدْ أعْوَصْتَ ، ونَصَبْتَ الشَّرَكَ فقنصْتَ ؛ فتحَكَّمْ كَيْفَ

شيت ، وحُزِ الْغُنْمَ والصِّيت ، فَفَرَضَ عن كُلِّ مَعمًى فَرْضاً ، واسْتَخْلَصَهُ مِنْهُ نضًّا . ثم فتح الأقْفالَ ، ووسم الأغْفالَ ، وحَاوَلَ الإجْفالَ . فاعْتَلَقَ مِذْرَهُ الْقَوْم،وقال له : لا لُبْسةَ بَعْدَ اليوم . فاسْتَنْسِبْ قَبْلَ الانْطِلاَق ؛ وهَبْهَا مُتْعَةَ المطلاق ، فأطْرَقَ إطراقَ مُريب، ثم أنشد والدَّمْعُ مُجيب .

* * *

قوله : تهيم أى تتحيّر والهائم : الذى يركَبُ رأسه ويمشي على غير هداية . الأوهام : جمع وَهْم وهو ماتتوهمه وتتصوره فى نظر مسألة مشكلة ، إما خطأ وإما صواباً ، وأراد أن أفكارهم كانت تتحيَّر فى نظر ألفازه ولا تهتدى . تَجُول : تتصرَّف . المُستهام : العاشق الذى ذهب به الحبُّ كلَّ مذهب . حصحص : تبيَّن . الكمد : الحزن والهمّ . يَزْنِدُون ولا سَنَا : يقدحون الزَّند ، ولا يظهر لهم ضوء ، أى تضرب أذهانهم الألغاز ، فترجع بلا فَهْم . ويقضون : يقطعون يومهم بأمانيٍّ لا محصول لها .

[من أقوالهم فى الأمانى]

قال علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إيَّاك والمنى فإنها بضائع النَّوْكَى ، وتثبِّط عن الآخرة والأولى ، وأشرف الغنى ترك المُنى .

علىّ بن عبيدة الزنجانِى : الأمانىُّ مخايل الجهل .

وقال غيره : الأمانىُّ تخدعك وعند الحقائق تَدَعُك .

وفى ضدِّه : أفلاطون : التمنى حلم المستيقظ وسلوة المحروم .

غيره : الأمل رفيق مؤنس إنْ لم يبلِّغْك فقد أهلك .

قيل لأعرابىٍّ : ما أمتع لذات الدنيا ؟ قال : ممازحة الحبيب ، ومحادثة الصديق ، وأمانىُّ تقطع بها أيامك . وأنشد الثعالبىّ:

ولا تكن عبدَ المنى فالمُنَى رءوس أموالِ المفاليسِ

وقال مسلم بن الوليد :

وأكثر أفعال الغوانى إساءة ... وأكثر ما تلقى الأمانى كواذبا[1]

وأنشد أبو تمام فى ضدّه :

مُنًى إن تكن حَقًّا تكن أحسنَ المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغْدا

أمانىّ من لَيْلَى حِسَاناً كأنما ... سقتنى بها ليلى على ظمأ بَرْدَا

ابن المعتزّ يصف ساقياً :

فظلّ يُنَاجينى يقلّب طرفَه ... بأطْيَبَ من نجوى الأمانى وألْطَفَا

غيره :

عَلِّلينى بموعدٍ ... وامْطُلِى ماحييتِ بهْ

ودعينى أفوز مِنْـــكِ بنجوى تطلُّبِهْ

فعسَى يعْثُر الزَّما ... ن بخطّى فينقلبِهْ

قوله : تُنْظَرون ، أى تؤخَّرون . يأْنِ : يحِن ويقرُب . الحبىّ ، أى المخبوء المستور ، يريد ما خَبّأ لهم فى الشعر من اللّغز . استسلام : انقياد . الغبىّ ، أى الجاهل بالشىء . أغوَصْت : أتيت بعويص وهو الصّعب . الشَّرَك : آلة يُصاد بها . قَنَصْتُ : صِدْت . الغُنْم : الغنيمة والجائزة . الصِّيت : الذِّكْر الحسَن . يُنشر فى الناس ويَشيع . فَرْض : قِسْط . وأوجب : وألزم . والفرض : العطية . واستخلصه : جعله خالصاً . نضًّا : حاضراً . فتح الأقفال ، أى حلّ ألفاظ الألغاز وإلباسها وكأنّها لتعميتها كأنّ عليها أقفالاً ، فحلّها بتفسير . والأغْفال : جمع غُفْل ، وهو الشىء المهمل ليس له علامة يعرف بها . وَسَمَها : جعل لها علامة . حاولَ الإجفال ، أراد الفِرار ، وأجفل القوم : انهزموا . ومِدْرَه القوم : لسانهم وفصيحهم المتكلّم عنهم ، وأصل المدره المِدْفَاع ، وقد دَرَهْتُه ، إذا دفعتَه : لُبْسة : شبهة ، وقد التبس الأمر إذا أشكل ، ومُتْعة الطلاق ، أن يهب الرجل لامرأته

(١) ديوانه : ٣٠٥

شيئاً من ماله إذا طلّقها يسلّيها بذلك عن فراقه لها ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أكثر المتعة خادم ، وأقلها ثلاثون درهماً ، وقيل: أكثرها خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن. وهبها : احسبها، يقول : احسب انتسابك لنا مُتْعَةً وتسليةً لفراقك عنا. أطرق : أمال رأسه وسكت . مُريب : صاحب ريبة . والدّمع مجيب ، يريد أن إنشاده دعا دمعه فأجابه وقد قال أبو الطيب :

* أجاب دَمْعِي وما الداعى سِوَى طَلَلِ [1] *

يريد أنه لمّا وقف على الطلل وهو أثَرُ دارِ أحبابه هيّجه لهم فبكى ،فالطلل لمّا دعاه للتذكّر أجابه بدموعه .

* * *

سَروجُ مَطْلَعُ شمسى ورَبْعُ لَهْوِى وَأُنْسِى
لَـكِنْ حُرِمْتُ نعيمى بِهَـا ولَذَّةَ نَفْسِى
واعْتَضْتُ عنها اغترابًا أَمَرَّ يَوْمِى وَأَمْسِى
مَالِى مَقَـرٌّ بِأَرْضٍ ولا قرارٌ لِعَنْسِى
يوماً بِنَجْـدٍ ويوماً بالشَّأْمِ أُضْحِى وَأُمْسِى
أزجِى الزمان بقوتٍ مُنَغَّصٍ مُسْتَخَسٍّ
ولا أبيتُ وعنـدِى فَلْسٌ ،ومَنْ لِى بِفَلْسِ!
ومن يَعِشْ مِثْلَ عَيْشِى باع الحيـاةَ بِبَخْسِ

ثُمَّ إنَّه اخْتَبَرَ خُلاَصة النَّضّ ، وتَدَرضاربًا فى الأرضِ،فناشَدْناه أن يَعُود ، وأسْنَيْنَا له الوعود؛ فلا وأبيك مَا رَجَع ، ولا الترغِيبُ له نَجَع .

* * *

(١) ديوانه ٤ : ٧٤ ، وبقيته

* دَعَا فلبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ والإبِلِ *

قوله : مَطْلع شمسى ، يريد أن سَروج هى بلده التى نشأ فيها . ربع : منزل . اعْتَضْت : استبدلت . أمرّ : جَعَلهُ مُرًّا . مَقَرّ : إقامة . قرار : سكون وإقامة عَنْسى : ناقتى الوثيقة . نَجْد : ما ارتفع من الأرض ،وأنجد : أتى نجدا . والشأم : أخِذ من اليد الشؤمى . أُزْجى : أسوق . منغّص : مكدّر ، ويقال:نغَّص علينا فلان ، أى قطع علينا ما كنا نحبّ الاستكثار منه ، وكلّ مَنْ قطع شيئاً يحبّ الازدياد منه فهو منغّص . مُسْتَخَسّ : مستهجَن . بَخْس : نقصان .

اختبن : جعله فى خُبْنته : وهو طرف ثوبه ، والخُبْنة كالحُجْزة للإزرار ، والخُلاصة : ما خلص له منه وصفا . وندر : سبق ، وذهب يضرب فى الأرض إذا سار فيها ،وأصل نَدَرَ ، خرج وطار، مثل النّواة إذا طارت من تحت المرضِخ وشبهها . فناشدناه : حلّفناه . يعود : يرجع . أسْنَيْنَا : عَظَّمنا وجعلناها سنيَّة أى رفيعة . والوعود : جمع وَعْد ، وهو ما وعدوه به من المال . الترغيب : التطميع ، وقد رغّبته فى الشىء إذا زيّنته له وطمّعته فيه . ونجع : نفع ، وقد نجع عليه الطعام ، إذا أصلح عليه جسمه .

المقامة الثالثة والأربعون وهي البكرية

حكى الحارثُ بن همامٍ قال : هَفَا بِي الْبَيْنُ المُطَوِّحُ ، وَالسَّيْرُ المبرِّح ، إلى أرضٍ يَضِلُّ بِهَا الخِرِّيتُ ، وتَفْرَقُ فِيهَا الْمَصَالِيت ، فوجَدْتُ ما يَجِدُ الحائرُ الْوَحِيد ، ورأيتُ ما كُنْتُ مِنْه أَحِيد ؛ إِلاَّ أَنِّي شَجَّعْتُ قَلْبِيَ الْمَزْءود ، ونَسَأْتُ نِضْوِيَ الْمَجْهُود ، وسِرْتُ سَيْرَ الضَّاربِ بقِدْحَيْنِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلْحَيْنِ ؛ وَلَمْ أَزَلْ بَيْنَ وَخْدٍ وذَمِيل ، وإجازةِ ميلٍ بعد ميل ؛ إلى أن كَادَتِ الشَّمْسُ تَجِب ، والضِّيَاءُ يَحْتَجِب . فارْتَعْتُ لإظْلالِ الظَّلاَمِ ، واقْتِحامِ جَيْشِ حام ، وَلَمْ أَدْرِ أَأَكِفْتُ الذَّيْلَ وأَرْتَبِطُ ، أَمْ أعتمد اللَّيْلَ وَأَخْتَبِط !

* * *

هفا ، أى طار وخَفّ . المطوّح : المُبْعِد المُشْفِي على الهلاك ، وقد طوّحتُ الشيء ، إذا رميتَ به وألقيته إلقاء منكراً . المبرِّح : الشاقّ المتعب ، وقد برّح الأمر ، إذا عَظُم واشتدّ . يضلّ : يتحيّر ويتلف . الخِرّيت : الدليل ، وقيل : هو من خَرَتِ الإبرة كأنه من حسن دلالته يهتدى على مثال خرت الإبرة وهو ثُقْبها . تفرَق : تفزع . المصاليت : الشجعان الماضون فى الحروب ، واحدهم مِصْلات ، قال الفرّاء : المنصلِّت : المسرِع من كلّ شيء ، وجمعه مَصَالت ومصاليت . أحِيد : أخاف وأميل عنه . المزءود : المفزَّع ، وزئد الرجل : فزِع . نسأت : ضربتُ بالمِنْسَأة ، وهى العصا . نِضْوِى : بعيرى . المجهود : المُتعب . قدحَيْن : سهمين .

[الميسر والقداح]

وكان الرجل فى الجاهلية يُمسك ثلاثة أقداح ، على أحـدها مكتوب : « أمرنى ربى » ، وعلى الثانى « نهانى ربى » ، والثالث غُفْل لا شىء عليه وهو المَنيح ، فإذا أراد سفراً أو أمراً ضرب بها ، فإن خرج له « أمرنى ربى » مضى آمناً ، وإن خرج له « نهـانى ربى » ترك ذلك الأمر وإن خرج له غُفْل أعاد الضّرب .

وقيل : كان يمسك قَدَحين مكتوب على أحدهما « افعل » وعلى الثـانى « لا تفعل » ، فإن خرج « افعل » مضى ، وإن خرج « لا تفعل » ترك .

وقيل : كان لا يمضى حتى يخرج له « افعل » ثلاث مرات ، ولا يترك المضىّ حتى يخرج له « لا تفعل » ثلاث مرات ، فإن خرج له مرة « افعـل » ومرة « لا تفعل » ولم يخلص له أحـدها ، فإن مضى فى ذلك الأمر مضى وهو يرجو ويخاف ، وهذا هو الذى أراد الحريرى لأنه كان بين الرجاء والخوف .

ولما قُتِل حجر أبو امرئ القيس ، أخذ امرؤ القيس أزلاَمه وهى القِدَاح ، وأتى ذا الخُلْصة ـ وهو صنم لدوس وخثعم وبَجيلة ـ فاستقسم عندها بالأزلام فخرج له القِدْح الذى يكره ، فأخذ الأزلام وكسرها وضرب بها وجه صَنَمِها ، وقال :

لو كنتَ ياذا الخَلَص الموتُورا[1]
مثلِى وكان شيخُك المقبورا
لم تنه عن قَتْلِ العداة زُورَا

وحكى الفَنَجديهىّ ، قال : الضارب بقِدْحين ، يعنى به قول النـاس : إمّا الغُنْم ، وإمّا الغُرْم ، وإمّا المُلْك وإمّا الهُـلْك قال الشاعر :

---

(١) الرجز فى معجم البلدان ٣ : ٤٥٨

ضربتُ بهـا البيت ضَرْب القِدَا ح إما لهـذا وإمَّا لذا[1]

والقِدْح : السهم قبل أن يُراش ويركَّب نَصْلُه.

وحكى ابن ظَفَر أن الأزلام سبعة قِدَاح ، مكتوب على أحدها « نعم » وعلى الآخر « لا » وعلى قِدْح « منكم » وعلى قِدْح « من غيركم » وعلى قِدْح « مُلْصَق » وعلى قِدْح « العقل » ، وعلى قِدْح « فضل العقل » . وكانت بيد سادن الأصنام ، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم، فيسأل الصنم أن يوضّح له ما سأل عنه، ثم يَضرب بالقِدَاح ، فإن أتى سائل عن تزويج أو سفر أو شبه ذلك مما يستشار فى مثله ضَرَب له بالقِدْحين اللذين عليهما نعم ولا ، فإن خرج « نعم » مضى على فعله وإن خرج « لا » ترك ذلك . فإن انتسب رجل إلى قبيلة ضرب له بالأقداح الثلاثة التى فيها « منكم » « من غيركم » « ملصق » فإن خرج « منكم » أضافوا نسبه إلى أنفسهم ، وإن خرج « من غيركم » كان حليفاً وإن خرج « ملصق » لم يكن له حلف ولا نسب . فإن أتى سائل عن قتيل أو جناية ضرب بالقِدْحين اللذين عليهما العقل ،فإن خرج على قوم « العقْل » برىء منه الآخرون ، وإن عقلوا ففَضَل شىء ، فإن اختلفوا فيه ضرب بالقِدْح الذى عليه فضل العَقْل ، فإن خرج عليه أدَّاه .

ومعنى الاستقسام بها الرِّضا بالقسمة بينهم من الأمر والنهى والبراءة والوجوب.

وسهام الميسر عشرة : ثلاثة يُتكثَّر بها لا أنصباء لها ، وسبعة لها أنصباء ، فأوَّلها الفَذّ ، وفيه فرضة واحدة وله نصيب واحد ، والثانى التوءم وفيه فرضتان وله نصيبان ، ثم الرقيب وفيه ثلاث فُرُض ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحِلْس بأربع، والنافس بخمس ، والمسبل بست ، والمعلّى ، وهو أعلاها بسبع فرض وعلى عدد الفرض هى الأنصباء . وقال ابنُ لُبَّال فجمعها فى بيت :

(١) انظر الميسر والقداح ٥٦ ، ٥٧.

فذٌّ وتوءم والرقيب ونافسٌ والخِلس ثمَّت مُسبلٌ ثم المعـلُّ

واسم الثلاثة الَّتى يُتكثَّر بها : الفسيح والمَنيح والوغد ؛ فإذا أرادوا الضَّرْب بها طلبوا أوَّل رجل يَلْقَوْنه ، فشدُّوا عينيه ، ويسمّونه الحرضة ، وأقاموا له الرقيب وضُرِب ، فكلَّما خرج له قِدْحٌ دفعه إلى الرقيب ، والرقيب هو الأمين على الضَّرب بالقِداح ، قال الشاعر :

لها خلف أذنابها أزمل مكان الرقيب من الياسر

وكان أهلُ اليسار والجود من الجاهليَّة عند شدَّة الزمان ، ينحَرُون الجُزُور ويَقْتَسِمُونها ويضربون عليها بالقِداح ، فمَنْ قمَرَ[1] جعل نصيبه لأهل الميسر ، والقمار يُكنَى عنه بالميسر ، وأصل المَيْسِر موضع تُنْحر به الجُزور ، والياسر : الجَازر ، وتقسم الجُزور عشرة أجزاء : العَضُدان فى الكتفين جزآن ، وهما ابنا ملاط ، والعَجُز والزَّوْر جزآن ، والكاهلُ واللحاء عليهما الجنب بنصفين جزآن ، والوِرِكان عليهما الذِّراعان جزآن ، والفَخِذان وعليهما العُنُق مقسوما جزآن . وبقى جَنْب ، وهم يستثنونه وقد لا يستثنونه ، فيردُّ منه على جزء الكاهل ضلعان وعلى سائرها ضِلَع ضلع ، فإن فضلت قطعة أو عَظْم سُمِّىَ الزِّيم ، قال الشاعر :

وكنت كعظم الزيم لم يدر جازرٌ على أىِّ أدنى مقسِمُ اللَّحم يجعلُ

وقال الأصمعىُّ فى الميسر : إنَّه شىء كانت الجاهلية تفعله ، فليس عندنا منه حقيقة .

قوله : المستسلم للحَيْن ، أى المنقاد للهلاك . الوخد : نوع من السَّير وهو أن ترجُمَ الأرضَ بقوائمها لسرعة سيرها . والذَّمِيل : سيرٌ ليِّن . تجب : تسقط للغيب .

---

(١) قمر ، اى غلب .

ارتعت : فزعت . لإظلال : لقُرْب ودُنوّ . اقتحام : دخول الشيء على غَرَر . وحام، هو ابن نوح وقد تقدَّم فى الحادية والعشرين، وأراد بجيش حام ظلامَ الليل، لأنَّ حاما أبو السُّودان ، أكْفِت : أقبضه وأشمِّره . أرتبط : أربط بعيرى . أعتمد : أقصد : أختبط : أمشى على غير هداية ، وأراد أنه لا يدرى ما يفعل، أينزل ويبيت ، أم يسير فى الليل على غرَر .

* * *

وَبَيْنَمَا أنا أُقَلِّب الْعَزْمَ ، وَأَمْتَخِضُ الْحَزْمَ ، تَرَاءَى لى شَبَحُ جملٍ ، مُسْتَذْرٍ بِجَبَل ، فترجّيتُهُ قُعْدة مُرِيح ، وَقَصَدْتُه قَصْدَ مُشِيح ؛ فإذا الظَّنُّ كَهَانة ، وَالْقُعْدَةُ عَيْرَانة ، وَالْمُرِيحُ قَدِ ازْدَمَلَ بِبِجَادِه ، واكْتَحَل بِرُقَادِه ، فجلستُ عِنْدَ رَاسِه ؛ حَتَّى هَبَّ مِنْ نُعَاسِه ؛ فلمَّا ازْدَهَرَ سِرَاجَاه ، وَأَحَسَّ بِمَنْ فَاجَاه ، نَفَرَ كَمَا يَنْفِرُ الْمُرِيب . وقال : أَخُوكَ أم الذِّيب ! فقلتُ : بَلْ خابِطُ ليلٍ ضَلَّ المسلك ، فأَضِئْ لِي أَقْدَحْ لَك . فقال : لِيَسْرُ عَنْكَ هَمُّك ، فَرُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّك . فَانْسَرَى عِنْدَ ذلِكَ إشْفَاقِي ، وَسَرَى الْوَسَنُ إلى آماقِي ، فقال : عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى ، فَهَلْ تَرَى كَمَا أرى !

* * *

العزم والحزْم : اجتماع رأى الرجل على ما يريد أن يفعله فلا يتردَّد فيه . أمتخض : أحرِّك وأحلب ، وأراد أنه أخذ يحدِّث نفسه ويُدبِّر رأيه : هل يسرى أو يقعد . تراءى ، أى ظهر . مستذرٍ : مستعلٍ ، والذروة أعلى الشيء ، أراد أنه ظهر له شبح جمل، أى شخصه فى أعلى جَبل . قُعدة : بعير يُقْعَدُ عليه عند الركوب . مريح : مستريح ، قد نزل يريح نفسه وبعيره . مشيح : مُجِدّ . والقُعدة : المركوب . والعَيْرانة : الناقة الصلبة تشبَّه بالعَيْر، وهو حمار الوحش .

وازْدَمل : التفّ . ببجاده : بكسائه . هبّ : انتبه . ازدهر : انفتح وأضاء . سراجاه : عيناه . فأجاه : أتاه على غفلة . المريب : الذى أتى ريبة . أخوك أم الذيب[1] ، مثل ، كأنه خاطب نفسه ، فقال : أأخوك هو الذى رأيت أتى لمؤانستك أم ذئب لإذايتك ، وتضمّن الكلام أن الاستفهام وقع بالذى رآه ، فكأنه قال له : يا هذا ، أأخ أنت أم صاحب فأركن إليك أم عدوّ فأحذرُك ؟ فأجابه بأن قال له : بل خابط ليل ، أى ماشٍ فيه على جهالة . ضلّ المسلك : أخطأ الطريق . أضىء لى : اكشف لى عن حالك . أقدح لك : أكشف لك عن حالى ، وهذا أيضاً مَثَل ، وفى هذا التباس ؛ لأنه إذا أضاء له ، أى أعطاه ضوءه أو أظهره له ، فأىّ حاجة له فى القَدْح ، وهو الضرب بالزَّند ليخرج ناره ، وإنما معناه أن رجلاً كان طلب لآخر ضوءًا مثل فتيل يوقده ، فتخيّل من صاحبه أنه لا يعطيه ، فقال له : أضىء لى ، أى أعطنى ضوءًا فليس عليك فيه تكلّف فإنك أن أتيتنى فى مثلها فلم تجد لى ضوءًا قدحت لك زندى ، وتكلفت لك ذلك ، ثم استعمِل فيمن يطلعك على أمره فتطلعه من أمرك على ما هو أفيد ممّا أطلعك عليه ، فمعناه أطلعنى على ظاهر أمرك أطلعك على باطن أمرى . ويروى : « أكدح لَك » قال أبو زيد : إذا طلب الرّجل إلى الرجل حاجة فلم يعرف وجهها ، قال : أضىء لى أكدحْ لك ، أى بيّن لى فأكدح لك ، أى أسعى لك ، وكدح لمعيشته : سعى واكتسب ، وأضىء : أسرج .

الفنجديهىّ : أضىء لى أكدحْ لك ، مثل يضرب فى المساواة بالأفعال ، والمعنى : كن لى أكن لك ، واسعَ لى أسع لك ، والمراد به كُنْ لى أكثرَ مما أكون لك لأن الإضاءة أكثر نفعاً من القَدْح ، ويقال : معناه : تولَّ الأمر الهيّن أتولّ الأمر الصعب . لِيَسْرُ : لِيَزُل وليذهب . سَرَى عِرْق الشجرة يسْرِى : دبّ تحت الأرض ، وسرى يَسْرى سار .

(١) الميدانى ١ : ٥٠ ، قال فى شرحه : أى هذا الذى تراه أخوك أم الذئب ، يعنى أن أخاك الذى تختاره مثل الذئب فلا تأمنه ، يضرب فى موضع النهارى والشك .

[أصل المثل : ربّ أخ لم تلده أمك]

رُبّ أخ لك لم تلده أمك ، معناه قد وجدتَ منى صديقاً يقوم لك مقام شقيقك ، وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى امرأته قد خلا بها رجُلٌ وهى تلاعبه ويلاعبها ، ومعها صبيٌّ صغير يبكى ، وهما قد أقبلا على شأنهما لا يكترثان به ، فسألها عن الرّجل ،فقالت : هو أخى ، فقال ربّ أخٍ لك لم تلده[1] أمك ، يكذّبها فى قصدها أى هو أخوك بالمحبّة والصداقة لا بالولادة . وقال فى الدُرّة : حكى ابن نصر[2] الكاتب أن أبا العباس ابن ياسر[3] دخل عليه ، رجل نصرانىّ ومعه فتى من أهل مِلّته حسن الوجه ، فقال له : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال له : بعض أخوانى ، فأنشد أبو العباس :

دعتنى أخاها أمُّ عمرو ولم أكنْ ... أخاها ولم أرضع لهـا بلِبانِ
دعتْنى أخاها بعـد ما كان بيننا ... من الأمر ما لا يصنع الأَخوَانِ

وقالوا فى هذا المعنى : ربّ بعيدٍ أقربَ من قريب ، وقالوا : القريب مَنْ قَرُب نفعه ، وقال أبو تمام :

ولقد سَبَرْت الناس ثم خبرتُهمْ ... وبلوت ما وصفوا من الأسباب[4]
فإذا القرابة لا تقـرّب قاطعاً ... وإذ المـودّة أقرب الأنسـاب

وقال ابن ميادة :

وإنّى لزوّار لمن لاَ يزُورنى ... إذا لم يكنْ فى ودّه بمريبِ
تقرّب لى دار الحبيب وإنْ نَأَتْ ... وما دارُ من أبغضته بقريبِ
فلا تطلبنّ القربَ والبعدَ بعدَها ... إلى غير نيّاتٍ وغـير قلوب

---

(١) الميدانى ١ : ٢٩ ، ٣١
(٢) درة الخواص : « فى كتاب المفاوضة » .
(٣) درة الغواص : « أبو العباس بن ماسرجس » .
(٤) العقد لابن عبد ربه ٢ : ٣١٤ ونسبهما الى أبى تمام وفى ٢ : ٣٢٨ من غير نسبة ■

وقال آخر :

أخو ثقة يُسَرّ ببعض شأنى وإن لم تُدْنِهِ منّى قرابَهْ[1]
أحَبُّ إلىّ من ألْفىْ قريب بنات قلوبهمْ لى مُسْتَرَابَهْ

وقال ابن هَرْمة :

هشٌّ إذا وقف الوفودُ ببابه سهل الحجاب مؤدَّب الخدّام[2]
فإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيُّهما أخو الأرحام

انسرى : زال وذهب ، وسرْوتُ الثوب عنى إذا جردته . إشفاق : خوف . سَرَى الوسن : أقبل النوم . آماق : آخر عينى ، والمُوقُ طَرَفُ العين من جهة الأنف .

[أصل المثل : عند الصباح يحمد القوم السرى]

قوله : عند الصباح يَحْمَد القوم السرى مثل ؛ ومعناه إذا سرى القوم بالليل قطعوا أرضاً كثيرة والأرض تُطْوَى بالليل لمن يمشيها فإذا أصبحوا حمِدُوا سيرَهم .

وهذا المثل بيت منْ رجزٍ وَقَع فى شعر الشّماخ ، وذلك أنه سافر فى قوم من بنى ثعلبة ، فمشوا حتى إذا كانوا قريباً من تَيْمَاء ، قال الشماخ لابن أخيه : انزل فاحدُ بنا ، فنزل فحدَابهم ثم نزل القوم للحُداء واحداً بعد واحدٍ ، فوقعت أرجيزُهم فى ديوان الشّماخ ، فنُسِبَتْ إليه ، وأول الرجز :

---

(١) العقد ٢ : ٣١٤ من غير نسبة .

(٢) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٢ : ٨٠٨ ونسبهما الى محمد بن بشير الخارجى وذكر قبلهما :

نعم الفتى فَجَعتْ به إخوانَهُ يومَ البقيع حوادثُ الأيام

والابيات ايضا فى العقد ٢ : ٣١٥ مع اختلاف فى الرواية .

طَافَ خَيالٌ من سُلَيْمَى فاعْتَرَى[1]
بنجدٍ اوْ تيماء أو وادِى القُرَى[2]
فمَنَعَ النَّوْم وَمَـــنَّى بالمُنَى

وفى آخره :

عِنْد الصَّباحَ يحْمَد القومُ السُّرَى
وَتَنْجلِى عنهمْ غَيابَاتُ الْكَرَى

قال المفضّل الضبىّ : أوّل مَنْ قال ذلك خالد بن الوليد ، لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه وهو باليمامة أن ينزلَ إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائىّ : قد سلكتُها فى الجاهليّة ، وهى خَمْسٌ للإبل الواردة ، وما أظنُّك تقدِر عليها إلاّ أن تحمِل من الماء ، فاشترى مائة شارِف[3] فعطّشها ثم سقاها الماء حتى إذا مضى يومان خاف العطش على النّاس والخيل ، وخشِىَ أن يذهب ما فى بطون الإبل ، نحرها ، واستخرج ما فى بطونها . فسقى النّاس والخيل ومَضَى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا ، هل ترَوْن سِدْرًا عظيماً ؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوها فأخبروه فكبّر وكبّر الناسُ ثم هجموا على الماء فقال خالد :

(١) ديوانه ٣٧٧ ــ ٣٨٤ وبعد هذا البيت كما فى الديوان :

حَنّتْ وقالت بنتُها حتّى متَى
تُبشَّرى بالرِّفهِ والمـــاء الرّوَى

(٢) رواية الديوان :

بثَجْرَ أو تَيْمَاء أو وادِى القُرَى
فمَنَـــع النومَ ومنّانا المُنَى

(٣) الشارف : المسن .

لِلّه دَرُّ رافعٍ أنّى اهْتَدَى[1]
فوّز من قراقر أنّى سَرَى
خِمْساً إذا سار بها الخِيسُ بكَى
ما سارَها من قبله إنسٌ سَرَى
عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى

ويقال : فوّز إذا ركب المفازة . وقراقر : اسم قرية من اليمن . والخِيس : الجبان الضعيف ، وقيل : الثَّقيل . قال أبو عبيدة : والخِمْس أن تشرب الإبل يومَ وردها وتُصْدِر يومَها فتظلُّ بعد ذلك اليوم من الماء ثلاثة أيام سوى يوم الصدر ، وتردُ اليوم الرابع فذلك الخِمْس .

* * *

فقلت إنّى لَكَ لأطْوَعُ مِنْ حِذَائك ، وأوْفَقُ من غذائك ، فَصَدَعَ بمحبّتى ، وبَخْبَخَ بِصُحْبَتِي ، ثُمَّ احْتَمَلْنَا مُجِدَّيْنِ ، وارْتَحَلْنَا مُدْلِجَيْنِ ، ولم نَزَلْ نُعَانِي السُّرَى ، ونعاصِي الْكَرَى ؛ إلى أن بَلَغَ اللَّيْلُ غايَتَهُ ، وَرَفَعَ الْفَجْرُ رايتَه .

فلمّا أسفر الْفَاضِح ، ولم يَبْقَ إلاَّ واضح ، تَوَسّمتُ رَفيقَ رِحْلَتِي ، وسَمِيرَ ليلتى ، فإذا هو أبو زيدٍ مطلبُ النَّاشِد ، ومَعْلَمُ الرَّاشِد ، فتهادينا تحيَّة المحِبَّيْنِ ؛ إذ التقينا بَعْدَ الْبَيْن ، ثُمَّ تباثثنا الأسْرَار ، وتناثثنا الأخْبار ، وبَعِيرى يَنْحِطُ من الْكَلاَل ، وراحلتُه تَزِفُّ زفيف الرَّال ؛ فأعجبنى اشْتِدَادُ أَسْرِها ، وامتدادُ صبرها ؛ فأخذتُ أستشِفُّ جَوْهرها ، وأسأله من أين تَخَيَّرها .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٤١٦ ونسبها الى شاعر من المسلمين .

فقال : إنَّ لهذِه النَّاقة خبراً حُلْوَ المذاقة ، مليح السِّياقة . فإن أحببتَ استماعه فَأَنِخْ ، وإنْ لم تشأ فلا تُصِخْ .

* * *

قوله : حذائك ، أى نعلك . صَدَع : كشف وأظهر . وبخبخ : قال : بخ بخ ، وهى كلمة تقال عند الإعجاب . مُجدّين : مُجْتهدين . مُدْلِجَيْن : ماشيَيْن باللَّيْل . نعانى : نقاسى . الكرى : النوم . رايته ، أراد ضوءه . أسفر : أضاء . الفاضح : من أسماء الصبح سمِّىَ بذلك لأنه يفضَح الأشياء ، أى لا يظهرُها . واضح : بيّن ، يريد أنّ الصبح كشف ماستره الليل فاستبان كل شىء . توسّمت : نظرت . الفنجديهى : واضح : نجم ، والنجم الّذى يُرى بعد الصُّبح مضيئاً فى كثير من الأوقات وهو الزُّهرة . ابن سيده : الواضح : الكواكب الخمس ، إذا اجتمعت مع الكواكب المضيئة من كواكب المنازل . والخنَّس : الراجعة والمتأخرة والمُنْقَبضة . رحلتى : ارتحالى . والسمير : محادِثُكَ باللّيل . مطلب الناشد ، أى حاجة الطالب الّتى تلفت له ، فجعل يطلبها . مَعْلم الرّاشد : دليل الهادى ، والمعلم : الجبَل يُعْلم به الطريق . فتهادينا تحيـة المحبين ، أى أهديته سلام محبٍّ أهدى لى مثلَ ذلك . تباثثنا : تكاشفنا ، أى كشفتُ له سِرِّى وكشف لى سرَّه . تناثثنا : تفاشينا ، أى أفشيتُ له خبرى وأفشى لى خبَرَه ، والبثّ أصله التّفريق ، والنّث بالنون : أصله نشر الحديث وإفشاؤه . الفنجديهى : تناثثنا : تذاكرنا ، والنَّثّ : الذِّكْر ونَثَوْت الذِّكْر ونَثَوْت الحديث ، أنثوه ، إذا أذعتَه وأفشيتَه . ابن الأعرابىّ . النثاء فى الحسَن والقبيح من الكلام ، وقيل : النّثّ : نشر الحديث الذى كَتْمُه أوْلَى من نشره ، وفى معنى هذا اللقاء قال المعرىّ :

وَلَوْ لم أَلقَ غيرَك فى اغترابى لكان لقاؤك الحظَّ الجزيلا[1]
سَتَحْمِلُ ناجباتُ العيسِ منِّى صديقًا عن ودادك لن يَحُولَا
يؤمّل فيك إسعافَ الليالى وينتظر العواقب أن تُديلَا

ينحِط : يزفِر ويتنفّس من شدّة التعب، والنَّحْط : خروج النَّفَس بصوت، وهو صوتٌ يعترى المهموم والمتعوب من صدْره بتوجع، وقد نَحَطَ ينحَط نَحطًا ونحيطًا، والنّحيط يعترى الدّابة إذا كَلَّتْ أو زيد فى حملها، فتسمع لها زفيراً بصوت، فذلك هو النَّحيط ، وقد نحطَ القَصَّار إذا ضرب بالثوب على الحجر وتنفّس ليكونَ أرْوَح له . تزفّ : تُسرِع . والزفيف : مشى فى سكون مُتتابع . والرأل : فَرْخ النَّعامة والجمع الرِّئال . أسرها : قوّتها وشدّة خَلْقها . امتداد : طول . أستشِف : أنظر . جوهرها : خَلْقها وجوهر كلّ شىء : ما وُضِعَتْ عليه جِبِلّتُه . أنخ : حُطّ بعيرك وانزل . تُصخ : تستمع .

* * *

فأنخْت لقوله نِضوى ، وأَهْدَفتُ السَّمْعَ لما يَرْوِى ، فقال : اعْلَمْ أنِّى استعرضْتُها بحضْرَمَوت، وكابَدْت فى تحصيلها الموْت، ومازِلْتُ أجوبُ عَلَيْهَا البُلدان ، وأَطِسُ بأخفافِهَا الظِّرّان ؛ إلى أَنْ وجدتُهَا عَبْر أَسْفَار ، وعُدَّة قرَار ، لا يلحقُها العَنَاء ، ولا تُرَاهقُها وَجْنَاء ، ولا تَدْرى ما الهِنَاء . فأرصدتُهَا للخير والشرّ ، وأحللتُها محلَّ البرِّ السّرّ ، فاتّفق أن نَدَّت مُنْذ مُدَّة ، ومالِى سواها قُعْدَة، فاستشعَرْتُ الأسَف ، واستشرفْتُ التَّلَف ، ونسيتُ كلَّ رزءٍ سَلَف، ومكثْتُ ثلاثًا ، لا أستطيع انبعاثًا ، ولا أَطْعَمُ النّوم إلا حِثاثًا ، ثمّ أخـذتُ فى استِقْرَاء المسالِك ، وتفقّد

(٥) سقط الزند ١٠١ ١٤

المَسَارح والمبارك ، وأنا لا أستَنْشِي منها ريحاً ، ولا أستَغْشِي يأساً مُريحاً ؛ وكلما ادّكرتُ مَضاءها فى السَّير ، وانبِراءها لمباراةِ الطير ، لاعَنِي الادّكار ، واستهوتْنِي الأفكار .

* * *

نضوى: بعيرى المهزول . أهدفت: جعلتهُ غرَضاً يَقَع فيه كلامه . والسَّمع: الأذن . والهدَف : الغَرَض تَرْمِى عليه . استعرضْتُها : طلبتُ أن تعرَض علىّ للبيع . حضرموت : كُورة من كور اليمن فيها مدائن ، وتعمل بها النعال الحضرميّة وهى غاية فى الجودة . كابدت : قاسيت . أجوب : أقطع . أطس : أكسر . والوطْس : الوطء الشديد المؤثر . الظرّان : واحدها ظَرَر ، بظاء منقوطة وراءين ، وهى الحجارة العريضة ، وقيل المحدّدة . عبر أسفار : أى قويّة على السَّفَر كأنها تُعْبَر بها المراحل ، أى تقطع ، وأصلُه عَبَرْت فى النهر إذا جزته من جهة إلى جهة أخرى . فِرار ، أى قد استعدّت للفرار والهرب . العَناء : التعب . تُرَاهقها : تدانيها وتقاربها ، وقد أرهقتُ الرّجُلَ ، إذا دانيتَه ، وذلك أن يذهب أمامَك فتتبعه ، فإذا قرُبتَ منه قلت : رهقتُه ، فإذا أدركتَه قلت : أرهقتَه : ورواية ابن جهور « تُوَاهقها » بالواو ، ومعناها تواظب على المشى معها ، والمواهقة : المعارضة فى السير . وجْناء : ناقة قويّة غليظة . والوجِين : ما صلُب من الأرض ، وقيل : الوجناء: العظيمة الوجَنَات . والهِناء : القَطِران ، أى ليس بها داء فتحتاجَ إليه فهى لا تعرفه . أرصدتها : أعددتها . البَرّ : الذى يُبَرّك ويكرمك . والسَّرّ : ما يسرّك : ندّت : فَرّت وشَرَدَتْ . استشعرت : لبست . الأسف : الحُزْن . استشرفت التلف : عاينت الْهَلَاك ونظرته ، واستشرفت فلاناً إذا رفعتَ رأسك لتنظرَ إليه ويدُك على حاجبك . والرُّزء : فقد الشىء . سلف : مَضَى . مكثت : أقمت . انبعاثاً : نهوضاً وخروجاً إلى السفر .

حِثَاثًا : قليلا، والحِثاث: أن يصيبك النّومُ ثم يزول عنك فى الحال ، ويوصف به فيقال : يوم حِثاث ، أى قليل . والطعم : الذوق . استقراء : تَتَبّع . والمسالك : الطُّرُق . المسارح : المراعى وحيث تسرح الإبل . والمَبارك : مراقد الإبل حول الماء . استنشاء الريح : شَمّها ، مهموز وغير مهموز . استغشى ثوبَه : تغطّى به . اليأس : قطع الرّجاء . مريحا : يُدْخِل على صاحبه الراحة . ادّكرت : تذكّرت . مضاءها : نفادها وإسراعها . انبراءها : نهوضها ، وقد انبرى لك فلان إذا عَرَض لك . مباراة : معارضة . لاعنى : أحرقنى ، اللوعة: حرقة القلب من شدّة الوجد . استهوتنى : هَوَتْ بى فى كلّ طريق . الأفكار : تذكر الهموم .

* * *

فبينما أنا فى حِواء ، بعضِ الأحياء ، إذ سمعتُ من شخصٍ مُتبعِّد ، وصوتٍ مُتَجرّد : مَنْ ضَلّتْ له مطيَّة ، حَضْرِمَيَّة وطِيَّة ، جلدُها قد وُسِم ، وعَرُّها قد حُسِم ، وزمامُها قد صُفِر ، وظَهْرُها كأنْ قد كُسِر ثمّ جُبِر ، تَزِينُ الماشية ، وتُعين النّاشية ، وتقطع المسافةَ النائية ، وتَظلّ أبداً لك مُدَانية ، لا يعتورُها الْوَنَى ، ولا يعترضها الْوَجَى ، ولا تُحْوِج إلى العصا ، ولا تَعْصى فيمَنْ عَصَى ؟

قال أبو زيد : فجذبنى الصَّوْتُ إلى الصَّائت ، وبَشّرنى بدرْك الفائت . فلمّا أفضيت إليه ، وسلّمت عليه ، قلت له : سلِّم المطيَّة ، وتَسلَّم العطيَّة ، فقال : وما مطيَّتُك ، غُفِرت خطيَّتُك ؟ قلت له : ناقة جُثَّتُها كالهضْبة ، وذُرْوتُها كالْقُبَّة ، وحَلَبُها ملء الْعُلْبة ، وكنتُ أعطِيتُ بها عشرين ، إذ حَلَتْ يَبْرين ، فاستزدت الَّذِى أعطى ، ودَرَيْتُ أنه أخطا .

* * *

قوله : حِواء : بيوت مجتمعة مائتان أو نحوها . الأحياء : القبائل . متجرّد : ماضٍ ظاهر ، وقيل ضعيف لبُعْده . ضَلّت : تلفت وضاعت . مطيـة ، يعنى بها نعلاً فى المعنى وناقة فى اللفظ ، وقد تقدّمت أشعار اللّغز بهما . وطيّة : لا تحرّك الراكب ، وهى الذَّلُول ، وفراش وطىء : وثير لا يؤذى جَنْب النائم عليه ، وعلى من ضلّت له مطية [أن يقول ما][1] فى حديث عتبة بن غزوان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا ضل أحدكم شيئاً وأراد غوثاً وهو بأرضٍ ليس بها أحد فليقُلْ : يا عباد الله المسلمين أعينونى ، يا عبادَ الله المسلمين أعينونى ، فإنّ لله عبّاداً لا نراهم » ، وقد جرّب ذلك . وُسِم : خُرِز ، أى جعل الخرَز فيها كالعلامة . عَرّها : جَرَبها . حُسِم : استؤصِل بالقطع ، يريد أنّ آثار الجرَب الّتى كانت فى الجلد الذى صُنِعت منه هذه النعل قد قُطِعت وأزيلت . وزِمامُها : شَرَكها . كُسِر ثم جُبِر ، يريد أنّ ظهرها يَبِس فتكسّر ، فوُصِل بجلد آخر فصحّ .

والماشية : الرّجْل التى تَمشى فيها ، وكذلك النّاشية ، ويقال : نشأ الرجل ، إذا نهض لحاجته وتنشّأ أيضاً . وسّهل الناشية لأجل الماشية وأصلها الهمز . الفنجديهى : تُعين الناشية ، أى تُعِين على السّير فى ناشئة الليل ، قال ابن عَرَفة : كلّ ساعة قامها قائم من الليل ناشئة . الأزهرىّ : ناشئة الليل قيام الليل مصدر جاء على « فاعِلة » بمعنى النَّشء كالعافية والخاتمة بمعنى العَفْو والختْم ، وقيل : الناشية والنَّشيئة أن تنام من أوّل الليل ثم تقوم . وقيل : النّاشئة أوّل النهار أول الليل ، وأكثر المفسرين على أنّ ناشئة الليل أوّله . عاصم : يهمِزُه والباقون لا يهمزون . جَذَبنى ، ساقنى بعُنْف . الصّائت : صاحب الصوت الذى سمع ، وقد أصات إذا رفع صوته . دَرْك الفائت : لحوق التّالف . أفضيت : وصلت .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

تَسَلّم : خذ . جُثَّتها : جسدها ، والجُثّة : شخص القائم والقاعد والراكب . والهضْبة : الصخرة العظيمة ، وقيل الجبل المنبسط الأملس . ذِرْوتها : أعلى ظهرها . والعُلْبة : إناء من جلود . يَبْرين : أرض فيها رمل .

* * *

قال : فأعْرَض عَنِّى ، حِين سَمِع صِفتى ، وقال : لستَ بصاحب لُقْطَتى . فأخذتُ بتلابيبه ، وأصْرَرْت على تكذيبه ، وهَمْتُ بتمزيق جَلابيبه ، وهو يقول : يا هذا ما مطيّتِي بِطِلْبك ، فاكفُفْ عَنِّى مِن غَرْبك ، وعَدِّ عن سَبِّك ؛ وإلّا فقاضِنِي إلى حَكَم هَذَا الحيّ ، البرىء من الغىّ ، فَإِنَّ أوْجَبَها لَكَ فتسلّمْ ، وإن زَوَاها عَنْكَ فَلا تَتَكَلَّمْ ، فَلَمْ أَرَ دواءَ قِصّتى ، ولا مَساغَ غُصّتِي ، إلّا أنْ آتىَ الحكم ، ولو لَكَمَ .

فانخرطنا إلى شَيْخٍ رَكِين النِّصبة ، أَنيقِ الْعِصبة ، يُؤْنَس مِنه سكونُ الطَّائر ، وأنْ لَيْس بِالجَائر ، فانْدَرَأتُ أتَظَلّم وأتألّم ، وصَاحبى مُرِمٌّ لا يَتَرَمْرَم ، حتَّى إذَا نثلتُ كِنانتى ، وقَضَيْت من الْقَصص لُبَانتى ، أبرز نَعْلاً رزينة الْوَزْن ، مَحْذوّةً لمسلك الحزْن ، وقال : هَذِهِ الَّتى عَرّفت ، وإيَّاهَا وَصَفْت ، فَإِنْ كَانَتَ هِىَ الَّتى أُعْطِىَ بِهَا عِشْرِينَ ، وَهاَ هُوَ مِنْ الْمُبْصِرِينَ ، فَقَدْ كذب فِى دَعْوَاه ، وَكَبُر ما افتَراهُ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَمُدَّ قَذالَه ، ويُبِينَ مِصداقَ ما قَالَهُ .

* * *

أعْرَض : نحّى وجهه . واللُّقَطة : ما تجده قد سَقَط من غيرك فتلتقطه ، وعامة أهـــل اللغة على فتح قافها مثل أبى عبيدة ويعقوب والمفضّل وثعلب وابن قُتيبة وغيرهم . وحكَى ابنُ خالَوْيه أن تسكينَها لغة تميم ، وفتحها لغة أهل الحجاز ، فهما لغتان ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :« مَنْ التقط لُقَطة فليُشهد ذا عدلٍ ثم لا يكتم ولا يغيب ، فإن جاء صاحبُها فهو أحقُّ بها ، وإلا فهو مال الله يؤتيه من يشاء » . تلابيبه : أطواق ثوبه ، والتلبيب الجيْب ، وأخذت بتلبيب فلان ، إذا جمعتَ ثوبه الذى حوالى صدرِه وقبضت على نحرِه ، والجِلباب : المِلْحفة والرِّداء . أصررت : أقمت . تمزيق جلابيبه : تخريق ثيابه . بطلْبك : بما تطلب . والطِّلْب : اسم ما تطلب . ابن دريد فلانة طِلْب فلان ، إذا كان يطلُبها ويَهْواها . عَدّ : كُفّ واصرِفْ . سبّك : شتمك . قاضنى : حاكَمنِى . الحىّ : القبيلة . الغىّ : الضّلال والفساد . زواها : نحّاها .

قوله : مَساغ غُصتى ، أى بلع ما أختنق به ، وساغ الطعام والشراب فى الحلْق : سهل نزوله فيه . لكَمه ، يلكمه : ضربه بجُمْع كفّه .

انخرطنا : سرنا مسرعين . رَكِين النِّصبة : وقور الهيئة ، وفلان ركين بَيِّن الرّكانة ، أى ثقيل المجلس ثابت قوىّ . الأزهرىّ . يقال للرجل إذا كان وقوراً ساكناً : إنه لرَكين ، وقد رَكُن ركانة . الجوهرىّ . يقال جبلٌ ركين ، أى له أركان عالية ، فيحتمل على هـذا المعنى أن يكون ركين النِّصبة ، عالى الانتصاب حسَن القامة ، والنِّصبة الفِعْلة من الانتصاب ، وأراد بها هيئة انتصابه فى جلوسه وحالته . أنيق : مُعْجِب . العِصْبة : هيئة العمامة على رأسِه ، تقول : عَصَبْت رأسى بالعمامة إذا شددتَه بها ، والعِصْبة هيئة التعمّم ، يقول : إن هذا الشيخ الحاكم رزينٌ فى جلوسه حَسَن التعمّم والهيئة . يؤنس : يبصر . سكون الطائر ، كناية عن الوقار والحِلْم ، وإنما ذكَّر الطائر لأنه لا ينزل إلا على ساكن ،

وإذا نزل عليه سكن هو ، فإذا كان عند الرجل هَوَجٌ وطيش ، قيل : طارت عصافيره ، فإذا كان القوم أهلَ وقارٍ قيل : كأنّ على رءوسهم الطير . اندرأت: اندفعت . أتظلّم : أتشكّى الظلم . أتألم : أتوجع . مُرِمّ : ساكت . لا يترمرم : لا يُجيب ولا يتحرك ، وتكلّم فما تَرَمْرَم ، أى ما أجاب ، وأصل تَرَمْرَم تحرّك . تثلتُ كِنانتى : أخرجت ما فيها من السّهام ، وأراد أتممت كلامى . وقَضيت : أتممت . والقَصَص : ذكر الخبر . لُبانتى : حاجتى . أبرز : أظهر . رزينة : ثقيلة .

محذوّة، جُعل عليها الحِذاء ؛ وهو الجلد الّذى تُنْعَل به . مسالك : طرق . والحَزْن : ما غُلظ من الأرض . عَرّفْت : صِحْتَ بها ليعرفها صاحبها . ما افتراه: ماجاء به من الادّعاء والكذب . قَذالة : عنقه ، والقَذال : مابين نُقْرة القفا إلى الأذن ، وجمعه قُذُل ، يقول : فإن كانت هذه النعل تُساوى عشرين ـ وها هو يبصر أنّ هذا باطل ـ فقد صارتْ دعواه باطلة ، اللهمّ إلا أن يمدّ عنقه ويأتى ببيان أنّها تساوى عشرين ، إلى هذا التفسير رأيتُ أكثر من لقيت يذهب ، وهو ضعيف ولا يكون لمدّ قذا له معنى ولا لما بعده .

والتفسير الحسن الّذى فيه جِلاء للمعنى ما كان يفسّره به شيخى أبو بكر ابن أزهر عن ابن جَهْور ، وذلك أنه كان يفسّر أعطى بمعنى صُفِع وضرب ، وكذلك كتب عليه فى طرة كتابه ، أنّ أعطى بمعنى ضَرب ، لغة أهل الشرق ، وقد حُدِّثتُ أنا عنهم أنّ الرجل إذا كلم الآخر بما لا يُرضيه ثم انصرف عنه صاح الآخر فى أثرِه : أعطِه ، بمعنى اصفعه ، فهى لفظةٌ متعارَفة بينهم لهذا المعنى وبيان موقعها هُنَا أنه لما ادّعى السَّروجى أنه أُعْطِىَ بناقته عشرين ، فوصفها بما يصحّ معناه فى حقها من أنها تساوى عشرين . ثم قال : إن المعرِّف أبرز

نعلا رزينة الوزن ، أى ثقيلة فى الميزان . محذّوة لمسلك الحزْن ، أى قد جعل عليها حِذاء ، أى رُقَعٌ من الجلد طرِقت بها ليسلُك بها الحَزْن ، أى ليمشى بها فى أرض ذات حجارة فلا تؤثّر فيها لتلك الأطراف ، وبتلك الأطراف صارت ثقيلة فى الوزن ، فلمّا أبرز هذه النّعل التى وصفتها رفعها بيده إلى الحاكم قائلاً له: هــذه النّعل التى عَرَّفت ، وإيّاها وصفْت ، فإن كانت هذه التى أُعْطِىَ بها عشرين ، أى صُفِع بهـا عشرين . فقلت : الإعطاء للنعل بمعنًى يوافقها إذ عدّ عشرين ديناراً فى ثمنها بعيد ، ثم بيّنه بقوله : وها هو من المبصرين . والضَّرْب الجافى فى العُنق تدمع له العينان ، وإذا أفرط فيه عِمِّىَ له المصفوع، فيقول المعرِّف: هذه النعلُ لو صُفِع بها إنسانٌ صَفْعَةً واحدة لعِمِّى ، وهذا يقول إنه صُفع بها عشرين وهو سالم البصر ، فقد كذب فى ادّعائه أنه صُفع بها عشرين ، وكبرتْ فرْيته ، اللهمّ إلا أن يمدّ قفاه فيرينا فيها أثر الصفع ، وأثره احمراره وتعجيره ، فيتبيّن بذلك الأثر صدق قوله . فهكذا تفسير هذا الموضع ومعناه . وابن جَهْور الذى شافه الحريرى بمشكلاتِ كتابه كان أضْبَطَ لها ممنّ يتحكم فيها بنظره ، فيكون تخليصُ المعنى إنّ المعرِّف يقول : هذه النعل يدّعى هـذا أنه أُعْطِىَ بها عشرين ، وأنتم ترونه سالمَ البصر ، ومحالٌ أن يُصْفَع بها إنسان لخشنها وثقلها عشرين صَفْعة إلا ويعمى ، فقد صارت دعواه كاذبة إلا أن يمدّ لنا عنقه فنرى فيها أثرَ الصفع والرّزء فنصدِّقه فى دعواه . وفى رواية غير ابن جهور « بعــد المبصرين » فقال : كذّب دعواه وهو داخل فى قول المعرّف الأوّل فلا يحتاج إلى إدعائه ، ولو جاء هنا بثمّ مكان الفاء لكان أبْيَن فكان بمعنى قوله ، قال : ثم يمشى فى كلامه ثم ينسِّق عليه قال : لكلام ثان ، وإنما وضع الفاء موضع ثُمّ لأن جواب الشرط الذى هو « فإن كان » مضمّن فى قوله «وها هو من المبصرين» فإنه يتضمّن قوله : « وها هو من المبصرين » معنًى فقد كذب ، وليس فيه لفظ الجواب ، فجاءت الفاء كأنها جواب لفظى ، ووقعت قال : موطّئة

لقال الأولى ، ألا ترى أن فى رواية ابن جهور مكان فقال فقد ، والكلام بها متّصل حسن ، قال أبو الرقعمق يصف العمى من الصفع :

ولقدِ بِتنا على زمنٍ ورءوس القوم تُسْلَبُ
وكئوسُ الصفع دائرة وبها اللّذات والطَّرَبُ
وكأن الصفع بينهمُ شُعَلُ النِّيران تلتهبُ
والعمى منهم وإن شغلوا عنه باللّذات مقتربُ

وله :

إنّ الذين تصافَعُوا بالقرع فى زمن القُشُورِ
أسفوا علىّ لأنهم حضروا ولم أكُ فى الحضورِ
لو كنتَ ثَمّ لقيل هَلْ من آخذٍ بيد الضريرِ
يا للرِّجال تصافَعُوا والصَّفع مفتاح السرورِ
لا تغفلوه فإنّه يَسْتَلُّ أحقاد الصُّدورِ

وقال يصف أثر الصَّفع فى قفاه :

ففىّ ما شئتَ من حمق ومن هَوسٍ قليله لكثير الحمق إكْسِيرُ
كم رام إدراكه قوم فأعجزهمْ وكيف يُدْرَك ما فيه قناطيرُ
لا عيب فىّ سوى أنّى إذا طربوا وقد حضرت يرى فى الرأس تعجيرُ
والأخدعان فما زالا يُرى لهما لكثرة المزْح توريمٌ وتحْمِيرُ

فى هذه الأشعار تتبين لك تلك الأغراض التى قدمنا ذكرها .

[حكاية ابن المغازلى]

وتنتظم فى سلكها حكاية ابن المغازلىّ ، وكان رحلاً يتكلّم ببغداد على الطُّرق بأخبار ونوادر منوّعة، وكان نهايةً فى الحذق لا يستطيع مَنْ سَمِعه ألّا يضحك

قال : وَقَفْتُ يوماً على باب الخاصَّة أُضْحِكُ النَّاسَ وأتنادرُ ، فحضر خَلْفٌ بعضُ خدّام المعتضد ، فأخذت فى نوادر الخدم ، فأعْجِب بذلك وانصرَف ، ثم عاد فأخـذ بيدى وقال : دخلتُ فوقفت بين يدىْ سيِّدى فتذكرتُ حكايتَك فضحكتُ ، فأنكر علىّ ، وقال : مالك ويلك ! فقلتُ : على البـاب رجل يعرف بابن المُغازلى يتكلّم بحكايات ونوادر تُضْحك الثَّكول ، فأمر بإحضارك ولى نصف جائزتك ، فطمعت فى الجائزة ، وقلت : يا سيِّدى أنا ضعيف وعلىّ عَيْلة ، فلو أخذت سُدْسَهَا أو ربعها ! فأبى وأدخلنى فسلّمت فردّ السَّلام ، وهو ينظر فى كتاب ، فنظر فى أكثره ، وأنا واقف ، ثم أطبقه ورفع رأسه إلىّ ، وقال : أنت ابن المغـازلى ؟ قلت : نعم يا مولاى ، قال : بلغنى أنَّك تحكى وتُضْحِك بنوادرَ عجيبة ، فقلت : يا أمير المؤمنين الحاجـة تفتقُ الحيلة ، أجمع النَّاس حكايات أتقرَّب بها إلى قلوبهم فألتمس بِرّهم ، فقال : هاتِ ما عندك ، فإنْ أضحكتَنِى أجزتُكَ بخمسمائة درهم ، وإن أنا لم أضحك فما لى عليك ؟ فقلت للحين : ما معى إلَّا قفاى ، فاسأل ما أحببت ، قال : أنصفتَ إنْ لم تُضْحِكْنِى أصفعك بذلك الجراب عشر صفعاتٍ ، فقلت فى نفسى : مَلِكٌ لا يصفع إلا بشىء ليّن خفيف ، والتفتَّ فإذا بجراب من أدم معلَّق فى زاوية البيت ، فقلت : ما أخطأ ظنِّى ،عسى فيه ربحٌ إن أضحكتُه ربحت ، وأخذت الجائزة ، وإلَّا فعشر صفعات بجراب منفوخ شىء هيِّن ، ثم أخذت فى النُّوادر والحكايات والنَّعاشة والعبارة ، فلم أدعْ حكاية أعرابىٍّ ، ولا نحوىٍّ ، ولا مخنَّث ، ولا قاضٍ ، ولا نَبَطِىٍّ ، ولا سِنْدىٍّ ، ولا زِنْجىٍّ ، ولا خادم ، ولا تركىّ ، ولا شاطر ، ولا عيَّار ، ولا نادرة ، ولا حكاية إلا وأحضرتُهَا حتى نفَدَ كلُّ ما عندى ، وتصدَّع رأسى ، وفترت وبردت ، ولم يبق ورائى خادم ، ولا غلام إلا وقد ماتوا من الضحك ، وهو مقطِّبٌ لا يتبسمُ ، فقلت : قد نفَدَ ما عندى ، ووالله

ما رأيتُ مثلَكَ قطّ ، فقال لى: هيه ، ما عندك ؟ فقلت: ما بقىَ لى سوى نادرة واحدة ، قال : هاتِهَا ، قلت : وعدتَنى أن تجعل جائزتى عشر صفعاتٍ وأسألك أن تُضْعفها لى وتضيف إليها عشر صفعات أخرى . فأراد أن يضحك ثم تماسَك، قال : نفعل يا غلام خذ بيده ثم مددت قفاى فصُفِعتُ بالجراب صَفْعةً ، فكأنّما سقطتْ على قفاى قطعةٌ من جبل،وإذَا هو مملوء حصاً مدوّراً فَصُفِعتُ عشراً، فكادت أن تنفصل رقبتى ،وطَنَّت أذناى وانقدَحَ الشُّعاع من عينى ، فصحتُ يا سيّدى، نصيحة ،فرفع الصَّفْع بعد أن عزم على العشرين ، فقال : قل نصيحتَك، فقلت : يا سيّدى إنّه ليس فى الديانة أحسن من الأمانة ، وأقبح من الخيانة ، وقد ضَمِنتُ للخادم الذى أدخلَنى نصفَ الجائزة على قُلّها وكُثْرها ، وأمير المؤمنين بفضله وكرمه قد أضعفها وقد استوفَيْتُ نصفى ، وبقى نصفهُ . فَضحك حتى استلقَى ، واستفزَّه ما كان سمع ، فتحامل له ،فما زال يضرب بيديه الأرض ويفحص برجليه ويُمسك بمراقّ بطنه ، حتى إذا سكن قال : علىّ به ، فأُتِى به ، وأمر بصفعه ، وكان طويلاً ، فقال : وايشٍ جنايتى ؟ فقلت له : هذه جائزتى وأنتَ شريكى فيها ، وقد استوفيتُ نصيبى منها ، وبقى نصيبُك، فلما أخـذه الصَّفْع وطَرَق قفاه الوقْع ، أقبلتُ ألومه وأقول له : قلت لك إنى ضعيف معيل، وشكوتُ إليك الحاجة والمسكنة ، وأقول لك خـذ ربعَها أو سدسَها ، وأنت تقول : لا آخذ إلا نصفَها ، ولو علمتُ أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصفع وهبتُها لك كلّها . فعاد إلى الضحك من عتابى للخادم ، فلما استوفى نصيبه أخرج صُرّة فيها خمسمائة درهم ، وقال : هذه كنت أعددتُها لك ، فلم يدعْك فضولك حتى أحضرت شريكاً لك ، فقلت : وأين الأمانة ؟ فقسمها بيننا وانصرفت .

* * *

فقال الحكم : اللّهمّ غفراً ، وجعل يُقلّب النّعل بطناً وظهراً ؛ ثم قال : أمّا هذه النّعل فنعلي ؛ وأمّا مطيّتك ففي رحلي ، فانهض لتسلّم ناقتك ، وافعل الخير بحسب طاقتك ، فقمت وقلت :

أقسمُ بالبيت العتيق ذى الحرَمْ
والطائفينَ العاكفين فى الحرَمْ
إنّكَ نِعْمَ مَنْ إليه يُحتكَمْ
وخيرُ قاضٍ فى الأعاريبِ حَكَمْ
فاسلمْ ودمْ دَوْمَ النّعامِ والنّعَمْ

فأجاب من غير رويّة ، ولا عَقْد نيّة ، وقال :

جُزيت عن شكرك خيراً يابْنَ عمْ
إذْ لستُ أستوْجِبُ شكراً يُلتزَمْ
شرُّ الأنامِ مَنْ إذا استُقْضِى ظَلَمْ
ثمّ مَن استرعِى فلمْ يَرْعَ الحرَمْ
فَذَانِ والكلبُ سواءٌ فى القِيمْ

ثمّ إنّه نَفَذَ بين يدىّ ، مَنْ سلّم النّاقة إلَىّ ، ولم يَمْتنّ علىّ ، فَرُحْتُ تجيح الأرَب ، أجُرُّ ذيلَ الطّرَب ، وأقول يا للعجب !

* * *

قوله : اللهم غفراً ، أى اغفر غفراً ، والغفر : السَّتر والتغطية . انهض : تقدّم . لتسَلُّم : لقبْض . العتيق : القديم . الحُرَم : جمع حُرمة . والعاكفين : المقيمين فيه للعبادة ، والعكوف : الإقامة ، والحرَم حَرَم مكة . اسلم : دعاء ، معناه سَلّمك الله . والنّعام : طير معروف . الأعاريب : الأعراب وهم سكان البادية . والنَّعَم : جمع نِعْمة ، والدَّوْم والدوام واحد . رويَّة ، أى فكرة . عَقْد نيَّة : أى تدبير . استُرعِي : جُعل راعياً ، أى حكماً على الناس . يَرْعَى : يحفظ . فذان ، أى فهذان . القِيم : جمع قيمة . يمَتَنّ : يعتدّها منّة ، وامتنّ فلانٌ عليك ، إذا فعل معك معروفاً فمتى أنكر عليك شيئاً ذكر لك معروفه وجبَّهك به ، وقالت الحكماء : أحْيِ المعروف بإماتة ذكره ، وعظّمه بالتصغير له .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت لَهُ تَاللهِ لقد أطْرَفْتَ ، وهَرَفتَ بما عَرَفْتَ ، فناشدْتُك اللهَ : هل أَلْفَيْتَ أسْحَرَ منك بَلاغة ، وأحْسَن لِلّفظ صِياغة ؟ فقال : اللَّهُمّ نَعَمْ ، فاسْتَمِعْ وانْعَمْ . . . كنتُ عَزَمْتُ حِيْنَ أَتْهَمْتَ ، عَلَى أنْ أتَّخِذَ ظَعِينةً ، لتكونَ لى مُعينة ؛ فحين تعيّن الخطبُ المُلِبّ ، وكادَ الأمْرُ يَسْتَتِبّ ، أفكَرْتُ فِكْرَ المُتَحَرِّز مِنَ الْوَهْم ، المتأمِّلِ كَيْفَ مَسْقِطُ السّهم ، وبتُّ لَيْلَتِي أُنَاجِي الْقَلْبَ الْمُعَذَّب ، وأُقلِّبُ الْعَزْم المَذْبَذَب ، إلى أَنْ أجمعتُ على أَنْ أُسْحِر ، وأُشَاوِرَ أوّلَ من أُبْصِر . فلمّا قوّستِ الظُّلْمَةُ أبوابَها ، وولّت الشّهُب أَذْنَابَها ، غَدَوْتُ غُدُوّ المتعرّفِ ، وابتكرتُ ابتكارَ المُتَعيّفِ ، فانبرَى لى يافِعٌ

فى وجهه شافِع ، فتيمَّنْتُ بمنظَره البَهِيج ، واستقدحْتُ رَأيه فى التزويج . فقالَ : أَوَ تَبْغِيها عَواناً ، أم بكراً تُمانى ؟ فقلت : اخترْ لى ما تَرَى ، فقد ألقيتُ إليك العُرَى .

* * *

أطرفتَ : أتيتَ بطُرْفة ، يريد بأمرٍ عجيب غريب . هرَفْت بما عرَفت ، أى تكلَّمت بشىء غريب ، والهرَف : الإطناب فى المدْح ، ومن كلام العرب لا تهرِفْ بما لا تعرف . ناشدتك : حَلَفْتُك : صياغة : صنعة وسَبْك . أتهمت : أتيت تِهامة ، وهى ما انخفض من أرض العرب . ظعينة : زوجة . الخِطْب : النكاح . وتعيَّن : تحقق . يستتبّ : يتم . الوَهْم : الغلط . المتأمل : الناظر . المذبذب : المضطرب ، الذى لا يعتمد على رأى . أزمعت : عزمت . أُسحِر : أُخْرُج فى السَّحَر . قوّضت : هدمت . والأطناب : حِبال الخِباء وتقويضها : إزالتها . الشّهبُ : النجوم ، وجعل لها أذناباً مجازاً ، وأراد أنّ الفجر إذا طلع وانتشر غابت النُّجوم ، فكأنها قد وَلَّت أذنابُها وقال التّهامى فى ذلك :

فظلتُ أعثُر فى ثوبِ الدُّجَى ولِهاً ... والجوّ رَوْضٌ وزهرُ الشُّهبِ كالزَّهَرِ (١)

وللمجرّة فوقَ الأرض معترَكٌ ... كأنها حَبَبٌ يعلو على نهَرِ

وللثريّا ركود فوق أرحُلِنا ... كأنها قطعة من فَرْوَة النمِرِ

كأنّ أنجمَها والصُّبح يُغْمِضها ... قَسْراً عيونٌ غفت من شدّة السَّهَرِ

المتعرّف : المكتسب لأنه يعرف ما جهل . المتعيّف : الزّاجر ، من عاف الشىء إذا كرهه . يافع : فَتًى شابٌ وقد أيفع إذا شبّ . فى وجهه شافع ، أى هو حسن الوجه يشفع حسنُ وجهِه إذا أذْنَبَ أو أخطأ .

* * *

(١) ديوانه ٤٢ .

[من قولهم فى الوجه الحسن]

وفى وجهه شافع صدر بيت للحكم بن قَنْبر .

وقال يحيى بن علىّ المنجم : كنتُ يوماً بين يدى المعتضِد ، وهو مقطّب ، فأقبل بدرٌ مولاه ، فلمّا رآه من بعيد ضحِك وقال : يا يحيَى مَنِ الذى يقول : « فى وجهه شافع » ؟ فقلت : يقوله ابن قنبر المازنى البصرىّ ،فقال لله: دَرّه ، فأنْشِدْ هذا الشعر ، فأنشدته :

وَيْلِي على مَنْ أطار النوم فامتنعاَ ... وزاد قلبى على أوجاعِه وَجَعـــاَ
كأنما الشمس فى أعطافه لمعتْ ... حُسْناً أو البدر مِنْ أزراره طَلَعاَ
مستقبل بالّذى يهوَى وإن كثُرتْ ... منه الذنوب ومعــذور بما صَنَعاَ
فى وجــــهه شافع يمحُو إساءتَه ... من القلوب وجيهٌ حيثما شَفَعاَ

أنس ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حسن الوجه مال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخيرَ عند حسان الوجوه » .

وقال الشاعر :

أنت شرط النبىّ إذ قال يوماً ... اطلبوا الخير من حسان الوجوهِ

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آتاه الله وجهاً حسناً واسماً حسناً ، وجعله فى موضع غير شائن ، فهو من صفوة الله من خلقه » .

ابن عمر رضى الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة تجلُو البصَر : النظرُ إلى الخُضرة ، والنّظر إلى الماء الجارى، والنّظر إلى الوجه الحسن» ، نظمها الشاعر فقال :

ثلاثة يُذهِبْنَ للمرء الحزَنْ ... الماء والخضرة والوجْهُ الحسنْ

قوله تَيمنَّت : تبرّكت . البهيج . الحسَن . استقدحت : طلبت ، وأصلها ، فى قَدْح النار . تبغيها : تطلبها . عَواناً : ثيّباً . تعانَى : تعالج وتُراضى . العرا : جمع عروة .

* * *

فقال : إلىّ التِّبْيين ، وعَلَيْك التَّعيين ، فاسْمع أَنَا أَفْدِيك ، بعد دَفْنِ أَعادِيك ؛ أمّا البِكر فالدُّرَّة المخزونَة ، والْبَيْضَةُ المكنونة ، والْبَاكُورَةُ الْجَنِيَّة ، والسُّلافَةُ الْهَنِيّة ، والرَّوْضَةُ الأُنُف ، والطَّوْق الَّذى ثَمُن وشَرُف ؛ لم يدنِّسْها لامِس ، ولا استَغْشاها لابس ، ولا مارَسَها عابث ، ولاوَكَسها طامِث ، ولَهَا الْوَجْه الْحَيّ ، والطّرْف الْخَفِيّ ، واللِّسَانُ الْعِيّ ، والْقَلْبُ النَّقِيّ . ثم هى الدّمْيَةُ الْمُلاعِبة ، واللُّعبة الْمُداعِبَة ، والْغَزالَةَ الْمُغازِلة ، والْمُلْحَةُ الْكامِلة ، والْوِشاحُ الطَّاهِرُ الْقَشِيب ، والضَّجِيع الَّذى يُشِبّ ولا يُشيب ... أمّا الثيّبُ فالمطِيّة الْمُذَلَّلَة ، واللُّهْنَةُ الْمُعجَّلَة . والبِغْيَةُ الْمُسهّلَة ، والطَّبّة الْمُعلّلة ، والقرينة المتحبِّبة ، والْخَلِيلة المتقرّبة ، والصَّناع المدبِّرَة ، والْفِطْنَة المختبِرَة . ثمّ إنَّها عُجالَةُ الرَّاكب ، وأُنْشوطَةُ الْحاطِب ، وقُعْدَةُ الْعاجِز ، ونُهْزَةُ الْمُبارِز ، عَريكَتُها لَيِّنَة ، وعُقْلَتُها هَيِّنَة ، ودِخْلَتُها متبيِّنة ، وخِدْمَتُها مُزَيِّنَة ، وأُقْسِمُ لقد صَدَقْتُ فى النَّعْتَيْن ، وجلَوْتُ الْمَهاتَيْن ، فبأيَّتِهما هامَ قَلْبك ، وعَلَى أيَّتِهما قام رُبْبك ؟

* * *

الدّرّة : الجوهرة . المخزونة : التى جُعلت فى الخِزانة لرفعتها ، يريد أنّ البِكر تحجَب وتُصان : البيضة المكنونة ، أراد بيضة النعام ، ويشبِّه بها النساء

لبياضها والصُّفرة التى تضرِب فيها ، وقد تقدمت هذه الصفة فى العاشرة ، وقال امرؤ القيس :

كَبِكْرِ مُقَانَاةِ البياض بصُفْرَةٍ غَذَاها نَمِيرُ الماء غيرُ المحلَّلِ (١)

وقال ذو الرُّمة :

* كأنَّها فضة قد مسها ذهبُ * (٢)

والمكنونة : المصونة ، والنعامة تُكِنّ بيضَتها بريشها ، ولا تبديها للشمس والريح لئلا تتغيّر ، وقال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٣) ، الباكورة : أوّل ما يُباكر من الثمر . والسلافة : الخمر ، والمدْخُورة : المحجوبة فى آنيتها . الأُنُفُ : التى لم تُدْخَل ولا رعيت . والطَّوْق : ثوب رفيع . ثَمِنُ : كثر ثَمَنُه . اللامس : الذى يلْمَس الشىء بيده ويدنِّسه ، وأراد به الذى يلاعبها ويعضّها . ابن عباس : اللمس والملامسة واللِّماس ، كناية عن الجماع ، وفلانة لا ترُدّ يدَ اللامس ، أى لا تمنع مجامَعتها مَنْ أرادها . استغشاها : جامَعها ، وغشيان النِّساء : مجامعتهنّ . واللّابس : الذى لابسها واختلط بها ، يريد نكحها . مارسها : عالجها وعاناها . عابث : مفسد ، وأراد من يَعْبَثُ بها عند الجماع . وَكَسها : نَقَصها ، ووضع منها ، والوكْس : الخسارة فى البيع . طامث : ناكح . والطامث : المفتضّ للبِكر . العَيّ : الّذى لا يعرف تصرّفات الكلام : والدّمية صورة الرخام . واللُّعبة : ما يلعَب به ، وتقول : لمن اللعبة ؟ أى لمن الغلب فى لعب الشطرنج وشبّهه . علىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة لُعبة زوجها ، فإن استطاع أن يُحْسِن لعبته فليفعل » . والمداعبة : الممازحة . والمغازلة : تقول غازلتنى المرأة إذا تماجَنَتْ عليك فى كلامها ، وأشارت لك

---

(١) ديوانه ١٦ (٢) ديوانه ٥ ، وصدره :

* كَحِلْاءَ فى بَرَجٍ صَفْرَاءَ فى نَعَجٍ *

(٣) سورة الصافات ٤٩

بعينها وغمزتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صدّت عنك . والمُلْحة : الصورة المستملحة كالدُّمى وكالصورة التى تلعب بها البنات والشطّار ، وهى اللعبة . وجاء بمُلْحة أى بكلمة طيبة مليحة . والوشاح : الحِزام . والقشيب : الجديد جعلها كالوشاح عند عناقها وجماعها . والضجيع : المرافق . يشبّ : يردّك شابًّا . يُشيب : يُكْسِبك الشّيب . اللِّهْنَة : ما يعجّل للضّيف قبل القِرى . والطَّبّة : الحاذقة بمصالحها . المعلِّلة : التى تعطيك ما تريد منها مَرّةٍ بعد مرّة ، وهى بكسر اللام ، والمعلّلة : التى تعلّل مرتشفَها بالريق ، قال امرؤ القيس :

* وَلَا تَمْنَعِينا من جَنَاكِ المعلَّل (١) *

ابنُ الأعرابىّ : المعلِّل : المعين بالبرّ بعد البرّ ، ومن نصَب اللاّم فمعناه المطيَّب مَرَّة بعد مرة ، والتعليل سَقْى بعد سقى . والقرينة : الصَّاحبة . والخليلة : الزَّوجة . والصَّناع : الحاذقة بالصَّنعة . ومُجالة الراكب : ما يعجَّل له من الطعام والشراب ، مثل التمر والسويق ، وما لا يتعِب بمعالجته ، وكانت العرب لكرمها يمرّ عليها الرجل ، وهو راكب فتعرِض عليه النزولَ للقِرى ، فيمتنع لأعذار له فيمسَك ؛ حتّى يُخرَج له من البيوت أيسرُ ما يوجد ، يأكله وهو راكب ، فجَعل الثَّيِّب لسهولتها كالمُجاله التى لا يُتكلَّف لهـا ، وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : البِكْر كالبرّة تطحنها وتعجنها وتخبزها وتأكلها ، والثَّيِّب مجالة الراكب تمر وسويق . والأنشوطة : عُقْدة تُحَلُّ بسهولة . نهزة : فرصة وغنيمة سهلة . عريكتها : طبيعتها ، ورجل ليّن العريكة إذا كان سهلا سَلِس القياد ، وأصل العريكة سنام البعير ، وكانوا يَعْمِدون للبعير إذا كان فيه شِماس وامتناع ، فيقطعون فى حَدَبته وهى مرتفعة يَصْعُب الرّكوب عليها ، فإذا قطع فيها سكن البعير ولان ، وتوطّأ موضع الرّكوب منه فيقال : قد لانت عريكته وقال الشاعر :

(١) ديوانه ١٢ ، وصدره :

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ *

من اللَّواتى إذا أوْدَتْ عريكتُها يَبْقَى لهـــا بعدها ألٌّ ومجهودُ

قوله : أوْدَتْ ، أى زالت وذهبت ، فهذا يدلّ على ما ذكرنا . عُقْلتها : حبستها ، يريد أن ما يعقلها به صاحبها شىء هيّن ، والعُقْلة مثل العُقدة ، ولفلان عُقْلة يعقِل بها الناس فيغلِبهم ويصرعهم . دِخْلتها : باطن أمرها ، وفلان عفيف الدِّخلة وخبيثها ، أى الباطنة والسَّريرة . متبيّنة : مكتشفة ظاهرة ، أى سرُّها ظاهر . المهاتين : البِكر والثيّب ، والبقرة الوحشية هى المهاة . هام : تحيّر من شدة الحبّ .

* * *

قال أبو زيد : فرأيْتُهُ جَنْدَلةً يتّقيها المُرَاجِم ، وتُدْمَى منها المحاجِم ؛ إلّا أنّى قلت له : كنتُ سمعتُ أنّ البِكْرَ أشدُّ حُبًّا ، وأقلُّ خِبًّا ، فقال : لَعمرى قد قيل هـذَا ، ولَـكِن كمْ قولٍ أذَى ، ويحك ! أمَا هى المُهْرَةُ الأبيَّة العِنان ، والمَطِيَّةُ البَطِيَّة الإذْعَان ، والزَّندة المتعسّرة الاقتداح ، وَالقَلْعةُ المُسْتَصعَبَة الافتتاح . ثم إنّ مُؤْنتها كثيرة ، وَمَعُونتها يَسيرة ، وعِشْرَتها صَلِفَة ، ودَالَّتها مُكَلَّفة ، ويَدَها خَرْقَاء ، وفِتْنَتها صَمَّاء ، وعَرِيكَتها خَشْنَاء ، ولَيْلَتها لَيْلَاء ، وفى رِياضَتِها عَنَاء ، وعَلَى خِمْرَتها غِشَاء ، وطالَمَا أَخْزَت المَنَازل ، وفَرِكَتِ المَغَازِل ، وأحْنَقَتِ الهَازِل ، وأَضْرَعَتِ الْفَنِيقَ البازلَ . ثمّ إنّها التى تقول : أنا ألْبَس وأجلس ، فأطلب من يُطْلِق ويَحْبس .

فقلت له : فما تَرى فى الثَّيِّب ، يا أبا الطَّيِّب ؟ فقال : وَيْحك ! أتَرْغَب فى فُضالة المآكل ، وثُمَالَةِ المَنَاهِل ، واللِّباس المستبذَل ، والوعاء

المسْتَعْمَل ، والذّوّاقةِ المتطرِّفةِ والخَرّاجَة المُتَصرِّفة ، والْوَقَاحِ المُتَسَلِّطة ، والمُحْتَكِرَةِ المُتَسَخِّطة . ثم كِلمتُها : كنتُ وصِرْت ، وطالما بُغِى علىّ فنُصِرْت . وشَتَّان بين اليوم والأمس ، وأين القمرُ من الشمس ! وإن كانت الحنّانةَ البَرُوك ، والطَّمَّاحَة الْهَلُوك ، فهى الغُلّ القَمِل ، والجُرْح الّذى لا يندَمِل .

* * *

قوله : المُرَاجم ، أى الذى ترجُمه ويرجُمك . خِبًّا : مكراً وخديعة ، ورجل خِبّ : غاشّ فاجر . الا بيّة العِنَان : الممتنعة القياد . الإذعان : الخضوع والذلة . الزَّندة : ما تزنُد منه النار . المتعسرة الاقتداح : التى يعسر إخراج النار منها . القَلْعة : الحِصْن والمكان المرتفع . عشرتها : صُحْبتها . صَلِفة : مجاوزة حدَّ الطَّوْق ، وأصل الصّلف الإعراض عن الشىء كأنه إذا استقبلك أبديْت له صَلِيفَك ، وهو صفحة عُنُقك . ودَالّتها : انبساطها ، يريد انبساطَها إذا أرادت أن تُدِلَّ عليك تتكلّف ذلك . خَرْقاء : لا تحسِن العمل . صمّاء : شديدة ، كأنها لا تسمع النَّهى والعــذْل . وفِتْنتها : شرها . خشناء : خَشِنة صعْبة . ليلاء : شديدة السّواد طويلة . خِمْرتها : لبستها الخِمار . غشاء : غطـاء وَسْتر . فُضالة : بقية ، وكذلك ثمالة المنهل : موضع المـاء . والنّهَل : الشرب الأوّل . والذّوّاقة المتطرفة ، أى التى تذوق طَرَف الشىء وتتركه أو تذوق بطرَفِ لسانها ثم تبصقُه ، وتَطَرّفت الناقة : رَعَتْ بأطراف المرعى ، فيريد أنها لا تبقى على زوج واحد ، إنما هى تذوق كلّ زوج وتجرّب لذة مباشرتِهم ، وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى قد طلّقت زوجتى فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات » . الخرّاجة : الـكثيرة الخروج . المتصرّفة : الجوّالة . الوَقاح : الصُّلبة الوجه التى ليس عندها حيـاء . المتسلطة : المستطيلة اللسان .

والمحتكرة : التى تَسْرِق رزْق زوجها، ثم تحتكره ، أى تدخّره وترفعه ، فإذا احتاج روجُها لشرائه أخذت منه ثمن ما عندها محتكَراً . كنتُ وصرت : تخاطب به زَوْجها أى كنت فى نعمةٍ مع الزوج الأوّل وأنا معك على شقاء . يُبغِى علىّ، أى اجتمع علىّ بالظلم، والبغى: الظلم . وشتّان : بُعد . واليوم وأمس : الزوج الحاضر معها والزوج المفقود ، وهو الذى أراد بالقمر والشمس ، ويقال : شتان زيد وعمر وترفعهما بشتّان، وتفتح نونها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بالأدوات ويقال : شتان ما زيد وعمرو ، فتجعل ما صلة أو تنصبها على التمييز على حَدِ نعْمَ رجلاً زيدٌ والتقدير : شتّان شبهاً زيد وعمرو ،وبرفعهما بشتّان بمعنى بَعُد شبهاً زيد وعمرو ، ويجوز كسر نون شتانِ على أنها تثنية شتّ ، وهو التفرّق، وجمعه أشتان ،ويقال : شتان مابين زيد وعمرو ،فترفع «ما» بشتّان على أنها بمعنى الّذى ، وبين صلتُها ، ولا يجوز كسر نون شتانَ لأنها اسم واحد ، ومعنى عيهات بَعُد الحنّانة : صاحبة الولد الذى من غير الزّوج الذى هى معه : فمتى رأتْ ولدها حنّت لوالده، والبروك : التى تتزوّج ولها ولدٌ كبير ، ويسمى ولدها الحوبند . والطّاحة الهلوك : هى التى فارقها زوجُها فتطمح له أبداً وتتهالك فى محبّته . وقيل: الطاحة الّتى تطمح إلى كلّ شهوة ، والهلوك الفاجرة . والغُلّ : الشّرك التى يُغَلّ بها الأسير أى يربطها فى عنقه ويديه . والقمِل : الذى كثرت فيه القمل ويضرب بالغُلّ القمِل المثل للمرأة السيئة الخلق . لا يندمل : لا يبرأ .

أبو موسى رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث يدعُون الله فلا يَستجيب لهم : رجل كانت عنده امرأة سيّئة الخلُق فلم يطلّقْها ، ورجل أعْطَى مالَه سفيهاً ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ، ورجل كان له على رَجُلٍ دَيْنٌ فلم يشهد عليه » .

المقدمى : قال بعض الحكماء :أربعة أشياء يمنعْنَ النّوم والقرار : المرأة السوء ،

والولد الجاهل ، والعَشِير المخالف ، والعبد اللئيم . قال الأصمعىّ : قال لى زائدة البندار : قيل لى بالشأم : هل لك أن ترى العَجَب؟فذهبتُ فإذا سبعة فى شق ، جدّ وستة من ولده وولد ولده ، وإذا الجدّ السابع أشب من الابن السابع ، فسألت عنه فقيل : كان للجدّ امرأة مُوافقة وللابن السابع امرأة سَلِيطة .

وقال صلى الله عليه وسلم : «أربعة لا يشبَعْنَ من أربعة : عينٌ من نظر ، وأرض من مَطَر ، وأنثى من ذكر ، وعالم من علم » .

قال الأصمعى : تزوّج رجل من عُذْرة امرأةً منَ بلىّ حمقاء ، فغاب عنها غيبةً ثم قدم عليها ، فلما جمعهما المضجع أنشأت تقول :

ما مسَّنِى بعدك منَ إنسىّ غير غلامٍ واحدٍ جَعْدِىّ
ورجلٍ أحمق من بلِىّ ورَجُلين من بنى عدىّ
وتسعة كانوا مع المطىّ وسبعةٍ كانوا على الطَّوِىّ
وخمسة وافوْا مع العَشِىّ من بين جَدّىّ إلى مكىّ
* ومنَ تِهامِىٍّ إلى نجدىّ *

فقام إليها بالسوط فضربها ، فاجتمع لذلك مَنْ حوله يلومونه ، فقال : والله لولا ما قمتُ لضرْبها لعَدّت علىّ أهل عَرفات ومِنى .

وقيل ليحيى المدينى : ما الجرحُ الذى لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم .

* * *

فقلت له : فهلْ تَرى أنْ أَتَرهَّبَ ، وَأَسْلُكَ هَذَا الْمَذْهَب ؟ فانْتَهَرَنِى انتهارَ المؤدِّب ، عند زلّة المتأدِّب ، ثمّ قال : ويلك ! أتقتدى بالرّهبان، والحقُّ قد استَبان ! أفٍّ لك ولِوَهْنِ رَايِك، وتبًّا لك ولأُولئك

أَتُراكَ ما سمعت بأنْ لا رهبانيّة فى الإسلام ، أو ما حدّثت بنا كح نبيِّكَ عليه أزكى السلام . ثمّ أما تعلمُ أن القرينةَ الصالحة تَرُبُّ بيتَك، وتلبِّى صوتَك، وتغُضّ طَرْفَك، وتُطَيِّب عَرْفك، وبها تَرَى قُرَّة عَيْنِك، وريحانةَ أَنْفِك، وفَرْحةَ قَلْبِك، وخُلْدَ ذِكْرِك، وتَعِلَّة يَوْمِك وغَدِك ! فكيفَ رغبتَ عن سُنَّة المُرْسَلين، ومُتْعَةِ المتأهّلين، وشِرْعَة المُحْصَنين ومجلبةِ المال والْبَنين : والله لَقَدْ ساءنى فيك ، مَا سَمِعْت مِنْ فِيك . ثمّ أعرض إعراض المغضَب ، ونَزَا نَزَوَان العُنظَب ، فقلت له : قاتلك الله ! أتَنْطَلِق مُتَبخْتِراً ، وتَدَعُنى متحيِّراً ! فقال : أظنّك تدّعى الخَيْرة ، لِتَجْلِدَ عُمَيْرة ، وتَسْتَغنِى عن المُهَيْرة . فقلت له : قبَّح الله ظَنَّك ، ولا أشبَّ قرنَك . ثم رُحْتُ عنه مَرَاح الخَزْيان ، وتُبتُ من مشاورة الصبيان .

* * *

قوله: أترهَّب ، أى أترك التزويج، والتَّرهب ترك النساء . انتهزنى : زجرنى وأخذنى بلسانه . زَلّة : سقطة . استبان : ظهر . الأفّ وسخ الأذنين ، والوهن : الضعف والخسران . ولأولئك، إشارة للرهبان . السَّكن : الزوجة يُسكَن إليها تَرُبّ : تصلح . تلبّى : تجيب . تَغُضّ طرفك ، أى تحصّنك وتمنَعك من نظر النساء . عَرْفك : ريحك الطيب . وقرّة العين : ما يتمنى وتقرّ به العين .

ريحانة : شجرة طيّبة الريح ، وريحانة من صفة المرأة . قال علىّ رضى الله عنه فى وصيته لابنه محمد بن الحنفية : « لا تملِّكن المرأة من الأمر مايتجاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، وإن ذلك أدْوَمُ لحالها وأرضى لبالها » .

وما أحسن ما قال ابن اللّبـــانة يرثى أختَ المرتضى صاحب مُيورقة ، وماتت بعد أخيها :

أبنْتَ العـلا جدَّدْت منعى على منعى
مضَى المرتضى أصـلاً وأتبعتِه فرعَا
جرى الموت جَرْىَ الريح فى منبتيكما
فأذوَاكِ ريحـــانًا وكسَّرَهُ نَبْعَا

تَعِلة : أى تتعلّل وتنتفع بما عندها من القيام بمؤنتك . ومُتعة : ما يُتمتّع به ويتلذذ . المتأهلين : المتزوّجين الذين لهم أهل . شِرْعة : طريقة . المحصَنين : المتزوجين . نزا : وثب وارتفع . العُنْظُب : ذكر الجراد .

[فصل فى الزواج واختيار الأزواج]

ونذكر هنا فصلا يليق بهذا الموضع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعطاف بن وداعة الملالى : « يا عطّاف ألك امرأة ؟ قال : لا قال : فأنت إذًا من إخوان الشياطين ، إن كُنْتَ من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت مِنّا فسنّتنا النـكاح » .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ركعتان من المتأهّل خير من اثنتين وثمانين ركعة من العزَب » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تزوّجوا الوَلُود الودود من من النّساء فإنى مكاثرٌ بكم الأمم » .

وقال صلى الله عليه وسلم « النّساء ثلاث : صِنفٌ كالرحَى تحمِل وتَضَع ، وصِنفٌ كالعَرّ وهو الجرَب ، وصِنفٌ ودَود ولود تُعين زوجَها على إيمانه فهى خيرٌ له من الـكنز » .

ابن عمرو رضى الله عنهما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى على أمتى مائة وثلاثون سنة فقد حلّت لهم العزبة والترهّب فى رءوس الجبال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

وقال خالد بن صفوان لرجل : أتزوجت؟ قال : لا ، قال: فتزوج، ثم قال بعد ساعة : لا تتزوج ، فقال : لم ؟ قال : إنك إن تزوّجت واحدة فتطهر إن طَهُرت وتحيض إن حاضت وتغضَب إن غضبت، فإن تزوّجت باثنتين تقع بين ضَرّتين ، فإن تزوجت ثلاثاً تقع بين أثافٍ ، وإن تزوجت بأربع يغلّسنَك ويُهْزِ منك . قال : أفتحرّم ما أحلّ الله لك ؟ قال : لا ، ولكن كُوزان وحِماران وعباءة وقُرْصان .

وقال رجل : أردتُ النّكاح فقلت : لأستشيرن أوّل مَنْ يطلع علىّ ، فأعمل برأيه ، فأول مَنْ طلع علىّ هبنّقة القيسىّ الأحمق وتحته قصبة ، فقلت له : إنى لأستشيرك فى النّكاح ، فقال : البِكْر لك والثّيّب عليك ، وذات الولد لا تقرْبها ، واحذر جوادى لا ينفحك .

وقال رجل لولده: يا بنىّ لا تتخذها حَنّانة ولا أنّانة ولا منّانة ولا عَشِبة الدار ولا كية القفا ، فالحنّانة التى لها ولَد من غيره فهى تحنّ إليه ، والأنانة : التى مات زوجها فهى إذا رأت الثانى أنّت للأوّل وقالت : يرحم الله فلانا ، والمنّانة التى لها مال ، فهى تمنّ به على زوجها متى احتاج إليه ، وعَشِبة الدار : خضراء الدّمن ، وقد تقدّمت ، وكية القفا : التى انصرف ابنُها أو زوْجَها من بين القوم قال رجل قد كان بينى وبين أمّ هذا أو زوجته شىء .

وسُئِل أعرابىّ عن النساء ، وكان ذَا تجربة لهنّ فقال : أفضلنّ أطولهنّ إذا قامتْ ، وأكظمهن إذا قعدَتْ وأصدقهن إذا قالت، التى إذا غضبت حلمت وإذا ضحكت تبسّمت ، وإذا صنعت شيئاً جوّدت ، التى تلزم بيتَها ولا تعصى

زوجَها العزيزة فى قومها ، الذليلة فى نفسها ، الودود الوُلود ، وكلّ أمرِها محمود .

نظر خالد بن صفوان إلى جماعة فى مسجد البصرة فقال : ما هذه الجماعة ؟ قالوا : امرأة تَدُلّ على النساء ، فأتاها فقال لها : أبغى امرأة ، قالت : فصفها ، قال : أريدها بِكْراً كثيّب ، أو ثَيِّباً كبكر ، حُلْوة من قريب ، ضخمة من بعيد ، كانت فى نعمة ، وأصابتها حاجة ، ففيها أدب النّعمة وذلّة الحاجة ، إذا اجتمعنا كنّا أهلَ دنيا ، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة ، قالت : قد أصبتُها لك ، قال : فأين هى ؟ قالت : فى الرفيق الأعلى من الجنّة فاعمل لها .

[حكاية خالد بن صفوان مع أبى العباس السفاح وزوجهِ أم سلمة]

وقال خالد لأبى العباس السَّفَّاح ـ وكانت عنده أُمُّ سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومىّ ، وكان تزوَّجها قبل الخلافة ، وحلف ألّا يتزوج عليها ، ولا يتسرَّى ـ : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى تفكّرت فى أمرك ، مع سَعَة ملكك ، وقد ملَكَتْك امرأة واحدة ، إن مرضتْ مرضتَ لمرضها ، وإن غابت غبْتَ ، وحرَمتَ نفسك التلذّذ بالجوارى ومعرفة جلالتهنّ ، فإنّ منهنّ الطويلة الغَيْداء ، والفضة البيضاء ، والعقيقة الأدْمَاء ، والرقيقة السَّمراء ، والبربرية العجزاء ، يفتنّ بمحادثتهنّ . ونأتك عن بنات الأحرار والنَّظر إليهنّ ، ولو رأيت الطويلة البيضاء ، والسمراء العيناء ، والبيضاء العجزاء ، والمولدات من البصريات والكوفيات ذواتِ الألسن العذْبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصَّرة والأصداغ المزرنقة ، والعيون المكحلة ، والثدىّ المحقّقة ، وحسن زينتهنّ وشكلهنّ ، لرأيت شَكَلاً حسناً ، فقال له : ويحك يا خالد ! ما سلك مسامعى والله كلامٌ أحسنُ مما سمعت منك . فانصرف وبقىَ أبو العباس متفكّراً . فدخلتْ عليه أم سلمة فرأته ، مغموماً فقالت له : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، هل أتاك خبرٌ فارتعت له ؟ قال : لا ، قالت : فما قصَّتُك ، فزوَى وجهَه عنها ، فلم

تزل به حتى أخبرها ، قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ! فخرجتْ مغضَبة ، وأرسلت إليه جماعة من العبيد ، وبأيديهم مقامعُ من حديد ، وأمرتهم ألّا يتركوا من خالد عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفتُ مسروراً لما رأيتُ من إعجابه بما ألقيت عليه ، ولم أشكَّ أنَّ صلتى ستأتينى .

فإنّى لقاعد على باب دارى ، وإذا بالعبيد قد أقبلُوا نحوى فلم أشكَّ فى الجائزة ، فسألوا عنّى فقلت : أنا خالد ، فأهوى أحدُهم إلىّ بهراوة فوثبتُ إلى منزلى ، وعلمت أنى أُتيتُ من أم سلمة . وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً ، وأنا مستخفٍ ، فهُجِم علىّ فى الثالث ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت ، فدخلتُ عليه وليس فى وجهى دم ، فسلّمت وجلستُ ، وإذا خلف ظهرى سِتْرٌ خلفه حركة . فقال لى : يا خالد أين كنت منذ ثلاثة أيام ؟ قلت : عليلاً ، قال : إنَّك وصفت لى من أخبار النساء والجوارى مالم يخرق مسامعى قطّ شىء أحسنُ منه ، فأعِدْه علىّ ، قلت : نعم أعلمتك يا أمير المؤمنين أنَّ العرب اشتقت اسمَ الضرّة من الضّر ، وإن أحدهم لم يكنْ عنده أكثرُ من واحدة إلا كان فى جَهْدٍ . قال : ويحك لم يكن هذا فى الحديث ! قلت : بلى والله ، وأعلمتك أنَّ الثلاث من النساء كأثافىّ القِدْرُ يُغْلَى عليهنَّ . قال أبو العباس : برئتُ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعتُ هذا منكَ فى حديثك ، قلت : وأخبرتُك أنَّ الأربع شؤم مجتمع لصاحبهنَّ ، يُسْقِمْنه ويُهْزِمنه ويُشَيِّبْنَه . قال : والله ما سمعت هذا منك قطّ ! قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! وتكذّبنى ! قلت : وتريد أن تقتلَنى ! قال : مرّ فى حديثك ، قلت : وأخبرتك أنَّ أبكار النساء رجالٌ ولكن لاخُصَى لهنَّ ، قال : وسمعتُ الضَّحِكَ من وراء الستر ، قلت : وأخبرتُك أن بنى مخزوم ريحانة قريش وعندك ريحانة من الرَّياحين ، وأنت تطمح إلى غيرها من الإماء ! فقيل لى من وراء الستر : صدقتَ والله يا عمّاه وبررْت ، وبهذا حدَّثته ، ولكنه غيّر وبدّل . فقال لى

أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك ! وفعل وفعل ! فتركته وخرجت ، فما شعرت إلا برسل أم سلمة ، ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت وبرذون وغلام ، فقبضتها[1] .

وفى هذا الحديث المليح تعلُّقٌ بما ذكر الحريرىّ من مدْح النّساء وذمهنّ ، وخالد بن صفوان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشّىْء وذمه ، وقد تقدّم فى الثالثة هذا الفنّ .

[من فصاحة خالد بن صفوان]

وقال أبو العباس السفاح لخالد وعنده أخواله الحارثيّون : كيف علمك بأخوالى ياخالد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، هُمْ هامة الشَّرَف وعِرْنين الكرم ، وغَرْس الجود، وفيهم خصال ليستْ لغيرهم،إنّهم لأصونُهم أمًّا ،وأحسنهم أمًا، وأكرمهم شيما ،وأطيبهم طعماً،وأوفاهم ذمما ،وأبعدهم هِمماً ، الجرْة فى الحرْب ، والوفد عند الجدْب ، وهم الرأس فى كل خطب ، وغيرهم بمنزلة العُجْب . فقال : لقد وصفت يا بن صفوان فأحسنت ، فزاد أخوالُه فى الفخر ، فغضِب أبو العباس لأعمامه فقال : افخر ياخالد ، فقال: أعَلَى أخوال أمير المؤمنين ؟ قال : فأين أنت من أعمامه ! قال : كيف أفاخر قوماً هم بين ناسج بُرْد وسائس قرد ، ودابغ جلد ، دلّ عليهم هدهد ، وغَرّقتهم فأرة ، ومَلَكَتْهم امرأة !

ودخل خالد على أبى الجهم العدوىّ وهو يريد ركوبَ حمار ، فقال خالد : أما علمتَ أنّ العير عار، وأنّ الحمار شنار، منكر الصوت ، قبيح الفوت ، مترنِّح فى المحْل ، مرتطم فى الوحْل ، ليس بركوبة فحل ، ولا مطية رَحْل ، راكبه مقرِف ، ومسايره مشرف . فاستوحش العدوىّ من رُكوبه ، فركب فرساً وركب خالد الحمار ، فقال : ويحك يا خالد ! أتنهى عن شىء وتأتى مثله ! قال : أصلحك الله، عِيرٌ من بنات الكداد ، أسحم السربال، مدمج الأوصال ،

(١) الخبر فى مروج الذهب للمسعودى ٢ : ٢٧٥ ــ ٢٧٨

مملج القوائم ، يحمل الرّحلة ، ويبلغ العقبة ، ويمنعنى من أن أكونَ جبَّاراً عنيداً ، أو ملكا شديداً،فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ! ذلك لك، وهذا لى . فتبسّم العدوىّ .

[ذكر مقاطيع فى أوصاف النساء]

ثم نرجع إلى جملة مقاطيع من أوصاف النساء تتبين بها أوصافهنّ ، قال العديل بن الفرخ :

لعِبَ النَّسِيم بهنّ فى أظْلَالِهِ ... حَتَّى لَبِسْنَ زمان عيش غافلِ
يأخذْنَ زينتهنّ أحسن ما يُرى ... وإذا عُطِّلْن فهنّ غير عواطلِ
وإذا أرِنّ خدودهنّ أرِنَها ... حَدَقَ المهى وأخذنَ سَهْمَ القاتلِ
ورَمَيْنَنِي لا يَسْتَتِرْن بُجنّةٍ ... إلاَّ الصِّبَا وعَرَفْن أين مقاتلِى

وقال العباس بن طرخان :

تَقَسَّمْنَ قلباً كان مجتمعَ الشَّمْلِ ... وفرَقَنهُ بين المَسَالِكِ والسُّبْلِ
زَرَعْنَ الهوى فى القلب ثم سقينه ... صَبابات ماء الشوق بالأعْيُن النّجْلِ
رَمَيْنَ فلما أن أصَبْنَ مقاتلِى ... تولَّيْنَ وانْضَمَّت جِراحى على النّبْلِ

وقال البحترى :

لمَّا مشيْنَ بذِي الأراكِ تَشَابَهتْ ... أعطاف قُضْبَانٍ به وقُدُودِ[1]
فى يمنتى حِبَرٍ ورَوْضٍ فالتقى ... وشْيَان : وَشْيُ رُبًا ووَشْيُ بُرودِ
وسَفَرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقَها ... وردان : وَرْدٌ جَنًى وورْدُ خدودِ
ومتَى يساعدنا الوصالُ ودهْرنا ... يومان : يوم منى ويوم صدودِ !

---

(١) ديوانه ٦٦٨.

وقال التهامى :

ماتَتْ لفقـــدِ الظَّاعِنين ديارُهُمْ فكأنهم كانوا لهـــا أرْوَاحا[1]
لا عيب فيهم غـــير شحِّ نسائهم ومِنَ السماحة أن يكنّ شحاحا
طرقته فى أترابِهـــا فجلَتْ له وهناً من الغرر الصِّباح صباحا

وأنشد الأصمعى :

خُزاعِيّه الأطرافُ مُرِّيّة الحَشَى نِزَاريّة العينـــين طائيّة الفَمِ
لها حُكْمُ لقمانٍ وصورةُ يوسف ونَغْمَـةُ دَاوُدٍ وعِفَّة مَرْيَمِ

وقال الأسعد بن نبيط :

غُلَامِيَّةٌ جاءت وقد جَعَـل الدُّجى لحاتمِ فيهـــا فصّ غانيةٍ خَطَّا
فقلت : أحاجيها بما فى جفونهـــا وما بالشفاه اللُّعس من حُسْنِهَا المعطَى
محبّرة العينين من غير سَكْرةٍ متى شربت ألحاظ عينيك إسْفَنْطا
أرى صُفْرَة المِسْوَاك من حُمْرة اللَّمَى وشاربك المخضرّ بالمسْـــك قد خُطَّا
عَسَى قَدَحٌ قبَّلتِـــه فإخاله على الشفة اللَّميـــاء قد جاء مُنْحَطَّا

فتصور فى البيتين قبل هـذا أحسنَ مقابلة ، وتصوّر فى البيتين من آخر هذه القطعة ثلاث تشبيهات شبّهت بشىء واحد يتضمنها جميعاً !

وقال ابن شرف :

قامَتْ تجُرُّ ذيولَ الْعَصْبِ والحبرِ ضعيفةَ الخَطْوِ والميْـــاق والنَّظَرِ
تخطُو فتولِى الحصا من حَلْيِها نُبَذاً وتخلِطُ العنـــبَرَ الوردىّ بالْعَفَرِ
تلفَّتَتْ عن طلاً وْسَنَانَ وابتسمتْ عن واضحٍ مثل نَوْرِ الرَّوضة المطِرِ

---

(١) ديوانه ١٠

مالذّ للعين نومٌ بعد ما ذكرتْ ... ليلاً سمرناه بين الضّال والسَّمُرِ
تساقَطَ الطلُّ من فوق النّحور بهِ ... تَساقُطَ الدُّرِ فى اللَّبَّات والنَّغَرِ

وقال الرمادى :

شَطَّتْ نواهم بشمسٍ فى هوادجهم ... لولا تلألؤها فى ليلهنّ عَشُوا
شكَتْ محاسنَها عينى وقد عذرتْ ... لأنها بضمير القلب تنخمِشُ
شَعْرٌ ووجْهٌ تبارى فى افتخارهما ... لحسن هذا وذاك الرُّومُ والحَبَشُ
شككت فى سَقَمى منها، أفى فرشى ... إذا تأمّلت إلّا الطيفُ والفُرشُ؟

ولبعض أصحابنا :

سَائِلْ سُقَاةَ الحىّ عن نجديّةٍ ... وردَ الحجيجُ بها سقايةَ زَمْزَمِ
صفراء كالدّينا رعُلّ تَرِيبُها ... بالزّعفران وخَدّها بالعندمِ
لبستْ بُرودَ السابرىّ فأفضلت ... من ذيلها ولبستُ جلدَ الأرْقَمِ
ياليت شعرى وهى أنْسك ناسكٍ ... لمْ تستحلّ دمَ المحبِّ المُسْلِمِ!
نبِّئْت أنّ الظاعنين بها سَعَوا ... للأجر فانقلبوا بكُبْرِ المأثَمِ
سفكوا دماء الرائحين إلى مِنًى ... بجفونها ونجوْا بسافكة الدمِ

وهذا القدر فى هذا الموضع كاف ، وقد تضمن هذا الديوان مقطعات بديعة فى أوصاف النساء .

[ما جاء فى الاستمناء]

قوله : لتجلد عميرة ، يقال لهذا الفعل الخضخضة والتدليك والاستمناء والاعتمار ، واعتمر الرجل : جمع يديه وضمّهما لذلك ، والإلطاف للنساء مثل الخضخضة للرّجال ، يقال منه : ألطفت المرأة، وقال القتيبى بيتاً ما سمعناه على وجه الدهر :

إذا مررتَ بوادٍ لا أنيس به فاضرب عُميرة لا عارٌ ولا حَرَجُ

آخر :

بيدى ورجلى لا عدِمْت كليهما أصبَحْت أغنى مَنْ يَرُوح ويغتدِى
أمشى على هـذِى وأنـكح هذهِ فمطيّتِى رِجْـلِى وجاريتى يدى

آخر :

تسألنى عن عَتـدى وعندى فإننى يا بنـة آل مرثدِ

* راحلتى رجلاى وامرأتى يدى *

وقال أعرابىّ :

إن تبخـلى بالمركب المخلوقِ فإن عنـدى راحَتِى ورِيقِى
ودَلـكاتٍ لَسْن للتَّمزيق أشهى من التصبيح والتغبيقِ

وقال الخزامىّ :

خطبتُ إلى ساعدى راحتِى وما كنتُ من شرِّ خُطَّابِها
وما إن تـكلَّفتُ من مَهْرِها سوى ريقةٍ أتجرّى بهـا
فإن شئتُ أوتَى بها ثيّباً وبكراً إذا شئت أوتَى بها
ونَزَّهت نفسِى عن الغانيات وعن ذِكْر سَلْمىَ وأترابها

وقال الحسن :

إذا أنتَ أنـكَحْتَ الكريمةَ كُفؤها
فأنـكح حسيباً راحـة لابن ساعدِى
وقل بالرِّفا ما نلت من وَصْل حرّة لهـا ساحة حُفت بخمسِ ولائدِ

وقال ابن الرقعمق :

ومن بلائى أبو عمير ... معرَّضٌ بى إلى المنونِ
منتصباً ما ينـام وقتاً ... ولَيْس يهدَا من الزَّنين
من يك ذا زوجة فإنى ... لشقوتى زوجتى يمينى
عميرة قد جلدتُ حتى ... خشيت والله تجلدونِى
فراقبوا الله فى يمينِى ... وخلِّصوها وزوّجونى

وقال آخر يشتكى غلظ يده :

لو أنها لَدْنَةٌ قضيتُ من وطرِى ... لكنه خَشِنٌ أربى على السَّفِنِ
أشكو إلى الله نعظاً قد مُنِيت به ... وما ألاقى من الإملاق والحزَنِ

آخر :

ومغتابٍ إذا نبحَا ... يظنّ سواه قد جُرحَا
ومَنْ لم يدر لم يألم ... فعاد عليه ما اجْتَرَحَا
كنا كح كفّه يَنْوى ... فتاةً كانَ قَدْ لمحا
وما نكح الفتى أحداً ... ولكنْ نَفْسَه نكحَا

فنكاحُ الكفّ هو جَلْد العميرة .

قال ابن أبى الأزهر : مررت على بَرذعة الموسوس ، وقد أدخل يدَه فى جَيْبه ، وهو يخضخض ، فضربتُه برجلى ، فانكشف ، فإذا هو منعظٌ ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أما تَرى تلك ! وأشار بيده إلى جارية جميلة فى عِلِّيّة متطلعة ، فقال : إنى دعوتها إلى نفسى فلماً لم تجبْنى أجبتها ، فقلت : قبّحك الله ! وولّيتُ عنه. فلم يلبث أن لحِق بى ، وَقال : قضيتُ الحاجة على رغم أنفك ، ثم أنشدنى :

أأنكرْت ماعَايَنْتَ من كنِّ دالِك ... وهل يُنكَرُ التدليك فى قول مالِك

لقد أمِنَ الدُّلاَّكُ من أن تنالهمْ حُدود الزِّنا فى واضحاتِ المسالكِ
وإنّى قد سكّنت عــزمة عملتى بحسن عيون والثـدىّ العواتك

كذب على مالك والشافعى ، وعامةُ العلماء يحرّمون الاستمناء ، وحجتهم قولُهُ تعالى : ﴿والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلَّا على أزواجِهِمْ أو مَامَلَكَتْ أيمانُهم فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ﴾ .

الفنجديهى : وقد جاء فى تحريم الخضْخضة حديث مشهور ، وسندُه إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ولا يجمعهم مع العالمين ، ويُدْخِلهم النار مع الداخلين ؛ إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومُدمِن الخمر ، والضّارب أبويْه حتى يستغيثا ، والمؤذِى جيرانَه حتى يلعنوه ، والناكح حليلةَ جارِه » . وإنّما رُوِيت الرخصة فى ذلك عن عمرو بن دينار .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن الخَضْخضة فقال : نكاح الأَمَة خيرٌ منها وهى خير من الزنا .

الأزهرى : أبو عمير ذَكَر الرجل .

الفنجديهى : سمعتُ الحافظ أبا العلاء يقول : الخضخضة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل جائزة لمن استولَتْ عليه الشّهوة حتى خاف على نفسه إتيان الفواحش .

أبو الفرج محمد بن أبى جعفر الطائىّ بهَمَــذَان ، قال : أنشدنا الإمام أبو المظفّر المعاوِى لنفسه ، وكان من أروع الفضلاء وأزهدهم :

خليلىّ لا بغــداد تدنُو فتنقضِى همومى ولا الرىّ البغيضة تبعدُ
فليس من الأنصاف والعدلُ أنكم تنيكون ربّات الحجال ونُجْلَدُ
وترْضونَ بالحرمان للفيْشة الّتى على غضب باتت تقومُ وتقعــدُ

فلا تحسبو جَـلْدِى عُميرة وصمةً علىّ فقد أفتى بهـا الشَّيْخُ أحمدُ
ولو وسعتها راحـتى لاحتملتُها فما حيلتى إذ ضاق ذرعاً بها اليدُ

وذكر بيتين آخرين .

قال : وأنشدنى إمام أهل اللغـــة أبو المعالى إسماعيل بن الحسن البديع لبعضهم :

إنّمـــا همِّى كُسَيْرَهْ نشفت ماء قُدَيرَهْ
وخميرةٌ فى ذُكَيرَه بُلْغَتِى منها سُكَيْرَهْ
وغلام أو فتـــاة قد كِفى جلدَ عُمَيْرَهْ
مَنْ رأى عيشىَ هذا عاش لا يؤثر غَيرَهْ

قال : وأنشدنى البديع أيضاً لبعضهم :

يا سيدى نحن فى زمان أبدلَنا الله منـه غَيْرَهْ
فكل ذى خِسَّةٍ وذلٍّ مَتّـع بالطّيبات أيرَهْ
وكل ذى فطنة وكَيْسٍ يجـلِد فى بيته عُمَيْرَهْ

* * *

قوله : أشَبَّ قرنك : يُدْعَى بذلك للصبىّ أن يكبُر وتطول قامته ، كما تقول للصبىّ فى ضدّ ذلك: لا كبرّك الله . ويقال : شبَّ الصبىّ يشِبُّ بكسر الشين شَباباً بفتح الشين وكسرها ، إذا طال ونَما جسمهُ والصبىّ شاب ، وأشبَّ الله قرنه، أى جعله شاباً أسود الذؤابة ، والقَرْن الضفيرة ، وهى الذؤابة وقيل: القَرْن جانب الرأس . المَرَاح كالرَّواح . الخزيان : المُهان والمستحيي ، وخِزِىَ يَخْزَى خِزْياً : أهين ، وخزايةً استحيا ، فهو خَزْيان أى مستحى ، وقوم خزايا .

وتُبتُ من مشاورة الصبيان ، قال عمر رضى الله عنه : خصلتان من علامة الجهل : مشاورة النِّساء والصبيان ، واستكتام السرّ النساء والصبيان .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلتُ له : أُقْسِم بِمَنْ أنبتَ الْأَيْك ، أنَّ الجـدَل مِنْك وإليك ؛ فَأَغْرَبَ فى الضَّحِك ، وطَرِب طَرْبَةَ المُنْهَمِك ، ثم قال : الْعَقِ العسل ، ولا تَسَلْ ، فأخـذتُ أُسْهِبُ فى مدْح الأدب ، وأفضِّل ربَّه على ذِى النَّشَب ، وهو ينظر إلىَّ نظرَ المستهجِل ، ويغضى عنِّى إغْضاءَ المتمهِّل . فلما أفرطتُ فى الْعَصَبِيَّة ، لِلْعُصْبةِ الأَدَبِيَّة ، قال لى : صَهْ ، واستمع منِّى وافْقَهْ :

يَقُولُونَ إنَّ جَمَالَ الْفَـتَى وزينتَـهُ أدبٌ رَاسِـخُ
وما إن يَزِينُ سوَى المـكثرين ومَنْ طَوْدُ سُـــودَدِه شامِخُ
وأمَّا الفقيرُ فخـــيرٌ لَهُ من الأدب القُرْصُ والكامِخُ
وأىُّ جمالٍ أن يقـال أديبٌ يعـــلِّمُ أو نَاسِخُ !

ثم قال : سَيَضِحُ لك صدق لَهْجَتِى ، واستنارة حُجَّتى .

* * *

الأيك : شجر . الجدَل منك وإليك ، أى إنّما كان هـذا الخصام بينك وبين نفسك ، ولم يكن ثَمّ صبى تحاوره ، أى أن حديثَك مصنوع لاأصل له .

[بعض الحكايات المصنوعة]

ومن مستعمَل الأخبار المصنوعة مايحكى أن حبيب بن أوس ، قال : لقِيَنا أعرابىٌّ ، وقد خرجتُ فى أيام الواثق إلى سرّ مَنْ رأى ، فقلت له : ممنْ ؟ قال : من بنى عامر ، قلت : كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال : قَتَل أرضاً عالِمُها ، قلت : ما تقول فى أمـير المؤمنين ؟ قال : وثِق بالله فكفاه ، أشجى العاصية ، وقمَع العادية ، وعدل فى الرعيَّة . قلت : فما تقول فى أحمد بن أبى دواد ؟ قال : هَضْبة

لا ثرام ، وجبل لا يُضام ، تشْحَذله المُدَى ، وتُنْصَب له الحبائل ، حتى إذا قُيِّد وثب وثبةَ الذئب ، وَخَتل خَتْل الضّب . قلت : فمحمد بن عبد الملك ؟ قال : وسعَ الدانيَ شرُّه ، ووصل البعيد ضُرُّه ، له فى كل يوم صريع ، لا يُرَى فيه أثر نابٍ ، ولا نَدَب مِخْلب ، قلت : فما تقول فى الفضْل بن مروان ؟ قال : ذلك الرجل نُشِرَ بعد ما قُبِر ، فعليه حياة الأحياء ، وخَفْته الموتى . قلت : فابن الخصيب؟ قال : أكَل أكلة نَهِم،وذرق ذرقة بَشِم ، قلت : فأخوه إبراهيم؟ قال: أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أيان يُبْعثُون ، قلت فأحمَدُ بن إبراهيم ؟ قال : لله دَرُّه! أىّ رجل هو ! اتَّخذ الصَّبر دثاراً، والحق شعاراً ، وإن هوّن عليه يهمّ ، قلت : فسليمان بن وهب ؟ قال : ذلك رجلُ السلطان ، وبهاء الدّيوان ، قلت : فأخوه الحسن ؟ قال : عُودٌ نضير ، غُرِسَ فى منابت الكرْم حتى إذا اهتزّ لهم حَصَدُوه ، قلت: فإبراهيم بن نجاح ؟ قال : ذلك رجَلٌ أوثقه كرمُه ، وأسلمه حسبُه ، وله دعاء لا يُسلِمه ، وربٌّ لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه ، قلت : فنجاح ابن سلمة ؟ قال : لله درّه أىّ طالبِ وتْر ومدرك ثأر ! يلتهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة فى الأنام جلسة تزيل نعماً ، وتحلّ نقماً ، قلت : يا أعرابىّ أين منزلك ؟ قال : اللهمّ غَفْراً إذا اشتمل الظَّلام،وألتحف الليل،فحيثما أدركنى الرّقاد رقدت ، ولا أخلق وجهى بمسألتهم ؟ أما سمعت هذا الطائىّ يقول :

وما أبالى وخيرُ القوم أصـــدقُه حَقَنْتَ لى ماء وجهى أو حقنْتَ دمى

فقلت له : أنا قائل هذا الشعر ، قال : أنَّك لأنت الطائى ! قلت : نعم ، قال : لله أبوك ، أنت الذى تقول :

ماجودُ كفّك إنْ جَادَتْ وإن بخلت من ماء وجهى إذا أخلقتَـــه عِوَضُ

قلت : نعم ، قال : أنت أشعر أهل زمانك .

ونُمِى خبره إلى ابن أبى داود فأوصله إلى الواثق ، فأعطاه ألف دينار ، وأخذ له من أهل الدولة ما غَنِىَ به عَقِبُه بعده .

وهذا الخبر خرج عن أبى تمـــام ، فإن كان صادقاً[1] وما أراده ، فقد أحسن الأعرابىّ الوصف،وإن كان صنعه فقد قَصَّر إذ منزلتُه أكبر من هذا .

* * *

قوله : أغرب ، أى أكثر الضحك حتى دمعتْ عيناه . المنهمك : المبالغ الطرب . العق العَسَل ولا تسَلْ ، معناه إن طابَ لك الكلام فاحفظْه ولا تسل عن صدقه ولا باطله ، كما إذا وجدب العسل حلواً فلا يلزمك السؤال عن نَحْله وقد قال فيما مضى :

* ولا تسأل الشَّهد عن نَحْلِهِ *

فهذا هو ذلك . أُسهِب : أبالغ وأكثر . ذى النّشب : صاحب المـال . يغضى : يتغافل . المستجهل : الذى يحسَبُنى جاهلا . المهل : المؤخّر ،وقد أمهله أى أخّره . صه : معناه اسكت. القُرْص : الخبز ، وتسمّى الخبزة قرصة ؛ لأن الخابز يقرصُها من العجين ، أى يقطعها .

[الـكامخ]

والـكامخ : شىء يصنع من اللّبن الحامض ، وهو أنواع .

وقد قُدِّم لأعرابىٍّ كامخ ، فقال : ما هـــذا ؟ قالوا : كامخ ، فقال : قد علمت فأيُّكم كمخ به ؟ يقال : كمخ البعير إذا أخرج تَلَطه رقيقاً .

وقُدِّم لأعرابيّين كامخ ، فذاقَه أحدهما ، فلم يستطبْه ، فقال : هـذا خرء ، وذاقه الآخر فاستطابه ، فقال : يوشك أن يكون خرء الأمير !

وقدِّم لأعرابىّ كامخ فلم يستطبْه قال : ما هـــذا ؟ قالوا كامخ ، قال : ومن أىّ شىء صُنع هذا ؟ قالوا : من الحِنْطة واللّبن قال : أبوان كريمان : وما أنجبَا .

---

(١) الخبر فى أخبار أبى تمام للصولى ٨٩ ــ ٩٣

وقُدّم لأعرابى كامخ ، فلم يستطِبْه ، وأكل منه شيئاً وخرج ، ودخل المسجد والإمام فى الصلاة يقرأ : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتة والدّمُ ولَحْمُ الخِنزير ﴾، فقال الأعرابىّ : والكامخ لا تَنْسه أصلحك الله !

وقيل : هو طعامٌ يؤتدَم به .

وقيل : هو البقل فى الطعام مثل الكبر والزّيتون والمرىء والعنّاب إذا غلب طخاء الشحم على المِعدة ، أخذ الرَّجُل منه شيئاً ، فانجلى عن معدتِه ، وتنشَّط للأكل .

وقال أعرابى يصف إبطيه بالنَّتَن :

كأن إبْطَىّ وقد طال المَدَى نفحة خُرْءٍ من كَوامِيخ القُرَى[1]

الأصمعىّ : قدم علينا أبو طَيْبَة الأعرابىّ بعد ما خرج إلى البادية ، وتفقّه ، فقلنا له : ما قولك فى البيْض ؟ قال : حرام ، فقلنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِين هَادُوا حَرَّمْنا كلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ والدجاج عندى من ذوى الأظفار . قلنا : فما قولك فى الكامخ ؟ قال : حرام ، قلنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنْسَان منْ صَلْصَالٍ كَالْفُخَّار ﴾ ، والكامخُ يتخّذ من الفخار ، فأظنُّ بينه وبين الجلْد نسبا .

قوله : وافقه ، معناه افهم . راسخ : ثابت . المكثرين : الأغنيـــاء . طَوْد سؤدده : ارتفاع سيادته . والطَّوْد : الجبل . شامخ ، أى ثابت مرتفع . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يأتى على النَّاس زمان مَنْ لم يكن معه فيه أصفَرُ وأبيض لم يتمتّع العيش » ـ يعنى الذهب والفضة .

وقال مهيار الديلمىّ :

تشرف بحظٍّ فإن الحظوظَ حُلَى كلِّ ذى نسبٍ يفضُلُ[2]

(١) عيون الاخبار ٤ : ٦٣ (٢) ديوانه ٣ : ١٢٦

وما الحظّ فى أدبٍ مُفْصحٍ وَمِنْ دونه نسبٌ مُجهـلُ
تُرَاضِى الفتى رتبة وهو حيث يجعلُه ماله يُجْعَـلُ

وقال ابن قاضى ميلة :

أسْعد بجـدِّك لا تـكونُ أديبا أو أن يرى فيك الورى تَهْـذِيبا
إن كنتَ مستوياً ففعلك كلُّه عِوجٌ، وإن أخطأت كنت مصيباَ
كالنَّقش ليس يصحُّ معنى خَتْمِه حـتَّى يكون بناؤُه مقلوباَ

قوله : لَهْجتى ، أى منطقى ، وقيـل : هى جَرْس الـكلام ، وقيل : هى طَرَف اللسان ، وفلان فصيح اللَّهجة ، وهى لغته التى جُبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها . استنارة : ظهرر نُورِها .

* * *

وسِرْنا لا نَألُو جُهْـداً ، ولا نستفيق جَهْداً ؛ حتَّى أدَّانا السَّير ، إلى قريةٍ عَزَبَ عنها الخَيْرُ ، فدخلناها للارْتِيَاد ، وكِلاَنَا مُنْفِضٌ من الزّاد ؛ فما إنْ بَلَغْنَا المَحَطّ ، والمناخَ المُخْتَطّ، أو لَقِيَنَا غلامٌ لم يبلُغ الحِنْث وعلى عاتقه ضِغْث. فحيَّاه أبو زيدٍ تحيَّة المُسْلم ، وسأله وَقْفَةَ المُفْهِم ، فقال : وعمَّ تسأل وفّقك الله ؟ قال : أيُبَاع هاهنا الرُّطَب بالخُطَب ؟ قال : لا والله . قال : ولا البَلَحُ بالمَلَح؟ قال : كلاَّ والله ، قال . ولا الثَّمر بالسَّمَر؟ قال : هيهـات والله . قال : ولا العَصائد بالقصائد ؟ قال : اسْكُتْ عافاك الله . قال : ولا الثَّرائِدُ بالفرائد ؟ قال : أين يُذهبُ بِكَ أَرْشَدَك الله ! قال : ولا الدَّقيق بالمعنى الدَّقيق ؟ قال : عَدِّ عن هذا أصلحك الله !

* * *

نألو : نقصّر . جهداً : طاقة واجتهاداً . نستفيق جُهْداً : نستريح من المشقة. أدَّانا : أوصلنا . والقرية : فى كلامهم: الموضع الَّذى يجتمع الناس فيه ، وقَرَيْتُ الماء فى الحوض جمعتُه فيه . وعَزُب : بَعُد . للارتياد : لطلب ما يُؤْكل . مُنْفِض : فارغ ، وأنْفَضَ : فنِيَ زادُه فنفض مِزْودَه من الفُتات . المحطّ : المنزل الَّذى تُحَطّ فيه الأحمال . والمناخ : مثلُه فى المعنى . والمُختطّ : المُعْلَم عليه بخطّ ، وكلُّ موضع أردتَ حمايتَه ومنعَه خَطَطْتَ عليه بخطّ ، فمن رآه علم أنه محميٌّ فاجتنبه . الحِنْث : الإثم ، أى لم يبلغ حَدَّ التكليف ، وهو الحلم فيكتب عليه إثم . على عاتقه ضِغْث ، أى على عُنُقه حزمة حَشيش ، والعاتق : ما بين المَنْكِب والعنُق ، والضِّغْث قبضةٌ من أخلاط النبات أو من قُضْبَان مختلفة . المُفْهِم : المخبر المبين . أيباع هاهنا الرُّطَبُ بالحَطَب ؟ الرُّطب والبلح نوعان من التَّمر . والسَّمَر : السهر باللَّيل على الحديث . هيهات ، أى بعد .

ابن عباسٍ رضى الله عنهما : ما باع الدقيق برٌّ ولا فاجرٌ إلَّا أصفرّ لونُه وقسا قلبُه ، ونُزِعت الرَّحمةُ من قلبه .

الفرائد : جواهر الكلام . أين يذهب بك : أين تتلف وتضلُّ ! ولذلك دعا له ، فقال : أرشدك الله ، أى هداك الطريق . عَدّ : كُفَّ واصْرف .

* * *

واسْتَحْلَى أبُو زيدٍ تَراجُعَ السُّؤالِ والجوَابِ ، والتَّكَايُلَ مِنْ هذا الجِرَاب . ولَمَحَ الغلام أن الشَّوْطَ بَطِين ، والشَّيْخَ شُوَيْطِين ، فقال له : حسبُك يا شيخُ قد عَرَفْت فنَّك ، واسْتَبَنْتُ أنَّك ، فخذ الجوابَ صُبرَة ، واكْتفِ به خُبْرَة ؛ أمَّا بهذا المكانِ فلا يُشْتَرى الشِّعْرُ بشَعِيرة ، ولا النَّثْر بنُثارَة ، ولا القَصَصُ بقُصاصة ، ولا الرِّسالة بغُسَالة ، ولا حِكَمُ

لُقْمان بِلُقْمة ، ولا أَخْبَارُ المَلَاحِمِ بِلَحْمة . وأما جيلُ هذا الزمان ، فما منهم من يَمِيح ، إذَا صِيغَ لَهُ المَدِيح ، ولا مَنْ يُجيز ، إذا أنشِد له الأَرَاجيز ، ولا مَنْ يُغيث ، إذَا أَطْرَبَهُ الحَدِيث ، ولا مَنْ يَمِير ، ولو أنَّه أمِير . وعندَهم أن مثلَ الأديب ، كالرَّبع الجديب ، إن لَمْ تَجدِ الرَّبعَ دِيمة ، لم تكن له قِيمة ، ولا دَانَتْه بَهِيمة . وكذلك الأَدَب ، إنْ لم يَعْضُدْه نَشَب ، فَدَرْسُه نَصَب ، وخَزْنه حَصَب . ثم انْسَدَرَ يَعْدو ، وولَّى يَحْدُو .

* * *

لمح : نظر . الشَّوْط : الطلَق والجرْى إلى الغاية : الأخفش الشَّوْط أن تأْتِيَ إلى موضعٍ تريده ، ثم ترجع وإن رجعت إليه مرَّة أخرى ، فذلك شَوْطٌ آخر ، ومن الحجر إلى الحجر شَوْط : وجَرَى الفرسُ شوطًا إذا بلغ مجراه ثم عاد . بَطِين : متَّسِع ، ومعناه : علم أن كلام الشيخ كثير . ورجل بطين : عظيم البطن ، وكيس بطين ، أى ملآن ، وأخذه من قول كعب بن زهير :

وَزَحْزَحْنَ بين أداني الغضى وبين عُنَيْزَة شـــوطًا بَطِينا

شُويطين ، أى دويهية لا تقاوم ، وتصـغيره بمعنى التعظيم . حسبك : يكفيك . فنّك : نوعك وطريقك . استبنت أنّك ، أى تحققت أنك داهية : صُبرَة : أى جملة بغير كيل ، وكَدْسُ القمح ، وما يكال يُسمَّى صُبْرَة . اكتف : اقتنع . خبرة : اختبار . النثر : ضد النظم مثل التراسل والخطب . والنُّثار : ماتناثر من الشيء ، أى تفتّت ، تقول : نثرت الشيء أى رميتُ به مُفْتَرِقًا ، واسم ما يتساقط منه النُّثارة . والقَصَص : أخبار المتقدمين . والقُصَاصة : ما تساقط من الشَّعرِ إذا قُصَّ . والغُسالة : الماء الذى قد غُسِل به بقيَّة الطعام أو غير ذلك

ويروى : « بفضالة » ، مكان غسالة ، والفُضَالة من الزرع إذا غُرْبِل تبقَّى فى الغربال فتدرَس بعد ذلك ، ويخرَج ما فيها من الزَّرْع .

وأنشد الْفَنْجَدِيهىّ فى هذه المعانى :

عرضت على الخبَّاز نحوَ المبرَّدِ ... وكُتْبًا حِساناً للخليل بن أحمدِ
ورؤيا ابن سيرين وخَطّ مهلهلٍ ... وتجويد عمرٍو بَعْدَ فقه محمّدِ
وأنشدته شعر الكُمَيْتِ وجَرْوَلٍ ... وغنَّيْتُهُ لحنَ الْغَرِيضِ وَمَعْبَدِ
فما نفعتْنِى دون أن قلتُ هاكها ... مدوّرة صُفْراً تطنّ على اليدِ

وقال أخبرنى أبو المحاسن بن أبى العلاء بن محمد الأديب ، قال : أنشدنيه لنفسه أبو يوسف بن محمد يعقوب الأديب .

[ذكر لقمان عليه السلام]

قوله : ولا حكم لقمان بلقمة ، فى لقمان سَبْعَةُ أقوال :

قال قتادة : خيَّره الله بين النبوَّة والحِكْمة ، فاختار الحِكْمَة ، فقذفها عليه جبريلُ ، وهو نائم ، فأصبح ينطِق بالحكمة ، فسئِل عن ذلك ، فقال : لو أرسل الله إلىّ النُّبوّة عزمةً ، لرجوتُ الفوز بها ، ولكنَّه خَيَّرَنِى فخفت أنْ أضعُف عن النبوّة .

وقيل : كان من النُّوبة قصيراً أفْطَس الأنف .

وقيل: كان حبشيًّا .

سعيد بن المسيّب : كان أسود من سُودان مصر ، ذا مِشْفَرٍ ، حكمتُهُ حكمة الأنبياء .

وقيل : كان خياطاً .

وقيل : كان راعياً ؛ فرآه رجلٌ كان يعرِفه قبل ذلك ، فقال: ألستَ عبد بنى فلان كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى ؟ قال : فما بلغ بك ما أرَى ، قال :

وما يُعْجِبك من أمرى ؟ قال : وطء النَّاس بساطَك ، وغشيانُهم بابَك ؟ ورضاهم بقولك ؟ قال : يابن أخى ، إن صنعتَ ماأقولُ لك كنتَ كذلك ، قال : وما تَصْنَع ؟ قال غضّ بصرى ، وكفّ لسانى ، وعفّة طعمى ، وحفظ فَرْجِى ، وقيامى بعَهْدِى ، ووفائى بوعْدِى ، وتكرِمة ضيفى ، وحفظ جارى ؛ وترك مالا يعنينى ؛ فذلك الَّذِى صيَّرَنِى كما ترى .

ويروى أنه قال : قَدَر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك مالا يعنينى .

أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة تزيد الشريف شرفاً ، وترفع المملوكَ حتى يجلسَ مجالس الملوك ، قال اللهُ تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1] .

وقال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعالبىّ المفسّر : اتفق العلماء على أنّ لقمان كان حكيماً ، ولم يكن نبيًّا ، إلا عكرمة فإنّه تفرّد بأنه نبىّ .

ابن عمر رضى الله عنهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حقًّا أقول ، لم يكن لقمان نبيًّا ولكن كان عبداً صَمْصَامَة ، كثير التفكّر ، حسن اليقين ، أحبَّ الله فأحبَّه ، ومنَّ الله عليه بالحكمة » .

وهب بن منبّه : كان لقمانُ ابنَ أخت داود عليه السلام ، وقيل : ابن خالته ، وكان فى زمنه ، وكان داود يقول له : طوبى لك ! أُوتيتَ الحكمة ، وصرفتَ عنك البلوى ، وأُوتِىَ داودُ الخلافة وبُلِىَ بالبليَّة . وكان داود يَغْشَاه ويقول : انظروا إلى رجلٍ أوتِىَ الحكمة ، ووُقِىَ الفتنة .

عبد الوارث : أوتى لقمانُ الحكمة فى قالةٍ قالها ، فقيل : وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحقّ ؟ فقال : إن تختر لى فسمعاً وطاعة ، وإن تخيِّرنى أختار العافية . قيل : وما عليك أن تكون خليفة فتعمل بالحق ؟ قال : فإنْ أعمل بالحقّ

---

(١) سورة لقمان ١٢

فبالحرَى أن أنجُو ،وإن أخطىء الحق أخطِىء طريق الجنَّةِ ، وإنه مَنْ يبع الآخرة بالدنيا يخسرْهما جميعاً ، وأن أعيش حقيراً ذليلا أحبُّ إليّ مِنْ أن أعيش قويًّا عزيزاً . فشكر الله تعالى مقالتَه،ففَطِنَ فى الحكمة غَطَنَ فأصْبَح وهو أحكم الناس

وقيل : كان عبداً نجَّاراً فقال له سيِّده : اذبح شاةً وأتنى بأطيب مُضْغَتَين ، فأتاه بالقلب واللسان ، ثم أمره بمثل ذلك ، وأن يُخْرِج أخبثَ مُضْغتين ، فأخرج القلب واللسان ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : ليس شىء أطيَبُ منهما إذا طابا ، ولا أخبثُ منهما إذا خَبُثَا .

وأما حكمتُه فقد ذكر الله تعالى منها فى كتابه ما عُلم ، وذكر مالك فى مُوَطَّئِه منها كلاماً كثيراً ، وذكر منها فصلاً فى كتاب الجامع من الموطأ .

ومن حكمته : يا بنىّ إنَّ الناس قد تَطاول عليهم ما يوعدون ، وهم إلى الآخرة سِرَاعاً يذهبون ، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت ، واستقبلْتَ الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقربُ من دارٍ تخرج منها . يابنىّ ليس غنًى كصِحّة ، ولا نعيمٌ كطيبِ نفسٍ . يا بُنىّ لا تجالس الفُجَّار ولا تماشِهم ؛ اتّق أن ينزل عليهم عذابٌ من السّماء فيصيبَك معهم ، وجالس العلماء وزاحِمْهم بركبتيْك ، فإن الله تعالى يُحْيِي القلوب الميّتة بالعلم ، كما يُحْيِي الأرضَ بوابل المطر .

أبو إسحاق الثعالبىّ بإسنادٍ له عن عكرمة ، قال : كان لقمان مِنْ أهون مماليك سيِّده عليه ، فبعثه مولاه مع عَبيدٍ له إلى بستانه يأتونه بشىء من ثمرٍ فجاءوه ومامعهم شىء ، وقد أكلوا الثمَر ، وأحالوا على لقمان ، فقال لقمان لمولاه : ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ،فاسقنى وإياهم ماء حميماً . ثم أرسِلْنَا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيئون تلك الفاكِهة ولقمان يتقيَّأ ماء، فعرف مولاه صدقه وكذبهم .

قال : وأوّل ما عُرِف من حكمته أنه كان مع مولاه ؛ فدخل مولاه المبرَّز فأطالَ فيه الجلوس ، فناداه لقمان : إنَّ طولَ الجلوس مع الحاجةِ لَيجع منه

الكبد، ويُورِث البَاسُور، ويصعِّد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هوينًى، قال: فخرج وكتب حكمتَه على باب الحُشِّ.

قال: وسكر مولاه يوماً فخاطر قوماً أن يشرب مَاءَ بُحيرة، فلمَّا أفاق عرَف ما وقع فيه، فدعا لقمان فقال له: لمثل هذا كنت اختبأتُك. فقال لمولاه: أخرج أباريقَك ثم اجمعهم؛ فلما اجتمعوا قال: على أىِّ شىء خاطرتموه؟ قالوا: على أن يشرب ماء هذه البُحيرة. قال: فإن لها موادّ فاحبسوا عنها موادّها، قالوا: وكيف نستطيع ذلك! قال لقمان: وكيف يستطيع هو أن يشربَها ولها موادّ!

وأراد مولاه بيعَه. فقال: يا مولاى إن لى عليك حقًّا فلا تبعْنى إلاّ مِمَّن أُحِبّ. قال: لك ذلك، فكان الرَّجُل إذا جاء يستامه قال: لأىِّ شىء تريدنى؟ فقال أحدهم: تحفظ علىّ بابى. قال: اشترِنى، فلما جنَّه الليل أغلق الباب، وقام يصلِّى فى الدهليز. وكان لبنات الرجل أخلاّء فجاءوا فضربوا الباب، فقلن: يا لقمان، افتح الباب، فقال: بأبى أنتنّ وأمّى! ليس لهذا اشترانى أبوكنّ، فضربْنَه ضرباً كِدْنَ أن يأتين منه على نفسه، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فلما كانت الليلة الثانية عاودْنه بمثل ذلك، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فلما كانت الليلة الثالثة عاودْنه بمثل ذلك، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فأقبل بعضهنّ على بعض فقلن: ما جعل الله هذا العبد الأسود أوْلَى بهذا الخير منا، قال: فنسكْنَ نسكاً لم يكن فى بنى إسرائيل أفضلُ منهنّ.

عبد الله بن دينار، قال: قَدِم لقمان من سفرٍ، فاستقبله غلام له فى الطريق، فقال له لقمان: ما فعل أبى؟ قال: مات، قال: الحمد لله ملكتُ أمرى، قال: مافعلتْ أمى؟ قال: ماتت، قال: الحمد لله، ذهب هَمِّى. قال: مافعلت امرأتى؟ قال: ماتت، قال: الحمد لله جدِّد فراشى، قال: ما فعلت ابنتى؟ قال: ماتت، قال: الحمد لله سُتِرَتْ عورتى، قال: ما فعل ابنى؟ قال: مات، قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، انقطع ظهرى!

وقيل له : ماأقبح وجهك ! قال : أتعيب علىّ هذا النَّقْشِ أم على النقاش !

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « سادة السودان أربعة : لقمان والنجاشى وبلال ومِهْجع » .

وثَمَّ لقمانٌ آخر وهو لقمان بن عاد ، وهو تذكره العرب فى أخبارها ، وكان أيضاً حكيماً ، وكانت له أخت محمّقة فقالت لامرأته : هذه ليلة طهورى ، فهبى لى ليلتك ، طمعاً فى أن تعلق من أخيها بنجيب ، ففعلت فولدت لُقَيْم بن لقمان ، وفيه يقول النَّمِر بن تولب :

لُقَيْمُ بن لقمانَ من أُختِه ... فكان ابنَ أختِه وابْنَمَا[1]

وقال المسيّب يذكره :

أنتَ الرّئيس إذا همُ نزلُوا ... وتواجَهوا كالأسد والنَّمِرِ

ولأنت أبيَن حين تنطق مِنْ ... لقمان لمّاعىّ بالفكرِ

وقالت بنت عثمان بن وثيمة ترثى أباها :

الْوَاهب المائَةَ التِّلا ... دَلَنَا وَيَكْفِينَا الْعَظِيمَهْ

والدَّافع الخصم الألدَّ إذا تفوضح فى الخصومهْ

بلسان لقمان بن عا ... د وفَصْل خطبته الحكيمه

ألجمتهم بعد التجا ... ذُب والتَّدافع فى الحكومه

* * *

قوله الملاحم : مواضع الحروب التى تَلْتَحِم فيها الجموع ، وتختلط عند القتال وتسمَّى أخبار الوقائع والحروب ملاحِم . جيلُك : أهل عصرك . الأوان : الحِين والعصر . يميح : يعطى معروفاً ؛ ويحتمل أن يريد يسقيك ماء ، والمائح : النازل فى قَعْر البئر ، يخرج ماءها ، وقد ماح الماءَ ، إذا استقاه . صِيغ : صُنِع . يُجِيزُ : يُعْطِى الجائزة . يُغِيثُ : يتكرَّم ويجود ، وهو من الغيْث . يَمِير :

(١) اللسان (لقم) من غير نسبة .

يُعْطى الميرة . والمِيرة : الطعام المجلوب . والرَّبْع : المنزل . الجديب : الذى لا يمطر . ديمة : مَطَر دائم . دانته : قاربته . يعضّده : يقوّيه . نَشَب : مال . نَصَب : تعب . حِزْبه : أهله . والحصَب : هو الحطب الملقَى فى النار ، وكلّ ما تطعمه النار فهو حَصَب ، وهو من حَصَبْتُهُ بالحصباء ، أى رميته بها . انْسَدَر : جرى وانصبَّ فى جريه ، وانسدر البازى ، إذا انحطّ . يَعْدُو : يسرع . يحدو : يتابع الجرْى ، وكل شىء اتبعته فقد حَدَوْتَه .

* * *

فقال لى أبو زيد : أَعَلِمْتَ أنّ الأدب قَدْ بَارَ ، وولّتْ أَنصارُه الأَدْبَار ؛ فبؤتُ له بِحُسْنِ البَصِيرة ، وسلّمتُ بحكْم الضَّرورة . فقال : دَعْنا الآن من المِصَاع ، وخُضْ فى حديث القِصَاع ، واعلم أنّ الأسْجَاع ، لا تُشبِعُ مَنْ جَاع ؛ فما التدبير فيما يُمْسِكُ الرَّمَق ، ويُطفِئُ الحَرَق ؟ فقلت : الأمرُ إليك ، والزِّمام بيديْك ، فقال : أَرَى أن ترهنَ سيفَك ، لتُشْبِع جوفَك وضَيْفَك ، فناوِلْنيه وأقِمْ ، لأنقلب إليك بما تَلْتَقِم .

فأحسنت به الظّنّ ، وقلّدته السَّيْفَ والرَّهْن ، فما لبث أن ركب النّاقة ، ورفض الصِّدْقَ والصَّداقة ؛ فكنتُ مليًّا أترقّبُهُ ، ثمّ نهضت أتعقّبُهُ ؛ فكنتُ كمن ضيّع اللّبنَ فى الصَّيْف ، ولم ألقَه ولا السَّيْف .

* * *

بَارَ : هَلَك ، ومنه بارَ الطَّعَامُ ؛ إذا كسد ، وفى الحديث : « نعوذ بالله من بَوْر الأيّم » أى من كسادها . وقال الله تعالى : ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[1] أى لن

(١) سورة فاطر ٢٩

تكْسَد ، وقال تعالى : ﴿ وكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ أى هالكين . قال الفرّاء : البُور يكون للمذكر والمؤنث والاثنين والجمع بلفظ واحد . أبو عبيدة رحمه الله : هو جمع بائر كعائذ وعُوذ ، ويدلّ على صحة قول الفرّاء قول ابن الزِّبَعْرَى :

يا رسول المليك إنَّ لسانى راتق مافتقتُ إذاً نابُورُ[1]

بؤت : رجعت . البصيرة : اليقين والاعتماد الصحيح . المِصاع : مراجعة الكلام . والمصاع فى الأصل : القتال والدِّفاع وكلّ ما عانيته بشدّة وجدّ فقد ماصعته . القِصَاع فى الأصل : صحاف الطعام . الأسجاع : الكلام المقفّر . الرَّمَق : بقية النفس . والحَرَق : جمع حُرْقة ، وأراد بطفء الحَرَق تسكينَ ألم الجوع . ما لبث : ما أقام ولا استقرّ . رَفَضَ : تركَ . الصِّدق : قول الحقّ ، والصَّداقة : الصحبة . مكثت مليًّا : أقمت زماناً . أترقّبه : أنتظر مجيئَه . أتعقّبه : أمشى فى أثره وأطلبه .

[أصل المثل : الصَّيْف ضيّعتِ اللبن]

وضيَّع اللبن فى الصيف ، مثل يُضرب لكل مَنْ ضَيَّع أمره ، ثم تعرّض لاستدراكه بعد فوته ، قاله عمرو بن عُدَس التّميمىّ ، وكان تَزوَّج دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرارة ـ وكان شيخاً مُسِنًّا ذا مال كثير ـ فأبغضته بسبب كِبَره وسألته طلاقَها ، فطلّقها وتزوّجها عمير بن مَعْبد بن زرارة ـ وكان شابًّا معدِماً ـ فبينما هو معها جالس إذ مرّت بهما إبل عمرو بن عمرو بن عُدَس كالليل لكثرتها ، فقال لها عمير : ابعثى إلى عمرو يعطيك لبناً أو حلوبة ، فأرسلت إليه رسولاً بذلك ، فقال لرسولها قل لها : الصَّيْفَ ضيَّعتِ اللبن[2] ، فلما بلغها ذلك ضربَتْ على كتِف ابن عمها ، وقالت : هذا ومذقُه خير ، فيريد أنه طلّقها فى الصَّيْف فضاع لبنُها فى ذلك الوقت . وقال فى الدّرة : خصَّ الصَّيْف بالذّكر لأنها كانت سألته الطّلاق فيه ، فكأنها يومئذ ضيَّعت اللبن . والله تعالى أعلم .

(١) طبقات الشعراء ٢٠٢

(٢) جمهرة الأمثال ١ : ٥٧٥

المقامة الرابعة والأربعون وتعرف بالشتوية

حكى الحارثُ بن همام قال : عَشَوْتُ فى ليلةٍ داجيةِ الظُّلَم ، فاجِمَةِ اللِّمَ ، إلى نارٍ تُضْرَمُ على عَلَم ، وتُخْبِرُ عَنْ كَرَم ، وكانَتْ ليلةً جَوُّها مَقْرورٌ ، وجَيْبُها مَزْرُور ، ونَجْمُها مَغْمُومٌ ، وغَيْمُها مَرْكُوم ، وأنا فيها أَصْرَدُ مِنْ عَيْنِ الحِرْبَاء ، والعنزِ الجَرْبَاء ، فلم أزل أُنِصُّ عَنَسِى ، وأقول : طُوبَى لَكِ ولنفسى ، إلى أن تبصّر الموقِد آلِى ، وتبيَّنَ إرْقَالِى ، فانْحَدَرَ يَعْدُو الجَزَى ، ويُنشِدُ مُرْتَجِزًا !

* * *

دَاجية وفاحمة : شديدة السّواد . واللِّمَم : جمع لِمّة ، وهى جُمّة الشعر التى ألمّتْ بالمنكِب ، أى قاربته . وجعل لليلة لِمَّة مجازاً ، وهو يريد شدّة سوادِها . تُضْرَم : تُوقد . علَم : جَبَل . جَوُّها : ناحية سمائها . مَقْرُور : بارد ، وأراد أنّ ما يجىء من جوّها من الريح والهواء بارد جدّا . مَزْرُور : مشدود بالأزْرَار ، وهى أطواق الثّياب ، وهذا يكون فى طَوْق الصّغير يُشَقّ فى صَدْر الثّوب عِوَضاً عن الجَيْب ، ويُترك من الطّوق طرفان على ذلك الشّق ، فإذا لبس الثوب شدّ الطرفين ، فيقال عند ذلك : قد زرّرتُ الثوب ، يريد أن السحاب قد تكاثف فى تلك الليلة ، فلا تبصر العين فيها لشدّة ظلامها ، لأن الثوب إذا شدَدْتَ أزراره ، لم يجد رأسُ الإنسان من أين يَخْرج ، فلمّا جعل لليلته ثوباً من الظّلام والسحاب جَعله مربوطاً مشدوداً مغموماً مستوراً . غيمها : سحابها . مركوم ، أى متراكِب بعضُه على بعض . أنصُّ عَنَسى ، أى أُجْهِد ناقتى وأتعِبُها ، والنّصّ رفْع السير ، وقالت أم سلَمة لعائشة رضى الله عنهما : ما كنتِ قائلةً لو أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم عارَضك ببعضِ الفلوات ناصّةً قَلُوصاً من منهل إلى آخَر ، ومنه نصّ الحديثَ إلى فلان ، أى رفعه إلى شخص . وإرقالى : سُرْعتى . يعدو : يُسْرِع . الجزَى : عدوٌ شديد .

* * *

حُيِّيتَ من خابط ليل سارِى ... هَـداه بل أهْداهُ ضوءُ النّارِ
إلى رحيبِ الْباعِ رَحْبِ الدارِ ... مُرَحِّبٍ بالطّـارِقِ المُمْتَارِ
تَرْحابَ جَعْد الكفِّ بالدِّينارِ ... ليس بمزوَرٍّ عَنِ الزُّوارِ
ولا بِعْتامِ القِرى مِئْخـارِ ... إذا اقْشَعَرَّتْ تُرَبُ الأقطارِ
وضنّتِ الأنواءُ بالأمطـارِ ... فهو على بُؤْس الزّمانِ الضارِى
جَمُّ الرَّمادِ مُرْهَفُ الشِّفَارِ ... لم يَخْلُ فى ليـلٍ ولا نَهَارِ
* من نِحْرِ وَارٍ واقْتِداحِ وَارِى *

* * *

قوله : سارِى ، أى آتٍ بالليـل . والخابِط : الماشى على غير عِلْم بالطريق . هداه ، من الهداية . وأهـداه ، من الهدّية . رحيب الباع : كثير البِرّ . واسع العطاء : واسع البرّ . والرَّحب : المتسع . مَرْحَب ؛ يقول : مرحباً بك . والطَّارق : الآتِى بالليل . الممتار : طالب المِيرة ، وهى الطعام يُجْلَب من بلد إلى بلدٍ . جَعْد الكفّ ، هو البخيل أى يرحِّب بالضيف كما يرحِّب البخيل بالدّينار إذا وقع فى كفّه .

نظر أعرابىٌّ إلى درهم فى يد رجل ، وأدام النّظَر إليه ، فقال له الرجل : لو كان لك ما كنت صانعاً ؟ قال : كنت أنظر إليه نظرة ثم تكون آخر عهده باليد .

وكان بعضُ البخلاء إذا وقع الدرهم فى يده يخاطبه ويقول له : أنت عَقْلى ودينى وصلاتى وصيامى وجامع شملى وقرّة عينى وأنسى ، وقوّتى وعُدَّتى وعمادى ثم يقول له :

أهلاً وسهلاً بك من زائرٍ كنتُ إلى وجهك مشتاقا

ثم يقول : يا نورَ عينى وحبيبَ قلبى ، قد صرتَ إلى من يصونك، ويعرف قدرَك ، ويُعظِّم حقَّك ، ويرعى قيمتَك ، ويشفق عليك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت تعظِّم الأقدار وتعمرُ الدّيار ، وتُفتَضُّ بك الأبكار ، وتسمو على الأشراف ، وترفع الذكر ، وتُعْلِى القَدْر ، وتؤنس من الوحشة ، ثم يطرحه فى الكِيس ، ويقول :

بنفسىَ محجوبٌ عن العين شخصُه ومَنْ ليس يخلُو من لسانى ولا قلبى
ومَنْ ذكرهُ حظىٌّ من الناس كلهمُ وأوّلُ حظِّى منه فى البعد والقربِ

مُزْوَرّ : منقبض . معتام : مؤخّر مبطىء . والقِرى : طعام الضيف ، معناه أنه لا يؤخِّر طعامَه ، ويقال : أعْتَمَ بإبله إذا أخّر حَلْبها ، ومنه العَتَمة لتأخّر وقتها . مئخار : كثير التأخّر . اقشعرّت : انقبضت من شدّة البرد . تُرَب : جمع تُرْبة وهى وجه الأرض . والأقطار : البلاد والنّواحى . ضَنَّت الأنواء : بخلت النّجوم ، وكانُوا يستمطرون بها . بؤس : شدّة . الضَّارِى : المعتاد ، أى الّذى عادته ألّا يكون فيه غير بُؤس . جمّ : كثير ، وإذا كثر الرماد كان عن كثرة النار ، وكثرة مايُطْبخَ عليها . مُرْهَف : قاطع . اقتداح : ضرب بالزّند . وارٍ : بعير سمين ، ووَرِىَ المخُّ : اكتنز فهو وارٍ ، وورِىَ الزّند فهو وارٍ ، أى مبدٍ للنار .

* * *

ثمَّ تلقَّانى بمحيًّا حَيِّ ، وصافَحَنى براحةِ أَرْيحىّ ، واقْتَادَنِى إلى بيتٍ عِشارُه تَخُورُ ، وأَعْشارُهُ تفُور ، وولائدهُ تَمُور ، ومَوائدهُ تدُور ، وبأكْسارِه أضيافٌ قد جَلَبهم جَالِبى ، وقُلِّبوا فِى قَالَبِى ، وهم يَجْتَنُون فاكهةَ الشِّتَاء ، ويَمْرَحُون مَرحَ ذِى الْفَتَاء ، فأخذتُ مأخذهم فى الاصْطِلاء ، ووجدت بهم وجْدَ الثَّمِل بالطِّلاء .

* * *

مُحَيًّا : وجه . صافحنى : واجهنى وقابلنى . براحة : بكفّ . أريحىّ : كريم يهتزّ للكرم . اقتادنى : ساقنى . ولائده : خَدَمُه . تَمُور : تسير وتختلف . بالطعام موائده : جمع مائدة .

أبو عبيد: سُمِّيَتْ مائدة لأنها ميدَ بها صاحبُها ، أى أُعْطِيَها وتُفُضِّل عليه بها ، والعرب تقول : مادنى فلان يميدنى ، إذا أحسن إلىّ ، فكأن المائدة تميد من حواليها مما أُحْضِر عليها ، قال رؤبة :

* إلى أمير المؤمنين الممتادْ *[1]

أى المستعطى غيرَه ، سمّيت مائدة لأنها تميد بها عليها ، أى تتحرّك ، وماد الغصنُ يميد : مال ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الأرض رواسىَ أَنْ تَمِيد ﴾ . الجَرْمى يقال : مائدة وميْدة وأنشد :

وَمِيْـدَةٍ كثيرة الألوانِ تُصْنَع للإخوان والجيرانِ

وذكر القولين أبو محمد فى درة الغوّاص[2] وزاد أنه لا يقال لها مائدة إلا أن يُحْضَر عليها طعام ، وإلاّ فهى خِوان ، واستدلّ بأن الحواريّين لمّا اقترحوا

(١) ديوانه ٤٠

(٢) درة الغواص ١٠

على عيسى عليه السلام أن يُنزِل عليهم مائدة ، قالوا نُرِيد أن نأكُلَ منها .

قال : وحكى الأصمعىّ قال : غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لى ، فلقيَنى أبو عمرو بن العلاء فقال لى : إلى أين يا أصمعى ؟ فقلت : إلى صديق لى ، فقال : إن كان لفائدة أو لِعائدة أو لمائدة ، وإلاّ فلا ، وهذا باب يتّسع كثيراً ، وسأسوق جملة تأتى على أكثره .

[فصل فيما قيل فى الكرم وإيقاد النار للضيف]

وهذه الحالة التى وصف من إيقاد النار هى التى كان يفعل حاتم. وكان إذا اشتدّ البرد وكَلَبَ الشتاء أمر غلامه ، فأوقد ناراً فى يفاعٍ من الأرض ، لينظر إليها مَنْ أضلّ الطريق ليلاً فيهتدى إليها ، وقال فى ذلك :

أوقِدْ فإنّ الليل ليلٌ قَرٌّ ... والريحُ يا موقِدُ ريحٌ صِرٌّ[1]
علّ يَرَى نارَكَ مَنْ يمُرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنْتَ حُرٌّ

ولابن هَرمة فى هذا أشعار مُسْتَحْسَنة منها :

أغشى الطريق بقبَّتى ورواقِها ... وأحُلُّ فى قُلَلِ الرُّبَا وأُقِيمُ[2]
إنّ امرأ جعَلَ الطَّريق لبيته ... طُنُباً وأنكر حقَّه للئيمُ

وقال مهيار :

ضَرَبُوا بَمدْرَجَةِ الطَّرِيق قِبابَهُمْ ... يَتَقارَعُون على قِرى الضِّيفان[3]
ويكاد مُوقِدها يجُود بنفسه ... ـ حُبّ القِرَى ـ حَطَباً على النِّيران

(1) ديوانه ٦٠
(2) ديوانه ١٩٤
(3) ديوانه ٢ : ٥١

ولابن هرْمة أيضاً :

ومستنبحٍ تستكشط الرِّيح ثوبَهُ ... ليسقط عنه وهو بالرَّمْلِ مُعْصِمُ[1]
عَوَى فى سواد اللّيل بعد اعْتساقه ... لِيَنْبحَ كلبٌ أو ليفزَعَ نُوَّمُ
فجاوبه مُسْتَسْمِع الصَّوْت لِلقرى ... له عند إتيان الملبّين مَطْعَمُ
يكاد إذا ما أبصر الضَّيفَ مقبلاً ... يكلِّمُهُ من حُبِّه وهُوَ أَعْجَمُ

وقال بعض المحدثين :

ويدلّ ضيفى فى الظَّلاَمِ على القِرَى ... إشراقُ نارى أو نُباح كلابى
حتى إذا واجهنَه ولقينَه ... حيَّيْنَهُ ببصائص الأذناب
وتكادُ من عِرْفان ما عُوِّدنَه ... من ذاك أن يُفْصِحْن بالتّرْحابِ

ولابن هرْمة فى ذلك أيضاً :

كيف احتيالى لبسْط الضَّيف من حَصَرٍ
عند الطعام فقد ضاقت به حِيَلى[2]
أخاف ترداد قولىَ : « كلْ » فأقطعهُ
والسَّكتُ ينزله منِّى على البَخَلِ

وقال حاتم :

سَلِى الطَّارقَ المتارَ يا أمَّ مالكٍ ... إذا ما اعترانى بين قِدْرِى ومَجْزَرِى[3]
أيُسْفِر وجهى إنه أوّل القِرى ... وأبذلُ معروفى له دون مُنْكَرِى

---

(١) ديوانه ٤٩
(٢) ديوانه ١٨٢
(٣) الشعر لعروة بن الورد ، ديوانه ٩٩

وقال أيضاً :

أما والَّذِى لايعرفُ السرَّ غيرُه ... ويحيي العظام البيضَ وهى رَمِيمُ (١)
لقد كنت أختار القِرَى طاوِى الحشى ... محافظـــة من أن يقال لئِيمُ
وإنِّى لأســـتحيي يمينى وبينَها ... وبين فمِى داجى الظلام بهيمُ

وقال أيضاً :

أكُفُّ يَدِى من أن تنالَ الْتِمَاسَهَا ... أكفُّ صِحَابى حين حاجاتُنا مَعَا (٢)
أبيتُ هضيمَ الكشحِ مضطرمَ الحَشَى ... من الجوع أخْشَى الذمّ أن أتضلَّعَا
وإنى لأســتحيي رفيقَ أن يَرَى ... مكان يَدِى من جانب الزَّادِ أقْرَعَا
وإنّكَ إن أعطيتَ بَطْنَكَ ســؤله ... وفَرْجَكَ نالاَ مُنْتَهَى الذم أجْمَعَا

وقال أبو زياد الأعرابى :

له نارٌ تُشَبّ على يفاعٍ ... إذا النيران أُلْبَسَتِ القِنَاعَا
فلم يكُ أكثرَ الفتيانِ مالا ... ولـكنْ كان أرحَبَهم ذِرَاعَا

وقال آخر :

لَعَلَّ عاراً إذا ضـــيفٌ تأوَّبنى ... ما كان عندى إذا أعطيت مجهودِى
جُهْدَ المُقِــلّ إذا أعطــاك نائله ... ومكثرٌ فى الغِنَى سِيَّان فى الجود

وقال آخر :

تركت ضأنى تودّ الذئب راعيَها ... وأنهــا لا ترانى آخرَ الأبَدِ

---

(١) ديوانه ٨٧
(٢) ديوانه ٦٩

الذئب يطرُقُها فى الدهر واحدة وكلّ يوم ترانى مدية بيدى

وقال آخر :

وسِّــع بمدّك ماء اللحم تقسِمُه وأكثر الشَّوْب إن لم يكثر اللَّبَنُ
وسِّــع به وتلفَّتْ نحو حاضِرِه إنَّ الكريم الَّذِى لم يخله الفطنُ

وقال الغنوى :

لِحافِي لحافُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتُه ولم يلهنى عنه غزالٌ مُقَنَّعُ
أحدِّثه إن الحديث من القِرَى وتكلأ عينى عينَه حينَ يَهْجَعُ

وقال آخر :

وإنَّا لمشَّاءون بين رحالِنـــا إلى الضيف منَّا لاحفٌ ومُنِيمُ[1]
فدو الحلم منَّا جاهل دون ضَيْفه وذو الجهل منَّا عن أذاه حليمُ

وقال آخر :

سأقدح من قِدْرِى نصيباً لجارتى وإن كان مافيها كِفافاً على أهلِى
إذا أنت لم تُشرِك رفيقَك فى الذى يكون قليلا لم تشارِكْه فى الفَضْلِ

ولبعضِ أصحابنا :

وسارٍ تَحَلَّى أنجمَ اللَّيْلِ زِينَةً ويلبس من ظلمائها ثَوْبَ ثاكِل
رَفَعتُ له نارى فآنس ضَوْءَها كما آنس الظمآن بَرْدُ المناهلِ
أتانا فحيَّانا فكان جـــوابُه صليلَ شِفار السَّيْفِ فى ساقَ بازِلِ
وما أنا من سؤاله ممّن الفتى وتلك سحابا كلّ أطلس بالى
فداكَ الذى أودى بمالا كتسبتَ يدى وإن عادَ وفْرِى عُدْتُ غير مواكِل

(١) ديوانه الحماسة ١٥٧٧

[ما قيل فى البخل]

وقال آخر فى ضد ماقلناه :

أرانى من بنى حكَمٍ غريباً ... على قترٍ أزُور ولا أُزَارُ
أناسٌ يأكلون اللحم دونِى ... ويأتينى المعــاذِرُ والقَتَارُ

القتر والقطر : الجانب .

وقال آخر :

مات فى عُرْسِ سُلَيْمَا ... نَ من الجُوع جَمَاعَهْ
مات أقوامٌ وقومٌ ... حملوا فيــه القناعَهْ
لم يكن يوجد فيه الخبز إلَّا بشفاعَــهْ

آخر :

وما تُنْسِنِى الأيام لا أنسَ جوعنا ... بدار بنى بَدْرٍ وطولَ التَّلَدُّدِ
ظللنا كأنا بينهم أهلُ مأتمٍ ... على ميِّت مستودعٍ بطنَ مَلْحَدِ
يحدّث بعضٌ بعضَنا عن مصابه ... ويأمر بعضٌ بعضَنــا بالتجلُّدِ

وفى هذا طرف من قول الآخر :

إذا ما عراكُمْ حادثٌ فتحدَّثوا ... فإنّ حديثَ القوم يُنْسِى المَصَائِبَا

وأهل الحُزْن يستعملون الحديث اشتغالًا عن المصيبة .

وقال بشار :

أبناء عمرٍو لفى خفضٍ وفى دعةٍ ... وفى عطاءٍ لعمرى غَــيْرِ مَمْنُوعِ
وضيف عمرو وعمرو ساهرانِ معاً ... عمرو لبطنتــه والضيفُ لِلْجُوع

آخر :

ما كنت أحسِب أن الخبزَ فاكهة ... حتى نزلتُ على قومٍ بميْسَانِ

قوم إذا حلَّ ضيفٌ بين أظهرِهم لم يُنزِلُوه ودلُّوه على الخانِ

آخر :

والناس فى فِطْرٍ سوى شهرهمْ ودهر أضيافك شهر الصيام

آخر :

كتبت له صيفا فظنّ بأننى كتبت له ضيفا فقام إلى السيف
فقلتُ خيراً فَظَّن بأنَّنى ذكرتُ له خبزاً فمات من الخوف

وإن ابنَ هَرْمة ألأمُ الناس مع ادِّعائه فى شعره الكرم ، قال رجل : أتيناه فى جماعة من قريش أحببنا أن يتنزه عندنا ، ومشينا بزادٍ كثير ، فخرج علينا ، وقال : ما جاء بكم ؟ قلنا : شعرك حيث قلت : إن امرأ جعل الطريق لبيته ... ، وقولك أيضاً :

وإذا تنوَّر راكبا مستنبحٌ نَبحَتْ فدلَّتْه علىّ كلابى[1]
وعوَيْن يستعجلنَه فلقينه يَضْرِبْنَهُ بشَرَاسِفِ الأذناب[2]

وسمعناك تقول :

كم ناقةٍ قد وجأتُ منْحَرها بمستهلّ الشؤبوب أو جَمَلِ[2]
لا أُمْتِع العُوذَ بالفصال ولا أبتاعُ إلَّا قريبةَ الأجلِ

فنظر إلينا وقال : ما علَى وجه الأرض عصبةٌ أسخفُ عقولاً منكم ، أما سمعتم قول الله عز وجل : ﴿ وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فى الشعراء ، والله إنى لأقول ما لا أفعل ، وأنتم تريدون أنْ أفعل ما أقول ، والله لا أُغضِب ربِّى فى رضاكم . فضحكنا منه وأخرجناه معنا يتنزَّه حتى فَنِيَ الزّاد .

---

(١) ديوانه ٧٣

(٢) فى الديوان : « وفرحْن إذ أبصرنه فلقينه »

أتى الحطيئةَ رجلٌ وهو فى غنمه ، وقال : يا صاحبَ الغنم ، سلام عليك ، فرفع الحطيئة العصا ، وقال : إنها عَجْرَاء من سَلَمٍ ، فقال الرجل : إنّى ضيف ، فقال : للضيفان أعددتُها ، فأعاد السّلام ، فقال : إن شئتَ قمتُ بها إليك .

ومرّ به ابن حمامة وهو جالس بفناء بيته ، فقال : السّلام عليكم ، فقال : قد قلتَ مالا ينكَر .

وقال : خرجت من أهلى بغير زاد ، قال : ماضمِنْتُ لأهلك قراك ، قال : أفتأذن لى أن آتىَ ظلّ بيتك ؟ قال : دونك الجبل يفىء عليك ، قال : أنا ابن حمامة ، قال : انصرف وكن ابن أىّ طائرٍ شئت . يروى هذا عن أبى الأسود الدؤلى .

ونزل الغضبانُ بن القَبعثْرى خارج كِرْمان وهى قرية كثيرة الرّمضاء ، فضرب قبّته ، فورد عليه أعرابىّ من بكر ، فقال : السّلَام عليك ، قال : السّلام عليك كثير ، وهى كلمة مقولة ، قال الأعرابىّ : ما اسمك ؟ قال : آخذ ، قال أو تعطى ؟ قال : ما أحبّ أن يكون لى اسمان ، قال : ومِنْ أين جئت ؟ قال : من الذّلول ، قال : وأين تريد ؟ قال : أرضنا أمشى فى مناكبها ، قال : ومن عُرض اليوم ؟ قال آل فرعون على النّار ، قال : فمن بُشِّر ؟ قال : الصّابرُون ، قال : فمن غَلَب ؟ قال : حزبُ الله قال : أفتقرِض ؟ قل : إنّما تقرض الفأرة ، قال : أفتُسْمِع قال : إنّما تُسْمِع القينة ، قال : أتُنشد ؟ قال : إنما تُنشَد الضالة ، قال : أفتقول ؟ قال : إنما يقول الأمير ، قال : أفتسجَع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة ، قال : أفتنطق ؟ قال : كتاب الله ينطِق ، قال : إنك لمنكَر ، قال : إنى لمعروف ، قال : ذلك أريد ، قال : وما إرادتك ؟ قال : الدُّخُول عليك ، قال : وراءك أوسع ، قال : قد أضرّتنى الشّمس ، قال : الساعة يأتيك الفىء ، قال : الرَّمْضَاء أحرقت قدمىّ ، قال : بُلْ عليهما تبردَا ، قال : قد أوجعنى الحرّ ، قال : ليس لى

عليه سلطان ، قال : إنى لا أريد طعامك ولا شرابك ، قال : أتعرِّض بهما ؟ والله لاتذوقهما عندى ، قال : سبحان الله ! قال : قبل كَوْنِك، قال : ما أرَى عندك ؟ قال : هراوة أرزن ، أدقّ بها رأسك . فتركه وانصرف .

الأصمعىّ: عَذَلَتْ أعرابية أباها فى إتلاف ماله ، فقالت : يا أبتِ ، حبْس المال أنفع للعيال من بَذْل الوجه للسؤال ، وقد أتلفت التلاد ، وبقيت ترقب ما بأيدى العباد ، ومن لم يحفظْ ما ينفعه يُوشك أن يقع فيما يضرُّه ، أخذه ابن المعتز فقال:

يا ربَّ جودٍ جَرّ فقر امرئٍ ... فقـــام للنّاس مقَامَ الذّليـــلِ[1]

فاشْـــدُدْ عُرَا مالك واستبْقِه ... فالبخل خيرٌ من سؤال البخيلِ

وقال بعض البخلاء :

أعْـــدَدْتُ للأضياف كلباً ضارياً ... عندى وفضل هراوة من أرْزَنِ

ومَعَاذِراً كذباً ووجْهاً باسرا ... وتشكّيا عضَّ الزمان الألزنِ

الألزن : المضيق .

محمد بن الجهم : وددْتُ أنّ عشرةً من الفقهاء ، وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الأدباء ، تواطَئُوا على ذمّ حتى ينتشر ذلك عنهم فى الآفاق ، فلا يمتدّ إلىّ أمل آمل ، ولا ينبَسِطُ نحوِى رجاء لراجٍ .

وكان يقول : مَنْ وَهَب فى عملِه فهو مخدوع ، ومن وَهَبَ بعد العزل فهو أحمق ، ومَنْ وهب فى جوائز سلطانه ، أو عمل لم يتعبْ فيه فهو مخذول ، ومَنْ وهب من كسبه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المختوم على سمعِه وبصرِه .

وقال : مَنْع الجميع ، أرْضَى للجميع . وهذا كقول الأصمعى ! لو قسمت فى

---

(١) ديوانه ...

النّاس ألف ألف لكان أكثرَ للأثمى من لو أخذتها منهم ، قالوا : ولم يُرِد البخل ؛ ولكن إذا تعذّر عليه أن يعمَّ فلا يخصّ .

وقال آخر : قول « لا » يدفع البلاء وقول « نعم » يزيل النِّعم .

دعبل كنّا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فإذا بصحفة فيها مَرَقٌ ولحم ديك ، قد هَرِم ، لا تحزّ فيه سكين ، ولا يؤثّر فيه ضِرْس ، فأخذ قطعة من خبز فقلع بها جميع المرق ، وفقد الرأس ، فبقى مطرقاً ساعة ثم رفع رأسَه إلى الغلام وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولم ظننْتَ ذلك ؟ فوالله إنّى لأمقت مَنْ يرمى برجله فضلاً عن رأسه ، والرأس رئيس الأعضاء وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل فى الصفاء ، فيقال : شراب مثل عين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلْية ، فإن كانَ بلَغ من جهلك أنى لا آكله ، فإنَّ عندنا مَنْ يأكله ، انظر أين هو ؟ قال : والله لا أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى والله أدرى ، رميتَ به فى بطنك .

ولسهل هذا رسالة مدح فيها البخل وفضّله على السخاء ، ليرِى فى ذلك بلاغته ، وأهداها إلى الحسن بن سهل فى وزارته للمأمون فوقّع عليها : لقد مدحتَ ما ذمّه الله ، وحسّنت ما قبّح ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك ، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول ما فضلت فيها ، ونتأدّب فيها بأدبك . ولم يعطه شيئاً .

وقيل : إنَّ الذى أُهْدِى إليه كتابٌ ألّفه ، مدَح فيه البخل ، وذمَّ الجود فوقّع عليه بما تقدم . قال دعبل :

صدِّق أليتَّه إن قال مجتهداً ... لا والرغيفِ فذاك البَرُّ من قَسَمِهْ[1]

فإن هممتَ به فافتِكْ بخُبزته ... فإن موقعَها من لحمه ودمِهْ

(١) ديوانه ١٨٨ ، العقد ٦ : ١٩٠ ، نهاية الأرب ٣ : ٣٠٩ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٦

قد كان يعجبنى لو أن غيرتَهُ على جُرَادقه[1] كانت على حُرَمِهْ

أبو نواس فى البؤبؤ الزنديق :

لقيت فى آل زياد فتًى يلقّب البؤبؤ حُلْوٌ ظريفْ
ينزل للضيف بنيّاته صيانة منه لعِرْض الرغيفْ
وإن فى النَّيْك لمستمتعاً عند اعتياضِ الخبز للمستضيفْ

آخر :

أما الرغيف لدى الخوا ن فمن حمامات الحرَمْ
ما إن يُحَسُّ ولا يمسّ ولا يذاق ولا يُشَمّْ
فتراه أخضرَ يابساً بالى النّقُوش من الْهَرَمْ

آخر :

أبو نوحٍ دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً فقدّانى برائحة الطَّعَامِ[2]
وقدّم بيننَا لَحْماً سميناً أكَلْنَاهُ على طَبَقِ الْكَلَامِ
فلمّا أن رفعتُ يدِى سقانى كئوساً خمرُها ريح المُدَامِ
فكان كمن سقى الظمآن آلاً وكنت كمن تَغَدَّى فى المنام

وقال فى أبى نوح أيضاً :

لأبى نوحٍ رغيفٌ أبدًا فى حِجْر دايَهْ
فهى تحميه مدَى الده ر بكمٍّ ووقَايَهْ
وله كاتب صدقٍ خَطّ فيه بعناية
فسيكفيكهم اللهُ إلى آخر الآيهْ

(١) الجرادق : نوع من الخبز .
(٢) العقد ٦ : ٨

آخر :

استبْقِ ودّأبى المقـــا تل حين تأ كلُ من طعامِهْ[1]
سيّان كسرُ رغيفِـــه أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهْ
فارفق بكسْرِ رغيفِـــهِ إن كنْتَ ترغب فى كلامِهْ
وتراه من خَوْف النُّزو ل به يروّع فى منـــامِهْ

آخر :

خان عَهدِىَ عمرو وما خُنْتُ عَهْدَهْ وجفانى وما تغـــيَّرْتُ بَعْدَهْ
ليس لى مُذْ حَيِيت ذنبٌ إليـــه غير أنِّىَ يوماً تَغَدَّيْتُ عِنْـــدَهْ

آخر :

أبو جعفر رجـــل عالم بما يُصلح المعدةَ الْفَاسِدَهْ
تخوّف تُخْمـــة أضيافِه فعوّدهم أكلةً واحـــدَهْ

أبو نواس :

فـــتًى لرغيفِه قُرْطٌ وشنفٌ ولؤلؤتان من خَرَزٍ وشَذْرِ
ودون رغيفـــه قَلْعُ الثَّنَايا وحربٌ مثل وقعـــة بوم بَدْرِ
وإنْ كُسِرَ الرَّغيف بكَى عليه بكا الخنساء إذْ فُجِعَتْ بصخْرِ

آخر :

رغيف أبى علىّ حـــلّ خوفاً من الأضياف مـــنزلة السِّمَاكِ
إذا كسروا رغيفَ أبى علىّ بكَى يَبْكِى بُكَاءَ فهو باكِ

---

(١) من أبيات فى عيون الأخبار ٢ : ٣٦ ورواية البيت الأول فيه

ارفُقْ بحفصٍ حين تأ كُلُ يا معاوىَ من طعامِهْ

آخر :

إنَّ هـــذا الفتى يصون رغيفاً ما إليه لنـــاظرٍ من سبيلِ
هو فى قُفّتين من أدم الطا ئف فى سَلَّتَيْنِ فى مِنْدِيلِ
فى جراب فى جوف تابوتِ مُوسى والمفاتيح عنـــد ميكائيلِ

ابن بسام :

أتانا بخـــبزٍ له يابسٍ كمثل الدَّرَاهم فى خلقتِهْ
إذا ما تنفَّسْت عند الخوان تَطَايَرَ فى البَيْت من خِفَّتِهْ

وقال عباس الخياط :

رغيفُه النّجم لمن رامَهُ يُرَى ولا يُطْمَـــعُ فى لَمْسِهِ
كأنه فى جوفِ مرآتِه يَبْدُ ولا يُطْـــمَعُ فى جَسِّهِ
وفَلْسُـــه الأمسُ الذى قد مضى بل أمسُه أوْجَدُ من فَلْسِهِ

آخر :

رغيف فى الحِجال عليـــه قُفْلٌ وخَزّانٌ وأبوابٌ منيعَـــهْ
رأى فى بيتـــه يوماً رغيفاً فقال لضيفه هـــذا وديعَهْ

اعتلّ أبو هِفّان فى منزل ابن أبى طاهر فأبطئوا عليه بالغَداء فقال :

أنا فى مـــنزلِ خِلٍّ مشفق بى ورَفِيـــقِ
رجـلٌ أعمر من منـــزله ظهر الطريقِ
ليس لى أكل سوى لحـــمِى وشرْبٌ غَيرُ ريقِ

ولجحظة يهجُو رجلاً :

لا تعـذِلُونى إن هَجَرْتُ طعَامَهُ خوفاً على نفسِى من المأكُولِ
فمتى أكَلْتَ قتلتَه من بخـــله ومتى قَتَلْت قُتِلْتَ بالمقتول

وله أيضاً يذم بخيلاً :

تَبَرَّم إذ جئتُـــه للسّلامِ وأبدى لِيَ الكُرْهَ لمّا دَخَلْتُ
فقلت له : لَا يَرُعْكَ الدُّخولُ فوالله ما جئت إلاّ أكلتُ

أين هذا من قول إبراهيم بن العباس الصولىّ :

لنا إبلٌ كومٌ يَضِيق بها الْفَضَا وتفترُّ عنهـــا أرضُها وسماؤها[1]
فمن دونها أن تستباحَ دِماؤنا ومِنْ دوننا أن تُسْتَذمّ دماؤها
حِمًى وقِرًى فالموت دُونَ مَرَامِهَا وأهونُ خَطْبٍ فى الحقوقِ بناؤها[2]

وقوله :

لا تلومى فإنّ هَمَّكِ أن تُثْـــرِى وهمِّى مكارمُ الأخلاقِ[3]
كيْفَ يَسْطِيعُ حِفظَ ما جمعت كفّاه مَنْ ذاق لذة الإنفـــاق

وقوله :

تلجُ الضُّيوفُ بُيوتَهمْ وترَى لهَا عن جار بيتهُم ازْورارَ مَنَاكِبِ[4]
وتراهم بسيوفهمْ وشـــفارِهِمْ مستشرفين لراغبٍ أو راهب
حَامِين أو قارين حيثُ لقيتَهُمْ نَهْبَ العفـــاةِ ونُهزةً لِلرَّاغب

وجَلَس هارون بن محمد بن الزيات فى مجلس عبد الله بن سليمان ، فجعل هارون يُنشِد من شِعْرِ أبيه محاسنَه ، فقال له ابن برد الخبّاز : إن كان لأبيك مثل قول إبراهيم :

أسدٌ ضارٍ إذا ما هجْتَهُ وأبٌ بَرٌّ إذا ما قَدَرا[5]
يعرف الأبعد إنْ أثْرَى ولا يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

(١) ديوانه ١٥٣
(٢) رواية الديوان « وأيسر خطب يوم حق فناؤها » .
(٣) ديوانه ١٨٦
(٤) ديوانه ١٢٩
(٥) ديوانه ١٣٣

أو مثل قوله : « تلج الضيوف »البيتين فاذْكُرْهُ وفاخرْ به ، وإلا فأقْلِلْ من الفخار والتطاول بما لا طائل فيه ، فخجل هارون .

وإبراهيم هذا أشعر الكتّاب بلا خلاف .

[فى وصف القدور]

وذكر الحريرىّ القدور ، وممن وصفها ، فأحسن الفرزدق حين قال :

وقد علم الجيرانُ أنّ قدُورَنا ضوامنُ للأرزاق والريح زَفْزَفُ[1]
تُفَرّغُ فى شِيزى كأنّ جفانهم حياضُ الملاَ منها ملاء ونُصّفُ[2]
ترى حولهنّ المعتفين كأنّهُمْ على صَنَمٍ فى الجاهليّةِ عُكّفُ

وقال أمية بن أبى الصّلْت :

وكأنها بفِنائه للضيف مترعة زواخرْ[3]
وكأنّهنّ بما شحنّ وما حمين به ضَرَائرْ
زبد وقرقرة كقر قرة الفحول إذا تُخَاطِرْ

وقال النابغة فى مثله :

له بفِناء البيت سَوْدَاء فَحْمَةٌ تلقّمُ أعضاء الجزورِ العراعرِ[4]
بقية قِدْرٍ من قُدور تُوُرِّثتْ لآل جُلاحٍ كابراً بعد كابرِ
يظلُّ الإماء يبتدرن قديحها كما ابتدرتْ سعدٌ مياهَ قراقرِ

ـ قديحها : مرقها لأنه يقدح ، أى يؤخذ بالمِقْدَحة ، وهى المغرفة ـ

وقال آخر :

وسوداء لا تكسى الرقاعَ نبيلةٌ لها عند قرّات العشياتِ أزمَلُ

(١) ديوانه ٥٦٠
(٢) الشيزى : قصاع من خشب الجوز .
(٣) ديوانه ١٧٣ (نشرة الدكتور شكرى فيصل) .
(٤) ديوانه .

إذا ما قَرَيْنَاها قراها تضمّنت ... قِرى مَنْ عرانا أو تزيد فتفضِلُ

وقال مسكين الدرامى :

كأنّ قُدورَ قـــومِى كلَّ يوْمٍ ... قِبَابُ التّرك ملَبسة الجِلاَلِ
بأيديهمْ مغارِفُ من حديدٍ ... أشبّهها مقـــيَّرة الدَّوالِى[1]

الدَّالية : الخطّارة .

وفى ضدِّ ذلك لأبى نواس :

رأيتُ قدورَ النّاسِ تَبْـــلَى على الصِّلَى
وقِدْر الرّقاشِيّيْن بيضاء كالْبَدْرِ[2]
يَضِيق بحيزُوم البَعوضة صدرُها ... ويُخْرِجُ ما فيها على طَرَف الظُّفْرِ
إذا ما تنادَوْا للرَّحِيلِ سَعَى بِها ... أمامهم الحولىّ منَ ولَدِ الذّرِّ

وقال الفرزدق :

لو أن قِدْراً بكتْ من طول ما جَهَشَتْ
على الجفوف بَكتِ قِدْرُ ابنِ عمَّارِ[3]
ما مسَّها دَسِمٌ مذ فضّ معدِنُها ... ولا رأتْ بعدَ نارِ الْقيْن من نارِ

وتسمّى النار فاكهة الشتاء لما يُجْتَنَى من تسخينها .

وقد أحسنَ ابنُ صَارَة فى وَصْفِهَا حيث قال :

هاتِ الّتى للأيك أصلُ ولادِها ... ولها جبينُ الشَّمْسِ فى الأشْمَاسِ
يَتقَشَّعُ الياقوتُ من لَبَّاتِها ... بِوَسَاوسَ تَشْفِى من الوسواسِ

---

(١) البيت فى اللسان (ولا) وقال : الذالية : الناعورة .
(٢) ديوانه ١٧٧

أُنسُ الوحيد وصبح عين المجتلِي ولباس مَنْ أمْسَى بغير لباسِ
حمراء تَرْفُلُ فى السواد كأنها ضَرَبَتْ بعِرْقٍ من بنى العبَّاسِ

وقال آخر :

لابْنَةِ الزَّند فى الكوانين جَمْرٌ كالدَّارارِى فى اللَّيْلةِ الظَّلْمَاء
خَبِّرونى عنها ولا تكذِبونى ألديْها صِناعة الكِيمياء
سبكت فحمَها سبائك تبْرٍ رصَّعتْها بالفِضَّة البيضاء
كُلَّمَا ولولَ النَّسيمُ عليْهَا رقصتْ فى غِلالَةٍ حَمْرَاء
سفرتْ عن جبينها فأرتْنا حاجبَ الشمس طالعاً فى العِشاء
لو ترانا من حَوْلها قلت شِرْبٌ يتعاطوْن أكؤس الصَّهْبَاء

وقال الفقيه الأديب ابنُ لبّال رحمه الله :

فم ذكتْ فى حشاه نارٌ فقلت مسكٌ وجلَّنَارُ
أو خدّ مَنْ قد هويتُ لمّا أظلَّ من فوقه العِذارُ

وقال البحترىّ يصف كانوناً :

وذى أربع لا يطيق النهو ضَ ولا يألف السَّيْرَ فيمَنْ سَرَى[1]
تحمله سبجا أسودا ويَقْلِبُهُ ذهبا أحمرا

* * *

قوله : قلّبوا فى قالبى ، أى هم أمثالى لأن قالب الشىء كلّ ما يُجعل فيه ليجىء مثله ، وقُلِّبوا : جُعِلوا فى القالَب. يمرحون : ينشطون ويطْربون. ذوى الفَتاء : أهل الفُتوّة . والفَتاء : الحداثة والشباب ، يقال منه : فتؤ يفتَأُ فتاءً ، ويقال أيضاً : بَكْرٌ فتىّ بيّن الفَتاء ، وفتىٌّ من الناس : بيّن الفُتُوّة ، والفتى

(١) ملحق ديوانه ٢٥٦٧

والفتيّة : الشابّ والشابّة . الاصطلاء : التسخن بالنار . الثّمل : السّكران . والطِّلاء : الخمر ، وأصل الطِّلاء الرُّبّ الثخين الأسود ، فسمِّيت الخمر الصافية طِلاءً بضد صفتها ، كما سُمِّى اللديغ سليما ، والأسود أبا البيضاء ، والذئب أبا جعدة ، وجَعدة اسم الشاة .

* * *

ولما أن سَرَى الحَصَر ، وانْسَرى الخَصَر ، أُتينا بموائدَ كالهَالاتِ دوْراً ، والروضاتِ نَوْراً ، وقد شُحِنَّ بأَطْعِمَة الْوَلاَئم ، وحُمِين من الْعائب واللاّئم ، فرفَضْنَا ما قِيـــلَ فى البِطْنَة ، ورأَينا الإمعانَ فيها من الْفِطْنَة ، حتّى إذا اكتَلْنَا بِصَاعِ الْحُطَم ، وأَشْفَيْنَا على خَطَرِ التُّخَم ، تَعَاوَرْنَا مَشُوشَ الْغَمَر ، ثمَّ تبوّأْنَا مَقَاعِدَ السّمَر ، وأَخَـذَ كُلُّ واحدٍ منَّا يشولُ بِلسانه ، وينشُرُ ما فِي صِوَانِه ، ما عدَا شيخاً مشتهباً فَوْدَاهُ مخلَوْلقاً بُرْدَاه ؛ فإنَّه رَبَضَ حَجْرَةً ، وأَوْسَعَنَا هِجْرَة ، فغاظنا تجَنُّبُه ، الملتبِسُ مُوجِبُه ، المعذور فيه مؤنِّبُه ، إلَّا أنّا أَلنَّاله الْقَوْل ، وخَشِينا فى المسألةِ الْعَوْل ، وكلَّمَا رُمْنَا أنْ يَفِيض كما فِضْنَا ، أَوْ يُفيضَ فِيمَا أَفَضْنَا أَعرَضَ إعراض الْعِلْيةِ الْأَرْذِلين ، وتلا ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَساطِيرُ الأَوَّلِين ﴾ . ثمّ كأَن الحَمِيَّة هاجتْه ، والنَّفْسَ الأَبِيّة ناجَتْه ، فدلَف ، وازْدَلَف ، وخَلَع الصّلَف ، وبَذَلَ أن يَتَلافَى ما سَلَفَ ، ثمّ اسْتَرْعَى سَمْعَ السَّامِرِ . وانْدَفَع كالسَّيْلِ الْهَامِرِ وقال:

* * *

سَرَى الحَصَر ، أى زال السكوت ، والحصَر : انقطاع الكلام ، وهو العِىّ ، وحَصَر يَحْصَر : عىّ ، والحصر أيضاً : ضيق الصدر . انسرى الحَصَر : ذهَب البرْد ، والحصر : البارد ، وخصِر الرجل : إذا آذاه البرد وآلمه فى أطرافه . والروضات نورا ، أى هى فاعمة بكثرة الطعام وأنواع الألوان . شُحِنّ : ملئن . الولائم : الأعراس . حُمِين : مُنِعن . العائب : الذى يَعيب الطعام . واللائم : الذى يقف على رءوس أضيافه ، فيقول : ما أكلتم ، استعملوا ، زِدْ يا فلان ، فيخجلُ أضيافه لذلك ، فلا يتمكّنون من الطعام . رفضنا : تركنا .

[مما قيل فى البطنة]

البطْنة : الامتلاء من الطعام ، والّذى قيل فى البطنة : البطنة تُذْهب الفِطْنة ، فقال تركنا هذا المعنى وخالفناه ، ورأينا أنّ البِطْنة وهى امتلاء البطن من الطعام والإمعان فيه ، أى المبالغة فى الأكل يقوِّى الفطنة ، ويولدّها لا أنّه يُذهِبُها . والفِطْنة : الذكاء وحدّة الذهن .

معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحلّ الله حلالا أبغضَ إليه من بَطْنٍ ملىء طعاماً ، فقصِّروا من الطعام تملئوا من الحكمة » .

المقدام بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ملأ آدمىٌّ وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان لا محالة ، فثُلث لطعامِه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يأيها الناس ، إيّاكم والبِطْنة ، فإنها مكسلة عن الصّلاة ، مفسدة للجسد ، مورّثة للسقم .

وقال علىٌّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : إياكم والبِطْنة فإنها مفسدة للقلب

الأصمعىّ قال أعرابىّ : إذا كنتَ بطيناً فعد نفسك زمِناً .

وقال الحارث بن كلدة : أربعة أشياء يُهْزِمن البدن : الغِشْيان على البطنة ، ودخول الحمّام على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجامعة العجوز .

وقال الأصمعى : كنت عند هارون الرشيد فقدّمت إليه فالوذجة فقال : يا أصمعىّ ، حدثنى بحديث مزرِّد أخى الشماخ ، قلت : إنّ مزرِّداً كان رجلاً جسيماً ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد ، وكان يُحْفِظه ذلك منها ، فذهبتْ يوماً فى بعض حقوق أهلها ، وخلّفته فى بيتها ، فدخل خَيْمتها فأخذ صاعَيْن من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضَه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول :

ولمّا مضتْ أمّى تزورُ عيالها ... أغرت على العكّ الذى كان يُمْنَعُ
خلطت بصاعىْ حنطة صاعَ عجوةٍ ... إلى صاع سمن فوقهما يتربَّعُ
ودلّيت أمثال الأثافى كأنّها ... رءوس لعادٍ قُطِّعت لا تجمَّعُ
وقلتُ لبطنى أبشِر اليوم إنّه ... حمًى آمنٌ مما يغُير ويُفزِعُ
فإن مصفوراً فهذا داووْه ... وإن كنت غَرْثَاناً فذا اليوم تَشْبَعُ

فاستضحك منه حتى أمسك بطنَه ، واستلقى على ظهره ، ثم قدّم يدَه بمال ، وقال : خذ ، فهذا يوم تشبع يا أصمعىّ .

قوله الحُطَم ، أى الذى يحطّم ويُكْسِر ، ورجل محطَّم وحُطَمَة ، إذا كان قليل الرحمة للماشية ، وفى المثل : شرُّ الرِّعاء الحُطَمَة . وقال الزّاجر :

* قَدْ لَفَّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ *

فمعنى اكتلنا بصاع الحُطم ، أى أكلنا أكل أكول لا يُشْفِق على نفسه من السّقَم . وأشفينا : أشرفنا . خَطَر : غَرَر التُّخَم : جمع تُخَمة بفتح الخاء ، وهو أن يثقُل الطعامُ على المعدة ويتغيَّر ، والعامة تسكِّن الخاء ، وقد يجىء ذلك فى الشعر قال أعرابىّ :

وإذا المعـــدة جاشَتْ فارْمِهـــا بالمِنْجَنِيقِ
بثلاثٍ من نبيـــذ ليس بالحلو الرقيقِ
تَهْضِم التُّخْمـة هَضْماً حين تجرى فى العروقِ

وتعاورنا الشيء : تداولناه ، وأخذه بعضُنا من بعض ، وأزلناه من موضع إلى موضع . وَعَورُ العين : زوالها . والْغَمَر : ريح اللحم وزَهَمُه. تبوّأنا : أخذنا ونزلنا . السَّمر : الحديث يُسْمَر عليه . يشول بلسانه ، أى يضرب به فى كلّ كلام ، وشال : رفع . والصّوان : وعاء يُصان فيه الشيء . فواده : ناحيتا رأسه، والْفَوْد : ما بين طرف الجبهة والأذن . مخلولقاً : كثير البِلَى . بُرْداه : ثَوْباه . رَبَض : جلس ، وفى المثل : فلان يَرْبِضُ حَجْرَةً ، ويرتقى وسطاً ، يضرب مثلاً لمن يساعدك ما دمت فى خير ، فربَض حَجْرة ، أى جلس ناحية وبرك . أوْسَعَنا : كثَّر لنا . الهجرة : المباعدة والمقاطعة ، يريد أنه اعتزلهم وجلس ناحية ولم يكلِّمهم بكلمة . تجنُّبه : تباعده ، يقال : تجنَّبْتك وتَجانبتك ، أى تباعدت عنك ، والجار الجُنُب : البعيد . وما زاره إلا عن جَنَابة ، أى عن بعد . المتلبِّس موجبه ، أى الذى التبسَ علينا ما أوْجَبه . مؤنّبه : لائمه . العول : الزيادة . رُمْنَا : طلبنا . يفيض كما فِضْنا : يتكلّم كما تـكلّمنا والْفَيْض زيادة الماء، ويُفيض فيما أفضنا ، أى يأخذ معنا فى النوع الذى أخذنا فيه . أعرض : لوى وجْهَه . الْعِلْية : الأشراف . الأرذَلين : الأدنياء . أساطير : تآليف وكتب . الحَمِيّة : عزة النفس . هاجته : حرّكته . الأبية : العزيزة . نَاجتْه : حَدّثَتْه . دلف : مشى إلينا ، وازدلف : تقرّب . خلع : أزال . الصلَف : مجاوزةَ قدْر الظَّرْف حتى يفضى به ذلك إلى أن تأخـذ به باباً ما فيخالفك ولا يعبأ بك . يتلاق : يتدارك . سلف : مضى . استرعى : دعاهُ للاستماع يقال : أرعِنى سمعَك أى أسمع منى . الهامر : الكثير الانصباب .

* * *

عندى أعاجيبُ أَرْوِيها بلاَ كذبِ
عن العِيـــان فكنْ منى أَبَا الْعَجبِ
رأيتُ يا قومِ أقواماً غِـذَاؤُهُمُ بولُ العجوزِ وما أَعْنِى ابْنَةَ الْعِنَبِ

— بَوْل العجوز : لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر —

ومُسْنِتِين من الأعرابِ قـــوتُهُمُ
أَن يَشْتَوُوا خِرقةً تُغْنِى من السَّغَبِ

— الخِرْقة : القطعة من الجراد —

وقادرين متَى ما ســـاء صنعهُمُ
أو قصَّرُوا فيـه قالوا الذّنب لِلْحَطَبِ

— القادر : الطّابخ فى القِدْر ، والقَدِير : المطبوخ فيها .

وكاتبين وما خطّت أنامِلُهُمْ حرفاً ولا قرءوا ماخُطَّ فى الكتبِ

— الكاتبون الخرّازون ؛ يقال : كتب السقاء والمزادة ؛ إذا خَرَزَهما وكتب البغلة أو الناقة ، إذا جمع بين شفريها وخاطهما ، قال الشاعر :

لا تأمننَّ فزاريًّا خَـــلَوْتَ به على قَلوصك واكتبها بأسيار

وتابعـــين عقاباً فى مسيرِهِمِ على تكمّيهمُ فى الْبَيْضِ وَالْيَلَبِ

— العُقاب : الراية ، وكانت راية النبى صلى الله عليه وسلم تسمّى العُقاب .

* * *

العيان ، أى المشاهدة بالعين . مسنتين : أصابتهم السّنة ، أى اشتدّ عليهم . يَشْتَوُوا : يتخذوا شواء . السَّغب : الجوع . تَكمّيهم : تسترّهم . الْبَيْض : ما يجعل فى الرءوس فى الحرب .

ومنتدِينَ ذَوِى نَبْلٍ بدتْ لهمُ نبيلةٌ فانْثَنَوْا منها إلى الْهَرَبِ

— النَّبيلة : الجِيفة ، ومنه تَنَبَّل الأميرُ ؛ إذا مات وأرْوح ، يعنى نتن .

وعُصْبةً لم تَرَ البيتَ العتيق وقدْ حَجَّتْ جُثِيًّا بلاشَكٍّ على الرُّكَبِ

— معنى حجّتْ جثيًّا ، أى غلبت بالحجّة مجادلين جاثين على الرُّكَب ، وجُثِيّ : جمع جاثٍ .

ونسوةً بعدما أَدْلَجْنَ من حَلَبٍ صَبَّحْن كاظمةَ من غير ما تَعَبِ

— كاظمة فى هذا الموضع من كَظَمَ الغيظ —

ومُدْلِجِينَ سَرَوْا من أَرْضِ كاظمةٍ
فأصبحوا حينَ لاح الصُّبْح فى حَلَبِ

— فى حلَب ، أى أصبحوا يحلُبون اللبن —

ويافعاً لم يُلاَمِسْ قَطُّ غانيـــةً شاهدتُه وله نسلٌ من الْعَقِبِ

— النَّسْل هاهنا : العدوّ قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ . والعقِب : مؤخَّر القدم .

* * *

منتدين : مجتمعين . انثنوا : رجعوا . والنّبيلة : الحاذقة فى فعلها . عُصْبة : جماعة . أدْلَجْنَ : سرن بالليل ، ومثلُه سَرَوْا . لاح : ظهر . يافعاً : شابًّا . يلامس : يلاعب ، ويمسّها بيده . غانية : امرأة جميلة غَنِيَتْ بحسنها عن الزينة . صُبِحْن كاظمة ، أى سُقين الصّبوح كاظمةَ غيظَها . وصَبَحه . سقاه صَبوحاً ، وكظم غيظه : تجرعه ، وهو قادر على الإيقاع بعدوّه ولم يمضه ، وكظم خصمه : أجابه بالمسكت فألجمه ، وأصل الكظم للبعير ، وهو أن يردّد جِرّته فى حَلْقه ولا يجترها : وكاظمة : موضع على سِيف البحر ، أى على ساحله على مرحلتين من البصرة ، وفيه ركايا كثيرة ، وماؤها شروب .

* * *

وشائباً غَيْرَ مُخْفٍ للمشيب بدا فى البدو وهو فتىُّ السِّنّ لم يَشبِ

— الشائب هاهنا : مازج اللبن ، والمشيب : اللّبن الممزوج ، ويقال فيه مَشِيب ومَشوب .

ومُرْضَعاً بلبانٍ لم يفُهْ فمُهُ رأيتُــه فى شِجارٍ بَيِّنِ السَّببِ

— الشِّجار : المحفّة ما لم تكن مُظَلَّلة فإنْ ظُلِّلَتْ فهو الهودج . والسّبب هاهنا : الحبْل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء ﴾ —

وزارِعاً ذُرَةً حَــتَّى إذا حُصِدَت
صَارَتْ غُبَيْرَاءَ يَهْواها أخو الطَّرَبِ

— الغبيراء : المُسْكِر المتَّخَذ من الذُّرة ويُسمَّى أيضاً السُّكركه . وفى الحديث : « إياكم والغبيراء فإنّها خمر العالم » .

وراكباً وهو مغلولٌ على فرسٍ قد غُلّ أيضاً وما ينفك عن خَبَبِ

— المغلُول هاهنا العطشان ، وغلّ ، أى عطش .

وذا يدٍ طُلُقٍ يَقْتَاد راحــلةً
مستعجِلاً وهو مأسورٌ أخو كُرَبِ

— المأسور : الّذى يجد الأسر ، وهو احتباس البول .

* * *

اللّبان : لبن الآدميات . يَفُهْ : ينطق . يهواها : يحبّها . أخو الطَّرَب : صاحبه المولع به . ينفك : يزول . خَبَب : نوع من السير . طُلُق . سارح . كُرَب : همّ .

* * *

obeikandl.com

وجالساً ماشياً تهوى مطيَّتُه به وما فى الَّذِى أَوْرَدْتُ من رِيَب

— الجالس : الآتى نَجْداً ، والماشى : الذى كثرتْ ماشيتُه ، وعليه فسّر بعضُهم قوله تعالى : ﴿أَنِ امْشُوا﴾؛ كأنه دعاء عليهم بكثرة الماشية والنماء والبركة

وحائكاً أَجْدَم الكفَّيْن ذا خَرَسٍ فإن عجبتم فكمْ فى الخَلْقِ من عَجَبِ

— الحائك هاهنا : الّذى إذا مشى حرّك منكبيه وفجّ بين ركبتيه .

وذا شَطَاطٍ كصَدْرِ الرُّمْح قامتُه صادَفْتُه بِمِنًى يَشْكُو من الحَدَبِ

— الحدَب : ما ارتفع من الأرض —

وساعياً فى مسرَّاتِ الأنامِ يَرَى إفراحَهُمْ كالظُّلْمِ والكَذِبِ

— إفراحهم : إثقالُهم بالدّين ، ومنه قوله عليه السلام : « لا يُتْرَك فى الإسلام مُفْرَح » أى مُثْقَلٌ من الدَّين أو يقضَى عنه دينُه —

ومُغْرَماً بمناجاة الرِّجال لَهُ وما لَهُ فى حديث الخَلْقِ من أَرَبِ

— الخلْق هاهنا : الكذب ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ —

وذا زمامٍ وَفَتْ بالْعَهْدِ ذِمَّتُه ولا ذِمَامَ لَهُ فى مَذْهَبِ الْعَرَبِ

— الذّمام الثانى : جمع ذمّة ، وهى البئر القليلة الماء . وعنى بالمذهب المسلك ، أى ماله آبار قليلة الماء فى البدو .

* * *

تهوى : تسقط وتسرع . ريب : شكوك . أجذم : مقطوع . خَرَس : بكم . شَطَاط : طول . مُغْرماً : شديد الحب . مناجاة : محادثة . أرب : حاجة .

* * *

وذَا قُوَى ما استبانَتْ قطُّ لِينتُهُ ولبنُه مُستبينٌ غيرُ محتجبِ

— اللِّين : نخيل الدَّقَلْ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ما قَطَعتُم مِنْ لينَةٍ ﴾ .

وساجِداً فوقَ فحلٍ غيرَ مكترِثٍ بِمَا أَتَى بلْ يَرَاهُ أَفْضَلَ القُرَبِ

— الفحل : الحصير المتَّخَذ من خُوصِ النخل .

وعاذراً مَنْ ظَلَّ يَعْذِرُه مع التلطُّف والمعذورُ فى صَخَبِ

— العاذر : الخائن . والمعذور : المَخْتُون .

وبَلْدَةً ما بها ماءٌ لمغترِفٍ والماءُ يَجْرِى عَلَيْهَا جَرْىَ مُنْسَرِبِ

— البلدة : الفُرْجة بين الحاجبين ، وتسمَّى أيضاً البَلْجة —

وقَرْيَةً دونَ أخوصِ الْقَطَا شُحِنَتْ

بديلمٍ عَيْشُهُمْ مِنْ خُلْسَة السَّلَبِ

— القرية : بيت النمل . والديلم النمل الكثير . وخلسة السَّلَب : لِحَاء الشَّجر .

وكوكباً يتوارَى عند رؤيته الإنْسَانُ حتى يُرَى فى أَمْنَعِ الحُجُبِ

— الكوكب : النكتة البيضاء التى تحدث فى العين . والإنسان هاهنا : إنسان العين .

* * *

مكترِث : منكسر من الهمّ . القُرَب : جمع قُرْبة ، وهى ما يتقرّب به إلى الله تعالى من أعمال البرِّ . عاذر : قابل العذر . مؤلّماً : موجعاً . التلطف : الرفق واللين . الصّخَب : الصياح ، وتفسير ظاهر البيت أن تقول : رأيتُ عاذراً يوجع الّذى يعتذر له مع تلطّف العاذر للمعتذر وتَلْيينه القول له ، والمعتذر فى

صياحٍ من شدة ضَرراً لعاذر له ، فتتقابل هذه الأضداد ، فإذا فسّرتَ بتفسير الحريريّ صحّ المعنى . ومُنْسَرب : داخل فى السَّرَب وهو الحفير فى الأرض . قرية: مدينة ، وأخوص القطا : مرقدها وهى تَفْحَصُه: برجليْها توسّعه . شُحِنَتْ : ملئت . والدّيلمْ : أمة من العجم . خُلْسة : سرقة . والسَّلَب : المال المسلوب . يتوارى : يتغطّى ، وقال الحسن بن هانئ فى صفة الكواكب الذى هو النكتة على إنسان العين :

أعورُ المقلة من غير عِوَجْ لو عداه عَوَرُ العين انْسَمَجْ[1]

تحسب النكتة فى ناظرِه درَّةً بيضاء فى فصّ سَبَجْ

* * *

ورَوْثَةً قُوِّمَتْ مالاً لَهُ خَطَرٌ ونفسُ صاحِبها بالمال لَمْ تَطِبِ

— الرَّوثة : مقدَّم الأنف —

وصحفةً مِنْ نُضَارٍ خالص شُرِيَتْ بَعْدَ الْمِكاسِ بقيراطٍ من الذَّهَبِ

— النُّضار هاهنا : شجر النَّبْع ، ومنه قول بعض التابعين : لا بأس أنْ يُشرَب فى قدح النضار ؛ عَنَى به هذا .

ومُسْتَجِيشاً بخشخاشٍ لِيَدْفَعَ ما أظَـلَّه من أعَاديهِ فلم يَخِبِ

— الخشخاش : الجماعة عليهم دُروع وأسلِحة —

وطالما مرّ بى كلبٌ وفى فمِه ثَوْرٌ ، ولكنَّه ثورٌ بلا ذَنَبِ

— الثَّوْر : القطعة من الأَقِط ، وهو نوع من الجبن .

---

(١) ديوانه .

وكم رأى ناظِرِى فيلاً على جملٍ وقد تورَّك فوق الرَّحْلِ والقَتَبِ

— الفيل : الرَّجل الفائل الرأى .

وكم لقيتُ بعُرْضِ البِيدِ مُشْتَكِياً وما اشْتَكَى قَطُّ فى جِدٍّ ولا تعِبِ

— المشتكى : المتخذ شكْوةً وهى القِرْبة الصغيرة .

* * *

قوله : خَطَر ، أى حظ كثير ، والخطير : الرفيع القدر ، نُضار : ذهب أحمر . المِكَاس : المُمَاكسة بين المُتبايعين ، وهو أن يطلَب صاحب السِّلعة من المشْتَرِى سَوْماً ، فلا يزال المشترى يراجعه وينقصُ له مما طلب شيئاً حتى يتّفقا على ما يتراضيان عليه . والمستجيش : الجامع للجيش . والخَشْخَاش : بنت معروف ، وقال ابن وَكيع يصفه :

وخشخاش كأنّا منه نفرى قميصَ زَبَرْجَدٍ عن جسم دُرٍّ[1]

كأقداح من البلّور صيغَتْ وأغشيةٍ من الدِّيباج خُضْرِ

أظلَّه : قَرُب منه ، وكأنه أغشاه ظلَّه . القَتَب : خشب الرَّحْل ، والرَّحْل برذعة البعير . بعُرْض البيد : بجانب القِفار .

* * *

وكنت أبصرْتُ كرّازاً لرَاعيةٍ بالدَّوِّ ينظر من عينين كالشُّهُبِ

— الكرّاز : كبش يَحْمِل عليه الرّاعى أداته .

وكَمْ رأتْ مقلتِى عينيْن ماؤهما

يجرى من الغرْبِ والعينانِ فى حَلَبِ

— الغرْب : مجرى الدمع . والعينان : المقلتان .

---

(١) ديوانه ٦٢ . ونفرى : نقطع .

وصادعاً بالقنا مِنْ غَيْرِ أن عَلِقَتْ كفَّاه يوماً برمحٍ لا ولم يَثِب

— القَنَا : ارتفاع الأنف وتحدُّبِ وسطه ، وصَدَع به ، أى كشفه .

وكم نزلتْ بأرضٍ لا نَخيـلَ بها
وبَعْدَ يَوْمٍ رَأيتُ الْبُسْرَ فى القُلُبِ

— البُسرْ : جمع بُسْرة ، وهو الماء الحديث العهد بالمطر . والقُلُب : جمع قَلِيب —

وكم رأيت بأقطار الْفَـلاَ طَبَقاً يَطِـير فى الجوِّ مُنْصبًّا إلى صَبَبِ

— الطَّبق : القطعة من الجراد .

وكم مِنْ مشايخَ فى الدُّنْيَا رأيتُهم مخلَّدين ، ومَنْ يَنْجُو من الْعَطَبِ

— المخلّد : الذى أبطأ شيبُه —

وكم بدا لِيَ وَحْشٌ يشتكِى سَغَباً بمنطقٍ ذَلِقٍ أَمْضَى من الْقُضُبِ

— الوحش : الرَّجل الجائع .

وكم دَعَانِيَ مُسْتَنْجٍ فَحَادثنى وما أَخَلّ ولا أَخْلَلْتُ بالأدبِ

— المستنجى : الجالس على نَجْوة ، وهر المكان المرتفع .

* * *

كَرّاز : إناء . والدَّوّ : الصحراء ، والغَرْب : الدَّلْو العظيمة . فى حلَب : فى سَيَلان وجَرْيٍ . البُسْر : التمر الذى لم يَطِبْ . القليب البئر ، والجمع القُلُب . أقطار الفلا : نواحى القِفار . والصَّبب : الانحدار . العطب : الهلاك . السَّغَب : الجوع . ذلق : حادّ . أمضى : أقطع . القُضُب : السيوف . أخلّ : نقَصَ . المستنجى : الجالس لقضاء حاجة الإنسان .

* * *

وكم أَنختُ قَلُوصِي تحت جُنْبُذَةٍ تُظِلُّ ماشئتَ من عُجْمٍ ومن عُرُبِ

— الجُنْبُذَة : القبّة . والعُرُب : جمع عَروب ؛ وهى المتحبّبة إلى زوجها ، من قوله تعالى : ﴿ عُرُباً أترابا ﴾ .

وكم نظرتُ إِلَى مَنْ سُرَّ ساعَتَهُ ودَمْعُه مستَهِلُّ القَطْرِ كالسُّحُبِ

— سُرّ ، أى قطع سَرَرُه ، ويسمّى ما يبقى بعد القطع السُّرّة —

وكم رأيتُ قميصاً ضرَّ صاحِبَهُ حتَّى انثنَى واهِيَ الأعْضاءِ والعَصَبِ

— القميص : الدّابّة الكثيرة القُماص ، وهو الوثوب والقَفْز .

وكم إزارٍ لَوَانَّ الدَّهْرَ أتلفَهُ
لجفَّ لِبدُ حَثِيث السَّيْرِ مُضْطربِ

— الإزار : المرأة ، ومنه قول الشاعر :

* فدًى لك من أَخِي ثقةٍ إزارِى *

هـذا وكَمْ من أفانينٍ مُعْجِبةٍ عندى ومن مُلَحٍ تُلْهِي ومن نُخَبِ
فإن فَطِنتُمْ لِلَحْنِ القول بانَ لكمْ صدقى وَدَلَّكُمُ طَلْعِي على رُطَبِ
وإن شُدِهْتُمْ فإن العارَ فيه على مَنْ لا يُمَيِّز بين العُودِ والخَشَبِ

* * *

أنخت : أبركت . قَلُوصِي : ناقتى الفتية . تظلّ : تستر . سُرّ : أدخل عليه السرور ، وقد بيّن هو أنه المقطوع السرة ، وقال فى الدّرة فيما يكنى فى المعاريض . المقْلُول : الذى ضُرِبتْ قلّته ، أى أعلاه ، والمركُوب : الذى ضُرِبْت ركبته ، والمذكور : الذى قُطِع ذكره . والمسرور : الذى قُطِعت سرّته ، قال : ومن الأحاجى بأبيات المعانى :

نَسُرّهمُ وإن هُمُ أقبـــلوا وإن أدبروا فهمُ من سببِ

أى نطعنهم إذا أقبلوا فى السّرة ، وإذا أدبروا فى السُّبَة وهو الإست . وأنشد أيضاً :

ذَكَرْتُ أبا عمرو فماتَ مكانَهُ فواعجباً هلْ يهلِك المرء من ذَكَرِ

وزُرت علَيًا بعْـــدَهُ فرأيته ففارق دنياه ومات على صبرِ

ذكرتُه : قطعت ذَكَره ، ورأيتُه : قطعتُ رئته . مستهل : سائل . القَطْر : مصدر قطر ، إذا سقط ، ولا يقال : استهلّ حتى يكون مع انصبابه صوت . واهِى : ضعيف . العَصَبِ : حبال الجسد . الإزار ، هو المئزر الذى يجعل عوضاً من السراويل . حثيث : مسرع أراد به ذكر الإنسان فى حال نكاحه المرأة إنه مضطرب سريع السير والدفع فيقول : إن المرأة التى كانت تبلّ الذَّكر عند الجماع لو هلكت لبقىَ جافًا وأراد باللّبد موضع اللّبد وهو الظهر ، الفنجديهى يقول : كم من امرأة لو ماتت لترك زوجها كثرة الحركة فى طلب المعاش مرضاةً لها ، وجفوف العرق قد يكون من السكون ، والتفسير الأوّل أبين ، وهذا الثانى يحتمل إما وصفه بالسرعة والاضطراب ، وهو صفة فرس جعل له لبدا فألغز بذلك ، وقال أعرابى ماتت امرأته :

وكنتِ فَرِيسَتِى وغِلَافَ بُضْعى فأمسى البُضْع ليس له غلاف

ومن اللّغز فيه قول الآخر :

وصاحبٍ معجب فى طول صُحْبته لا ينفـع الدَّهْر إلّا وهو محمومُ

تأتيك فى نافض الحمّى منافعُـــه وإن أفاق يُرَى فى وجهه اللُّومُ

وقال الأقيشر : وكان عنّيناً ، فغالط فى شعره بالضدّ :

ولقـد عَدَوْت بمشرفٍ يا فوخُه عَسِر المكرّة ماؤه يتـــدفّقُ

أرنّ يسيل من النشاط لعابُه ويكاد جِلْد إهابه يتمزّق
حتى علوتُ به مَشْق ثَنِيَّةٍ طوراً يفور بها وطوراً يغرقُ

قوله : أفانين ، أى ضروب وأنواع ، والأفانين : الأساليب وهى أجناس الكلام وطرقه ، الأزهرىّ : أفانين : جمع أفنان : جمع فنَن ، وهو الغصن والخُصْلة من الشّعر ، وقيل : الأفنونُ الفنّ ، وهو ضَرْبٌ من الشّجر ، والحبال ، والجمع أفانين . مُلَح : ما يتكلم به من حلو الكلام وألفازه . تُلْهِى : تَشْغَل نُخب : مختارة . لحن القول : معناه ومذهبه ، واللحن التورية ، وهى أن تُظهر خلاف ما تضمر . الطَّلْع : أوّل ما يخرج من الثمر . والرُّطَب : الطيّب منه . شُدِهْتُم : تحيرتم .

* * *

قال الحارثُ بن همام : فطفِقنا نَخْبِط فى تَقْليبِ قَريضِه ، وتأويلِ مَعارِيضه وهو يلهو بنا لَهْوَ الخَلِىّ بالشَّجِى ، ويقول : لَيْس بمُشِّك فادْرُجى ، إلى أن تعسَّر النِّتَاج ، واستحكم الارْتِتَاج ؛ فألقينا إليه الْمَقادة ، وخطبْنا منه الإفادة ؛ فوقَفنا بين الْمَطْمَع والْيأس ، وقال : الإيناسُ قَبلَ الإبْساس ؛ فعلِمْنا أنّه ممن يرغبُ فى الشِّكْم ، ويَرْتَشِى فى الْحُكْم ، وساء أبا مثوانا أن نُعرِّض للغُرْم ، أو نُخَيِّبَ بالرُّغم ؛ فأحضر صاحبُ المنزل ناقةَ عِيديّة ، وحُلّةً سَعِيديّة ، وقال لَهُ : خُذْهما حَلالاً ولا ترزأْ أَضيافى زِبالاً ، فقال : أشهد أنّها شِنْشِنَةٌ أَخْزَمِيّة ، وأَرْيَحيّةٌ حاتِميّة .

* * *

طفِقْنا : أخذنا نخبط : نتكلّم بالزائد والناقص . تأويل : تفسير . معاريضه : ما عُرِّض به ولم يتمّه . الخلىّ : الذى لا هَمّ له ، والشّجى : الحزين وياء الخلىّ مشددة وياء الشجى مخففة ، وقد شُدِّدَتْ ياء الشَّجِى فى الشعر إتباعاً

لياء الخَلِىّ ، وقالوا: إنى لآتيه بالغدايا والعشايا ، فحملوا الغدايا على العشايا ، وحكى ثعلب فى غير الفصيح عن الأصمعىّ تثقيل الياء فيهما ، ومَنْ جعل شَجِى فَعِل كحذر خفّف ، ومن جعله فعيل مثل غنىّ شدّد ، وفعل بغير ياء أقيس ، والتشديد فى المَثَل أحسنُ للازدواج . تَعَسَّر : صَعُب . النِّتاج : ما ينتَج لهم من المعانى . استحكم : توثّق . الارتتاج : الانغلاق ، وأُرْتِج على القارئ وارتجج ، إذا لم يقدر على القراءة كأنه أُطْبِق عليه . ويرتشِى : يأخذ الرِّشوة . وعن ثوبان مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله الراشىَ والمرتشى والرائش» ، فقيل : وما الرائش ؟ قال : الذى يمشى بينهما .

ألقينا إليه المقادة : أى انقدنا له ، ورزأتُ الرّجل أرزؤه؛ إذا أصبتَ منه خيراً ، ورزأته ماله : نقصته والرِّبال بالكسر : ما تحمله النَّملة بفيها . والأريحيّة : الاهتزاز للجود . ساء : حزن . والرّغم : الذلة والهوان . شِنْشِنة : طبيعة حاتمية منسوبة إلى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج أحد بنى ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيىء .

[ذكر حاتم الطائى]

يكنى أبا سفّانة وأبا عدىّ . فارس شاعر جاهلىّ ، أحد الأجواد الذين يُضرَب بهم المثل ، بل هو أشهر منهم ، وهم: كعب بن مامة ، وهرِم بن سنان ، وحاتم ، وكان إذا قاتل غلب ، وإذا غنِم نَهَب ، وإذا سئل وَهَب ، وإذا قامَرَ سَبَق ، وإذا أَسَر أَطْلَق ، وإذا أثرى أنفق . ويقال : إنه لا يُعرف ميّت قرَى أضيافه إلاّ هو ، وذلك أن ركباً من العرب نزلوا بموضع قبره ، وقد نفد زادهم ، وفيهم رجلٌ يكنى أبا خيبرىّ ، فجعل يقول : أبا سَفّانة ، أما تَقْرى أضيافَك أبا سَفّانة ، إن أضيافك جياع ، يعيدها ، فلما نام ثار من نومه ، وهو يقول : واراحلتاه ! عُقِرت والله ناقتى ، فقال له أصحابه : وكيف ؟ قال : رأيت أبا سَفّانة قد انشق عنه قبره ، فاستوى قائماً ينشدنى :

أبا خيبرىٍّ لأنْتَ امرؤ ظـلومُ العشيرة لَوَّامُها
وماذا تريد إلى رمّـة بدوّية صخب هامُهَا
تبغى أذَاها وإسعارَها ودُونك طىٌّ وأنعامها

ثم عمـد إلى سيفى ، فانتضاه من غِمْده ، وعَقَر ناقتى ، وقال : دونكم فما أيقظنى إلا رغاؤها ؛ وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث ، فقالوا : قد والله قَرَاك حاتم فنحروها ، وأكلوا وتزوّدوا واقتسموا متاع أبى خيبرىّ ، واستَرّوا لوجهتهم ، فلمّا صاروا فى الظَّهيرة وَضَح لهم راكب يجُنب بعيراً يؤمّ سمتهم ، حتى التقوْا فقـال لهم : أفيـكم أبو خيبرىّ ؟ قالوا : نعم ، فقال : فإن عدىّ ابن حاتم رأى أباه البارحة ، وهو يقول : إنّ أبا خيبرى وأصحابَه استقرُونِى ، فقريتُهم ناقته ، فعوّضْه منها ، وزِدْه بَـكْراً يحمل عليه متاعه ؛ وهـذه الناقة وهذا البَكْر ، فارتحل أبو خيبرىّ الناقة ، وتخفّف هو وأصحابه من أزوادهم ، على البَـكْر ، ومضوا بأتَمّ قرًى .

وأدرك عدّى ابنه النبىّ صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وكان يحدّث أصحابه بهذا الحديث بعد إسلامه وقال الشاعر فى عدىّ :

أبوكَ أبو سَفّانَةَ الخـير لم يزلْ لدنْ شبَّ حتى مات فى الخير راغبَا
قرى قبره الأضـياف إذ نزلوا به ولم يقرِ قبرٌ قبلَه الدَّهْرَ راكبَا

وكانت سفّانة بنته من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصِّرمة من إبله فتهبُها وتعطيها الناس . فقال لها أبوها : يا بنيَّة إن الغويَّيْن إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإما أن أعطِى وتُمْسِكى ، وإمّا أن أُمْسِك وتُعطى أنت ؛ فإنه لا يبقى على هذا شىء ، فقالت : والله لا أمسِك أبداً ، قال : وأنا لا أمسك أبداً قالت : فلا نتجاور ، فقاسمها ماله وتبَايَنا .

وحكى أن أمّه كانت مِنْ أسخى النّـاس ، وأقراهم للضيف ؛ وكانت

لا تحبس شيئاً تملكه ، وهى عُتْبة بنت عُفَيف بن عمرو بن عبد القيْس ، فلما رأى إخوتُها إتلافَها ، حجروا عليها ومنعوها مالَها ؛ حتى إذا ظنوا أنها قد وجَدَتْ ألَمَ ذلك أعطوْها صِرْمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من هَوازن تسألها ، فقالت : دونك الصِّرمة ، فخذيها ، فوالله لقد عضَّنِى من الجوع ما لا أمنع بعده سائلاً أبداً ، ثم أنشأت تقول :

لَعَمْرِى لقِدْماً عضّنِي الجوع عَضَّةً فآليتُ ألاّ أمنع الدَّهْرَ جائعاَ[1]
فقولا لهـذا اللائم : اليوم أعفِنى فإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابعاَ
فإذا عسيتم أن تقولوا لأختُكمُ
سوى عذلكم أو عذلِ مَنْ كان مانعاَ
وهـل ما ترون اليوم إلا طبيعة وكيف بتركى يا بنَ أمِّ الطَّبائعاَ

فقد اكتنفَه الجودُ من أمه وأبيه .

وقالت امرأتُه النّوار : أصابتنا سنة اقشعرّتْ لها الأرض واغبَرّ أفق السماء ، وضنّت المراضع عن أولادها فما تبِضّ بقطرة ، فأيقنّا بالهلاك ، فوالله إنى لفى ليله صَبِيرةَ[2] بعيدة الطرفين ، إذ تضاغى صبيتُنا جوعاً : عبد الله وعدىّ وسفانة ، فقام إلى الصبيَّيْن وقمت إلى الصبيَّة ، فوالله ما سكتوا إلّا بعد هدأة من الليل ، وأقبل يعلِّلنى بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تفوّرت النجوم إذا شيء قد رفَع كِسر البيت ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقالت : جاريتك فلانة أتيتك من عند صِبْية يتعاوَوْن من الجوع عُواء الذئاب ، فما وجدتُ معوَّلا إلاّ عليك أبا عدىّ ، فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإيّاهم ، فأقبلت تحمل اثنين ، ويمشى إلى جانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رِئالُها ، فقام إلى فرسه فوجأ لبّتها بمدية ،

(١) الخبر والشعر فى طبقات الشعراء ٢٤٢
(٢) صبيرة : شديدة البرد .

فخرّت ، ثم كشط الجلد ، ودفع المُدية إلى المرأة وقال شأنك ، فاجتمعنا على اللحم نشوِى ونأكل ، ثم جعل يأتيهم بيتاً بيتاً ، ويقول : هُبّوا أيّها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا والتفّ فى ثوبه ناحيةً ينظر إلينا ، والله إن ذاق منها مُزْعة ، وإنه لأحوجُ إليها منا ، فأصبحنا وما على الأرض منها إلا عظمٌ وحافر ، فأنشأ يقول :

مهلاً نوار أقلِّى اللومَ والعــذلا ولا تقولى لشىء فاتَ ما فَعَـلاَ[1]

ولا تقولى لشىء كنتُ مهلكَه
مهلاً وإن كنتُ معطِى العَنْسَ والجملاَ

يرى البخيلُ سبيل المالِ واحدةً إن الجواد يَرَى فى ماله سُبُـلاَ

ولم يكن يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه ، فإنه كان لا يجود به .

وذكر الحريرى أن عُقَيلاً تمثّل بقول حاتم :

* شِنْشِنةٌ أعرِفُها من أخْزَمِ *

وكان عُقَيل[2] بن عُلفّة المرىّ غيوراً فخوراً وكانت الخلفاء تُصاهره ، فخطب إليه عبدُ الملك ابنته لبعض ولده ، فقال : أمّا إن كان ولابدّ ، فجَنِّبنِي هُجناء ولدك ، وخرج يمتار ومعه ابنه وابنته الجرْباء فنزلوا بالشأم بديْر سعد ، فلما ارتحلوا قال عُقَيل :

قضتْ وطراً من دَيْرِ سعدٍ وربّما على عُرُضٍ ناطحنَه بالجماجمِ[3]

ثم قال لابنه أجزيا عملّس ، فقال[4] :

---

(١) ديوانه ٧٤

(٢) الأغانى ١٢ : ٢٥٦

(٣) دير سعد : موضع بين بلاد غطفان والشام ، وبعده فى الأغانى :

إذا هبطتْ أرضاً يموت غرابها بها عطشاً أعطينهم بالخزائم

(٤) فى الأغانى : « انفذ يا علقة » .

فأصبحن بالموماة يحملْنَ فتيـــةً نَشاوَى من الإدلاجِ ميلَ العمائم[1]

ثم قال لابنته الجرباء : أجيزى ، فقالت[2] :

كأنّ الكرى أسقاهمُ صَرْخدِيّةً عُقاراً تمشَّت فى المطا والقوائم[3]

فقال لها : وما يدريك ما نعتُ الخمر ؟ ثم سلّ السيف ، فاستغاثت بأخيها فاختبل فخذيه بسهم ، فبرك ومضوا وتركوه حتى بلغوا المياه الدانية إليهم ، فقالوا لأهل المياه : إنّا أسقطنا جَزُوراً ، فأدركوها فوجدوا عُقيلاً باركاً ، وهو يقول : الأبيات

* إنّ بنىّ ضرجونى بالدمِ *[4]

* * *

ثمّ قابَلنا بوجْهٍ بِشرُه يشفّ ، ونُضرتُه ترِفّ ، وقال : يا قومِ ؛ إنّ اللّيل قد اجلوّذَ ، والنّعاس قد استَحْوذ ، فافزعوا إلى المراقِد ، واغْتَنِموا راحة الرّاقِد ، لتشربُوا نَشاطاً ، وتُبْعَثُوا نِشاطاً ، فتَعُوا ما أُفسِّر ، وبتسهّل لكم المتعسّر ، فاستَصْوَبَ كُلٌّ ما رآه ، وتوسَّد وسادة كَرَاه .

فلما وَسَنَتِ الأَجْفَان ، وأَغْفَتِ الضِّيفَان ، وثب إلى النّاقة فرحَلها ثمّ ارتَحلها ، وقال مخاطباً لها :

---

(١) بعده فى الأغانى :

إذا عـــلمٌ غادرنه بتنوفةٍ تذارعْن بالأيدى لآخَر جاسِمِ

(٢) فى الأغانى : « ثم قال أنفذ بى يا جرباء ، فعملت : « وأنا آمنة ؟ قال : نعم ، فقالت »

(٣) الصرخدية نسبة الى صرخد : بلد قريب من دمشق . والعقار : الخمر . والمطا : الظهر .

(٤) رواية الأغانى للابيات :

إن بنىّ سَرْبنونى بالدّم من يلق أبطال الرّجال يكلم

ومن يك ذا أوَدٍ يقوَّم شنشنة أعرفهـا من أخزمِ

وأخزم فحل كان لرجل من العرب وكان منجبا فضرب فى ابل رجل آخر — ولم يعلم صاحبه — فرأى بعد ذلك من نسله جملا فقال : شنشنة أعرفها من أخزم .

وانظر الأغانى واللسان — خزم .

سَروجُ يا ناقُ سِيرِى وخِدِى ... وأَدْلِجِى وَأَوِّبِى وَأَسْئِدِى
حتَّى تطا خُفَّاكِ مَرْعَاها النَّدِى ... فَتَنْعَمِى حينئذٍ وَتَسْعَدِى
وَتأمَنِى أن تُتْهِمِى وتُنْجِدِى ... إِيهِ فَدَتْكِ النُّوقِ جِدِّى وَاجْهَدِى
وَافْرِى أديمَ فَدْفَدٍ فَفَدْفَدِ ... وَاقْتَنِى بالنَّشْحِ عند المَوْرِدِ
وَلَا تَحُطِّى دون ذاكِ المقصِدِ ... فقد حَلَفْتُ حَلْفَةَ المجتهِدِ
بُحْرمة البيتِ الرَّفيعِ الْعُمُدِ ... إنَّكِ إنْ أَحْلَلْتِنِى فى بَلدِى
* حَلَلْتِ منِّى بِمَحَلِّ الْوَلَدِ *

* * *

قوله : بشره ، أى طلاقته . يشفّ : يتلألأ ويرِقّ حتى يكاد يصِفُ ماوراءه من السُّرور . نُضْرته : نعمته ورَوْنقه . تَرِفّ : تندَى . استحوذ : غلب واستولَى . افزعوا : الجئوا . لتشربوا نَشاطاً ، أى يتمشى النشاط فى أجسادكم حتى تُرْوَوْا به . تُبعثوا : تنتبهوا . نِشاطاً : جمع نَشيط ككريم وكرام ، ونَشِط ينشَط فهو نشيط ، إذا كان طيّب النفس للعمل . تعوا : تحفظوا . المتعسّر : الصعب . كراه : نومه . سَنَتْ : خالطها الْوَسَن ، وهو النوم . أغفت : نامت .

قوله : خِدِى ، أى أسرعى . تُتْهِمِى وتُنْجِدِى : تقصدى تِهامة ونَجْداً . إيهِ ، معناه زيدى فى سيرك . اجهدى : اتعبى . افرى : اقطعى . أديم : جلد . فدفد : أرض صُلْبة ، وقيل مستوية ، وقيل فلاة ، وأراد بالأديم وجهَ الأرض . ونَشَح ينشِح نَشْحاً : شرب قليلاً قليلاً . تَحُطّى : تنزلى . العُمُد ، والعمود : ما يقومُ عليه الخباء .

وقوله يخاطب ناقته :

إنك إن أحللتِنى فى بلدِى ... حَلَلْتِ منِّى بمحلِّ الْوَلَدِ

قد جاء فى كلامهم نظيره وضدّه ، وكلاهما فى بابه حسن . قال الشماخ فى ضدّه من مجازاة الناقة على إحسانها بالسوء :

إذ بلّغتْنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي عَرابَةَ فاشْرَقِي بدمِ الْوَتِينِ[1]

وناقضه الآخر فقال :

أقول لنـــاقتى إذ بلّغَتْنِي لقد أصبحتِ منى باليَمِينِ
فلم أجعلك للقـــربان طُعْماً ولا قلتُ اشرقى بدم الوتينِ

وتبعه ذو الرُّمة فقال :

أقول لها إذ شمّر الليل واستوتْ بها البيدُ و استَنَّتْ عليها الحزَاوِرُ[2]
إذا ابن أبى موسى بلالاً بلغتِه فقام بفأْسٍ بين رجليـــك جَازِرُ

وتوجيه الحسن فى هذا المذهب على شنعة ظاهره أنّه لا يبالى بفقدها ، لأن الممدوح يحمله ، ويعطيه فهو فى غنًى عنها . ومن يَعيب هذا يقول مجازاةُ الحسن بالسوء قبيح ، وقد قال رسول الله عليه وسلم للمرأة التى قالت وقد نجت على ناقتِه : نذرتُ إن نجّانى الله عليها أن أنحَرها : « بئس ما جازيتِها ، ولا نذر لك فى مال غيرك » والمذهب الأحمد فى ذلك قولُ عبد الله بن رواحة رضى الله عنه حين خرج فى جيش مؤتة يخاطب ناقته :

إذا بلّغتنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مسيرةَ أربعٍ بعـد الحِساء[3]
فشأنَكِ فانعِمِي وخلاكِ ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلى ورائى

ولهذا تبعه الحريرى فى شعره .

وقال الحسن :

---

(١) ديوانه ٣١٩
(٢) ديوانه ٢٥٣
(٣) الحساء : موضع وانظر معجم البلدان ٢ : ٢٧٤

وإذا المطىّ بنا بلغن محمّداً فظهورهنّ على الرِّجال حرام[1]
قرّبنَنَا مِنْ خير من وَطِىءَ الثرى فلها علينـــا حُرْمَةٌ وذمام

وقال داود بن أسلم يمدحُ قُثَم بن العباس رضى الله عنهما :

نجوتِ من حَلٍّ ومن رِحْلَةٍ يا ناق إن بلّغتِنى من قُثَم[2]
إنّك إنْ بلّغتنيه غـــداً عاش لنا الخير ومات العَدَمْ

* * *

قال : فعلمت أنّه السّروجىّ الّذى إذا بَاعَ انْبَاع ، وإذا ملأ الصاعَ انْصَاع .

ولمّا انْبَلَجَ صَبَاحُ اليَوْم ، وهبَّ النوّام من النّوم ، أعْلَمْتُهُم أن الشيخ حين أَغْشَاهُمُ السُّبَات ، طلَّقهم البَتَات ، وركب الناقة وفَات ؛ فأخذهم ما قَدُم وما حَدُث ، ونَسُوا ما طابَ منه بما خَبُث ؛ ثمّ انشعبنا فى كلّ مَشْعَب ، وذَهَبْنَا تَحْت كلّ كَوْكَب .

* * *

قوله : انباع ، أى جرى ومدّ باعه ، ومعناه هرب منه فى سيره .

يقال : صُعْت الشىء فانصاع ، أى فرّقته فتفرّق ، ومعناه إذا ملأ كيسه من عطاء قوم راح عنهم . انبلج : أضاء . هبّ : انتبه . أغشاهم : غطّاهم . السُّبَات : النوم الخفىّ كالغشية . ثعلب : السُّبات ابتداء النوم فى الرأس حتى يبلغ القلب ، وسبت الرجل فهو مسبوت : نعس . والبتات : القطع البائن . فات ، أى فرّ فلا يُلْحَق .

---

(١) ديوانه ٦٤

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢٩ ، ونسبها الى سليمان بن قتة من الأخفش .

وذكر الحريرى فى درّة الغواص : أن قولهم : حَدُث أمر بضم الدال قياساً على أخذهم ما قَدُم وما حَدُث خطأ ، وإنما ضُمّت الدال من حدُث حين قرن بقَدُم للمحافظة على الموازنة، فإذا أفردت لفظة حَدُث زال موجب الضم ، ووجب الردّ إلى الأصل . قال : وأنشدنى بعضُ أدباء خُراسان لأبى الفتح البستى :

جزعت من أمرٍ فظيع قد حَدُثْ أبو تميم وهو شيخ لا حـــدَثْ

* قد حبس الأصلع فى بيت الحدَثْ *

* * *

لم نتعرض فى شرح هـــذه المقامة ، لما ثبت فى كتاب المقامات من شرح مُنْشيها ، بل نُعْقب ما أهمله ، وكان الأولى إثباتُ ما شرح بنصه ؛ إذ هو وَفْقٌ لغرضِه .

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىٍّ رحمه الله تعالى :

قد فسّرتُ سرَّ كلّ لغز تحته ، ولم أُبعد على مَنْ يقرؤه كشفَه ، وقد بقيتْ أَلْيَفَاظ اشتملت عليها هذه المقامة ربّما التبس تفسيرُها على بعض مَنْ تقع إليه ، فأَحببتُ إيضاحها له ليُكْفَى حَيْرة الشبهة وكُلْفة الفكْرة ، ووَصْمَة البحث والمسألة ، وبالله تعالى الاستعانة والقوّة .

قوله : « عشوتُ إلى نار » يعنى تنوّرتُها فقصدتُها فإن لم تقصدها قلت : عَشَوْت عنها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ ﴾ أى يُعْرِض .

وقوله : « وأنا أَصْرَد من عينِ الحَرْباء والعَنْزِ الجَرْباء » هذان مَثَلان يُضْربان لمن يبلغ منه البرد ، وذلك لأنَّ الجِرْباء تَدُور أبداً مع الشمس وتستقبلها بعينِها ، ولذلك شبّه ابنُ الرومى الرّقيب بالجِرْباء فى قوله[1] :

ما بالُها قد حُسِّنَتْ ورقيبُها أَبَداً قَبيحٌ ، قَبَّحَ الرُّقَبَاء
ما ذاك إلاّ أنّها شَمْس الضُّحا أبداً يكون رقيبَها الجِرْبَاء

والعنز الجَرباء لا تدفأ فى الشتاء لقلّة شعرها . وذكر بعضهم أن العَنْز الجرباء تصحيف المَثَل الأول .

وقوله : « من نحر وارٍ » يعنى الجمل المكتنز شحماً ، الكثير مُخًّا .

وقوله : « عِشاره تخورُ وأعشاره تفور » العِشار : النُّوق الحوامل . والأعشار : البُرْمة العظيمة ، كأَنها شُعِبت لِعِظَمها ، يقال : بُرْمَةٌ أعشار وجَفْنَةٌ أكسار وثَوْبٌ أسمال وبُرْدٌ أخلاق وحبل أرْمام ، ووصْف الجماعة منها كوصف الواحد .

وقوله : « فاكهة الشتاء » كَنَى بها عن النار ، ومنه قول بعض المحدَثين :

(١) ديوانه ١ : ٦٣

النّار فاكهة الشتاء فمن يُرِدْ أكل الفواكه شاتياً فليصْطَلِ
إنّ الفوَاكِه فى الشتاء شَهِيّةٌ والنّار للمقرور أفْضَلُ مَأْكَلِ

وقوله : « موائد كالهالات » يعنى داراتِ القمر ، ودارةُ الشمس تسمَّى الطُّفاوة

وقوله : « مَشوش الغَمر » يعنى المنديل ، يقال : مشَّ يده بالمنديل ، أى مَسَحها ، ومنه قول امرئ القيس :

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكُفَّنَا إذا نحن قُمْنَا عن شِواء مُضَهَّب[1]

وقوله : « مشتهباً فوداه ، أى صارا من الشَّيْب فى لون الأَشْهب ، ومنه قول امرئ القيس :

قالتِ الخَنْسَاء لمّا جئتُها شابَ بَعْدِى رأسُ هذا واشْتهب[2]

وقوله : « رَبَض حَجْرة » يعنى ناحية ، ويقال فى المثل لمن يشارك فى الرّخاء ويجانب عند البلاء : يَرْتَعُ وسطاً ويَربض حَجْرة .

وقوله : « فاسْتَرْعَى سَمْعَ السّامر » يعنى السُّمّار ؛ لأنّ السامر اسم للجمع كالحاضر اسم للحىّ النازلين على الماء ، وكالباقر : اسم لجماعة البقر .

وقال بعض أهل اللغة : هو اسم للبقر مع رُعاتها ، واشتقاق السّامر من السّمر ، وهو ظلّ القمر مأخوذ من السمرة ، فلمّا كان غالب أحوال السّمّار أنهم يتحدثون فى ظل القمر اشتُقّ لهم اسم منه ، وإلى هذا يَرْجع قولهم : « لا أكلّمه القَمَر والسَّمَر »

وقوله : « ليس بُشَّك فادْرُجى » هذا مثل يضرب لمن يتعاطَى مالا ينبغى له . والبُشّ : مايكون فى شجرة ، فإذا كان فى حائط أو كهف جبل فهو وكْر .

وقوله : « الإيناس قبل الإبساس » هذا مثل أيضاً ، ومعناه أنه ينبغى أنْ يؤنِس الإنسان ثم يكلِّف ، وأصله أنّ حالب الناقة يُؤنسها حين يَرُوم حَلَبها ،

(١) ديوانه ٤٥ (٢) ديوانه ٢٩٣

ثم يبسّ بها للحلب ، والإبساس أن تقول لها : بس بس ، لتَسْكُن وتَدِرّ ، وتسمّى الناقة التى تَدِرّ على الإبساس : الْبَسُوس .

وقوله : « يرغب فى الشَّكْم » الشكم ما أعطيتَه على سبيل المجازاة ، فإن أعطيتَه مبتدئاً فهو الشَّكْد .

وقوله : « ساء أبا مثوانا » يعنى المُضيف الذى أَوَوْا إليه وثَوَوْا عنده .

وقوله : « ناقة عِيدية » قيل إنها منسوبة إلى فحل منجب اسمُه عيد ، وقيل : هى منسوبة إلى فِخذ من مَهرة اسمه عيد بن مهرة ، وكانت مَهرة وعِيد تتخذان نجائب الإبل ، فنسبت إليهما .

وقوله : « حلّة سعيدية » هى منسوبة إلى سعيد بن العاص ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كَساه وهو غلام حُلّة فنُسِب جِنْسُها إليه .

وقوله : « لاتَرْزَأْ أضيافى زِبالاً » أى لا ترزؤهم شيئاً وإن قل ، والأصل فى الزِّبال ما تحمله النملة بفِيها .

وقوله : « شنشنة أخزمية » أشار به إلى المثل الذى ضربه جَدُّ حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن أخزم الطائى ، حين نشأ حاتم وتقبَّل أخلاقَ جدّه أخزم فى الجود ، فقال : « شنشنة أعرفها من أخزم » وتمثَّل عُقيل بن علّفة به حين قال :

إن بَنِىّ ضرّجُونى بالدمِ مَنْ يَلْقَ آساد الرِّجال يُكْلَمِ
* شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أَخْزَمِ *

ومن ادّعى أن المثل له فقدسها فيه .

وقوله : « اجلوّذ » أى أسرع فى الذَّهاب ومثله اخْرَوَّط .

وقوله : « وَثَب إلَى النَّاقَةِ فرحَلها » يعنى شدّ عليها الرَّحْل ، وبه سُمِّيت الراحلة ، لأنها فاعلة بمعنى مفعوله كقوله تعالى : ﴿فى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ، أى مَرْضية .

وكقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أى مدفوق، والرَّاحلة تقع على الناقة والجمل ودخول الهاء فيها للمبالغة ، مثل داهية وراوية .

وقوله : « ارْتحلها » أى ركبها ، وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سجد ، فركبه الحسن فأبطأ فى سجوده ، فلمَّا قضى صلاته قال : « إنّ ابنى ارْتحلنى فكرهتُ أن أُعْجِله » .

وقوله : « ورحَلها » أى أزعجها وأشْخَصها وأجدّ بها فى الرحيل ، ومنه الخبر : « تخْرُج عند اقتراب الساعة نارٌ من قَعْرِ عدَن تَرْحَلُ الناس » .

وقوله : « فأدْلجى وأوّبى وأسئدى » . الإدلاج : أن تسير الليل كلّه والاسم منه الدَّلجة بفتح الدال والادّلاج بالتشديد : أن تسير من آخره والاسم منه الدُّلجة ، بضم الدال . وقيل فتحها وضمها بمعنى واحد . والتأويب : سَيْر النّهار وحده . والإسئاد : أن تسيَر ليلاً ونهاراً . والنَّشْح : أن تشرب دُونَ الرّىّ .

وقوله : « ما قَدُم وما حدُث » ، يقال ذلك لمن تستولى الهموم عليه وتتلاعب به . وتضمّ الدال من « حَدُث » فى هذا الموضوع وحدَه ، ليوافق لفظها لفظ « قَدُم » ؛ فإن أفردت « حدَث » عن قَدُم وجب فتح الدال من « حَدَث » ، ومثله قولهم : هنأنى ومرأنى بحذف الألف من أمْرَأنى إذ ذكر مع « هنأنى » فإن أفردته قلت : أمرأنى الشىء .

وقوله : « ذهبنا تحت كلّ كوكب » هذا المثل يضرب لمن تختلف فى السفر طُرُقهم وتتباين سبلهم .